المجتمع المثالي

كما تنظمه سورة النساء

فضيلة الشيخ
محمد محمد المدني

الطبعة الدولية

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

الناشر

الدار المصرية للنشر والتوزيع

al dar al-masria publishing & distribution house ltd.

20 Kalypso, St., suite 301, Acropolis, P.O.Box 8559

Tel. (02)498688, Telex 5341 Hosni-Cy Fax-(003572) 312983

Nicosia - Cyprus

بسم الله الرحمن الرحيم

يُرِيدُ الله لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ويَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قبْلِكمْ ويَتُوب عَلَيْكُمْ ، والله عَلِيمٌ حَكِيم .

والله يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهوَات أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيما .

يُرِيدُ الله أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً .

الآيات ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ من سورة النساء

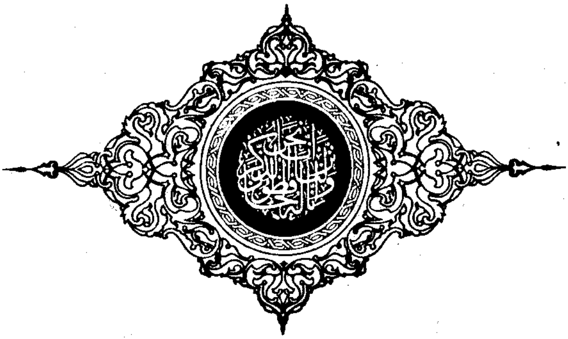

الشيخ محمد محمد المدني
عميد كلية الشريعة بجامعة الأزهر سابقا

❊

ولد عام ١٩٠٧ وحصل على شهادة العالمية عام ١٩٢٧
قبل أن يتم العشرين عاماً .

❊

حصل على الدكتوراه عام ١٩٣٠ في علوم البلاغة والأدب .

❊

له مؤلفات وبحوث اسلامية كثيرة .

دققه الشيخ محمود طنطاوي

*

وافق على طبعه وتوزيعه :

ادارة البحوث الاسلامية بالأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

نحمدك اللهم حمدا يوافي نعمك، ويكافىء مزيدك، ونصلي ونسلم على خاتم أنبيائك، وصفوة خلقك، سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الهداة الراشدين، ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين.

اللهم انا نبرأ اليك من الحول والطول، ونسألك التوفيق لما ترضاه من العمل والقول، ونعوذ بك أن نتكلف ما لا نحسن، أو نقول ما لا نعلم، أو نماري في الحق، أو نجادل عن الباطل، أو نتخذ العلم صناعة، أو الدين بضاعة، **﴿ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا﴾**[1] **﴿ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا، ربنا انك رؤوف رحيم﴾**[2].

***

١ - ان في كل سورة من سور القرآن الكريم روحا يسري في آياتها، ويسيطر على مبادئها وأحكامها وتوجيهاتها وأسلوبها.

---

(١) الآية ٢٨٦ من سورة البقرة.

(٢) الآية ١٠ من سورة الحشر.

ومن المعروف: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر بوضع الآيات التي تنزل عليه منجمة في مواضعها من السور، وأن ذلك كان عن وحي يتلقاه عن جبريل، عن الله رب العالمين، فهل كان ذلك إلا لمعنى، وهل يأمر الله تعالى بوضع هذه الآيات هنا، وهذه الآيات هناك إلا لحكمة؟

وقد عني المفسرون بكثير من الجوانب المتصلة بدراسة القرآن الكريم، وقلَّ فيهم من عني بهذا الجانب الذي هو دراسة الروح العام لكل سورة، والغرض الذي تهدف اليه.

ومن الواضح أن سور القرآن مع كون كل واحدة منها ذات طابع خاص، وروح يسري في نواحيها ـ لا يمكن أن تعد فصولا أو أبوابا مقسمة منسقة على نمط التآليف التي يؤلفها الناس، ومن أراد أن يفهمها على ذلك، أو أن يفسرها على ذلك، فانه يكون متكلفا مشتطا محاولا أن يخرج بالقرآن عن اسلوبه الخاص الذي هو التنقل والمراوحة والتخول، وبث العظة في تضاعيف القول، والوقوف عند العبرة لتجليتها، والتوجيه الى مغزاها، وانتهاز الفرصة أينما واتت لدعم العقيدة السليمة، والمبادىء القويمة.

ان هناك فرقا واضحا بين من يحاول ان يفعل ذلك، ومن يحاول ان يجعل القارىء يلمح الروح الساري، والبيئة المعنوية الخاصة التي تجول فيها السورة، دون ان يخرج التنزيل الحكيم عن سننه وأسلوبه الذي انفرد به، وكان من أهم نواحي الاعجاز فيه.

وهذه الطريقة في الدراسة القرآنية اجدى على الناس من تتبع الآيات آية بعد آية بحسب ورودها في السورة، ومن تتبع جمل كل آية، وكلمات كل آية وأحيانا حروف كل آية أيضا، ليدرس كل ذلك على نحو من التفصيل أو الاجمال، أو على نحو من التطويل أو الايجاز، فان ذلك لا يعطي المنظر العام، ولا يساعد على تصور عظمة السورة مجتمعة الملامح، منضمة التقاسيم، كاملة الوضع، ومثل من يكتفي بأن ينظر الى سورة من سور القرآن هذه النظرة التفصيلية على هذا النحو، كمثل من يأتي الى بناء شامخ عظيم فيشتغل بالتأمل في مادة بنائه، وفي نوع أحجاره ولبناته التي كون منها، وفي أخشابه وحديده، ومعادنه،

ومقابض أبوابه، ومفاتحه، ونحو ذلك، فيشغله هذا عن مرآه العام، وعظمته التي تجتليها العين حين تنظر الى جملته كبيت أو كصرح عظيم.

نعم ان هذا لا يغني عن ذاك، فالجملة لا تغني عن التفصيل، والتفصيل لا يغني عن الجملة، ولكن القصر أو الصرح انما كان قصرا أو صرحا بجملته، أما كون خشبه كذا، أو حديده كذا، أو مادته كذا، فذلك درس للخشب أو للحديد أو للأحجار ... الخ، وليس درسا للقصر أو للصرح من حيث انه قصر وصرح.

فالقرآن الكريم يجب أن يدرس من كل ناحية. وهو قد درس فعلا من عشرات النواحي المختلفة، ولكنه - ككتاب هداية ذات طابع خاص، له هيمنته على القلوب، وتأثيره في الأرواح - لا يمكن أن تجتلى هذه الناحية فيه بتطبيق كلماته وألفاظه على قواعد النحو حينا، وعلى مروي القراءات حينا، وعلى تفاصيل التقديم والتأخير، والحذف والذكر، والوصل والفصل، في حدود ما عرفه السكاكي والجرجاني والخطيب ومن اليهم، من علماء الصناعة اللفظية أو المعنوية، نحوية أو بلاغية أو روائية.

ان هذا أشبه بخدمة غرض النحويين والبلاغيين وأهل القراءات منه بخدمة غرض القرآن نفسه، والغاية المقصودة منه ككتاب هداية للتي هي أقوم. فهذه الطريقة تجعل من آياته موضوعا لتمرينات مختلفة، وتطبيقات متنوعة، وان تخللها في كثير من الأحيان بيان للأحكام، أو توجيه الى الجمال الفني، أو اظهار لأسلوب الهداية والارشاد، أو تعريف بما تضمنته الآيات من ايحاء أو اشارة أو تنبيه، الى غير ذلك مما لا يخلو منه تفسير في العادة.

***

٢ - وهناك ناحية أخرى، هي أن قليلا من المفسرين هم الذين عنوا بإيراد الآيات المشابهة ليستعينوا ببعض القرآن على فهم بعض، كما أن قليلا منهم هم الذين عنوا بدراسة الأحكام القرآنية من واقع القرآن نفسه، فترى أكثرهم يلتمس المناسبة القرآنية ليفيض في تفصيل أحكام أو معارف جاء بها الفقهاء، أو أرباب المذاهب الكلامية، ولا يهمه إلا أن يورد تلك الأحكام، وينهض بتفصيل تلك المعارف، سواء دل عليها القرآن دلالة واضحة، أو لم يدل عليها، فحسبه أن لفظا

قرآنيـا جاء في آية من الآيات، فيتخذ من هذا اللفظ فرصة لتسجيل ما يعرف وما يجمع من المعلومات الفقهية أو الكلامية، وبذلك يصبح تفسيره للقرآن كتاب فقه، أو كتاب فلسفة، أو كتاب خلاف ... الخ.

وهـذه الطريقة أيضا ليست من الطرق المثلى في التفسير، فان القرآن كتاب مستقل، له طابعه الخاص، وله حدوده وأقطاره الفكرية والتشريعية، يجب أن يفهم بدون تكلف، ولا لي، ولا حمل، ولا تخريج، ولا تأويل، ولا رغبة في نصرة مذهب، أو هدم مذهب، وان هدايته لا تحتاج الى ان يستعان على فهمها وادراك مراميها بغيرها، ولا يمكن ان يكون وهو الحاكم محكوما عليه، ولا أن يكون وهو الاصل فرعا لغيره من الآراء والافكار.

* * *

٣ – وشيء ثالث هو ان كثيرا ممن تناولوا الدراسات القرآنية قد تناولوها بروح تطويـع القرآن للمثل الحديثة، والمقاييس الحضارية التي أخذ بها الناس، أو تطلعوا الى الأخذ بها، ولذلك نرى من يحاول أن يحمل آيات القرآن على أن تفيد مثـلا أن تعدد الزوجات محرم في الاسلام، لأن القرآن يقول **﴿فان خفتم ألا تعـدلـوا فواحـدة﴾ ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم﴾**، وهي سوقية في التفكير والاستدلال، سببها الولوع بتطويع القرآن لما يأخذ به أهل الحضارة والمدنية في عصرنا الحديث ـ وان كان أخذهم به صوريا نظريا فقط ـ من انكار مبدأ تعدد الزوجات، بينما هم يبيحون تعدد الخليلات.

وقل مثل ذلك عن الذين يقبلون على الدراسات القرآنية ليلتقطوا ـ في غير اخلاص للحق ولا لقداسة العلم ـ ألفاظا أو جملا لها ظاهر لا يمكن أن يكون مقصودا، ولا يمكن أن ينسجم مع غير هذا الموضع من مواضع القرآن الكريم، ولكنهم يلتقطونه ويتمسكون به، ويحرصون على ان يقدموه للناس على انه مطابق للاصلاح الحضاري، أو التقدم المدني، وقد نسوا انهم بذلك يجرون القرآن في المضمـار الذي أجـراه فيـه أربـاب التعصب من أتباع المذاهب الفقهية أو الفلسفية، ولعل مجازفة هؤلاء أشد من مجازفة أولئك، فما كان كتاب الله بتابع لفكرة، ولا لمذهب، ولا لاتجاه معين في أي شأن من شؤون الحياة، وانما هو

قائد متبوع، له أحكامه المستقلة الثابتة، سواء أوافقت هذه الحضارة أو تلك، أم لم توافق لا هذه ولا تلك.

ان على الذين يدرسون القرآن أن يقرروا أحكامه هو، ومثله هو، ومبادئه هو، وأن يقولوا: هذا هو القرآن، أما أن يتصوروا مثل أوروبا أو أمريكا، أو ما عظم في أعينهم من المثل أيا كانت، ثم يحملوا القرآن عليها، ويطوعوه لها، ويظهروا ذلك أحيانا في صورة التجديد، وأحيانا في صورة التحبيب في القرآن بتقريبه لغير أهله، واشعارهم بأنه معهم: يمضي في طريق حضارتهم، ولا يقاوم أساليبهم في المدنية والحرية ... وما الى ذلك مما يخدعون به أنفسهم، وان ظنوا انهم يخادعون الله والذين آمنوا ـ فذلك هو الشطط والتزوير.

ويقابل هؤلاء المجددين في الطرف الآخر قوم آخرون يفعلون فعلهم، ويسلكون طريقهم، مع فارق واحد، هو انهم لا يحملون القرآن الا على قديم ألفوه واستقر في نفوسهم وورثوه عن سلفهم، فكلما دخلوا في دراسات قرآنية تمثلوا قديمهم هذا وأفكارهم تلك الرجعية البالية، فكانت لهم روحا يستلهمونها ويرجعون اليها، ويلوون القرآن ليطابقها ويؤيدها، فهؤلاء من أولئك، وفعلهم من فعلهم، وحكمهم على القرآن من حكمهم، وان كان لكل وجهة هو موليها: هذا لما جمد عليه من قديم، وذاك لما اغتر به من جديد.

والخلاصة أن القرآن رأس بذاته، له مقاييسه ومثله ومبادئه، ولهذه المثل والمبادىء جعل الله المسلمين أمة وسطا، وجعلهم شهداء على الناس، أي أن أحكامهم وطابعهم ومثلهم هي الشهيدة على العالم، وهي المقاييس الصحيحة التي يرجع اليها الناس جميعا، ويستشهد بها الناس جميعا، وتعدل بها الاذواق والاحكام والمناهج، لا أن تكون هي المعدلة والملونة بأذواق الآخرين، وأحكام الآخرين، ومناهج الآخرين.

***

٤ – ولا ينبغي لأحد أن يعترض علينا في هذا المقام بالسنة النبوية ومنزلتها من الكتاب، فيفهم مما قلناه أن القرآن يجب أن ينظر اليه وحده حين يراد تفسير معانيه، وحين يراد معرفة أحكامه ومراميه، وألا يكون للسنة مدخل في ذلك –

لا ينبغي أن يقال هذا، فإن القرآن نفسه قد أعطى السنة الصحيحة حق البيان، وجعل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، شهيدا على المسلمين.

فالله تعالى يقول مخاطبا رسوله الكريم: ﴿**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم**﴾[1] ويقول مخاطبا أمته: ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا**﴾[2].

فبيان الرسول للقرآن هو حكم من أحكام القرآن نفسه، وكون الرسول شهيداً على الأمة حكم من أحكام القرآن كذلك، أي أن بيانه يجب أن يقبل وشهادته يجب أن تعتبر هي الفصل فيما فيه يختلفون، وهي التعديل والميزان المعتمد الذي يرجع اليه المتعرفون للحق، ولكن يجب أن يوثق بأن كذا هو بيان الرسول، وأن كذا هو شهادة الرسول، وذلك بالفحص عن صحة الرواية سندا والاطمئنان الى أن معناها لا يأباه القرآن، أو ينافر روح القرآن، فقد يرد المروي لقادح يقدح في معناه، أو في سنده.

* * *

٥ – ثم اننا نجد ان بعض كتب التفسير تورد كثيرا من الأقوال المروية المسندة الى الصحابة أو التابعين، ويسمون ذلك: «التفسير ـ بالمأثور» وأحيانا نجد هذا المأثور متعارضا أو متضاربا، فيقف القارىء الوسط أمامه مضطربا، لا يدري ماذا يأخذ وماذا يدع، ويحتار العالم، ويجد كثيرا من الصعوبات، اذا حاول أن يزيف هذه الرواية ويرجح تلك، أو يجمع بين هذه الروايات التي تبدو متعارضة، وبذلك ينصرف الجهد الى خدمة هذه الروايات نفسها والى التفكير في نطاقها، والفرض أن التفكير كان يجب أن يسير في نطاق التفسير، وأن الجهد يجب أن يوفر لفهم كلام الله تعالى، لا لفهم كلام الناس في تفسيره.

نعم إن مفسر القرآن لابد أن يمر به ذلك، وأن يزاحمه على القرآن، وأن يحمله على المناقشة والمجادلة وتقليب الآراء، لكننا جربنا كثيرا أن الانسياق

---

(١) الآية ٤٤ من سورة النحل.

(٢) الآية ١٤٣ من سورة البقرة.

في ذلك يخرج بالمفسر المعاصر عن أسلوب عصره، ويرده الى الوراء فيصبح واحدا من الذين تقدم بهم الزمان في القرون الاولى، وهؤلاء من غير شك فطاحل العلم وأئمته ورواده الأولون، والناس من بعدهم عالة عليهم، ولكن حكم الزمان واختلاف الأحوال، وتلون المعارف والأفكار، يجب أن يكون له حساب، ولم يحفظ الله كتابه الكريم أبد الدهر، إلا لتتنافس فيه العقول أبدا، وتتلاقى عليه أفكار المتأخرين، كما تلاقت عليه أفكار المتقدمين.

وقد وقف بعض العلوم عند الحدود التي تركها عليه المتقدمون، فترى مثلا علما كعلم البلاغة مازال واقفا عند المقاييس التي تعتمدها شروح التلخيص، ولا نجد محاولات لتغيير الطريقة أو الأسلوب أو الامثلة إلا قليلا ...

وقد نجد هذا نفسه في كتب التفسير، فربما فتحنا عدة كتب لنقف على تفسير جملة أو آية أو تجلية معنى من المعاني، فنجد جميع المفسرين في هذه الكتب متفقين - أو يكادون على كلام واحد، وأسلوب واحد، وسبب هذا أن كثيرا منهم كان يلزم نفسه بكتاب قبله من المطولات، فهذا يخرجه وسيطا، وهذا يخرجه وجيزا، وهذا يعنى بتلخيص بحوثه البلاغية، وهذا يلخص أحكامه الفقهية ... وهكذا فجاء كثير منها متشابه العبارات والأفكار، وكأنها نسخ مكررة مصغرة بمقاييس مختلفة لكتاب واحد.

والواقع أن ميدان التفكير في القرآن واسع، وهو كميدان التصوف والتفكير في الله، فيجب أن يسلكه كل كفء له، ولكن على وتيرته الخاصة، وبطابعه الخاص، كما ان لكل متصوف طريقته وأسلوبه في معرفة الله، وفي التفكير في عظمته، واجتلاء صفات جلاله وجماله، فقد ينكشف للمتأخر ما لم ينكشف للمتقدم، وقد يؤثر في المعاصرين أسلوب جديد في العرض أضعاف ما يؤثر فيهم أسلوب قديم، ومن عاش في زمان لا بد أن يتعامل بأسلوب هذا الزمان، وأن يحسب حساب أفكاره وأحواله ومقاصده ومراميه وآماله وآلامه ولغته وطريقة عرضه، وما فيه من نقاط ضعف ونقاط قوة، وما له من نواحي استقامة ونواحي اعوجاج، كل ذلك يجب أن يدخل في حساب من يتناول القلم ليكتب، ومن يجلس مجلس المؤلف والموجه، ولا سيما اذا كان تأليفه وتوجيهه عن طريق

التفسير وخدمة الذكر الحكيم، وأما الذين لا عمل لهم إلا أن يستعيدوا ما كان، ويرددوا ما قيل دون تصرف فيه، ولا تحول حتى عن أسلوبه وألفاظه، وجدله ونقاشه، فليس لهم في معترك الأقلام والأفكار الآن مجال.

❋ ❋ ❋

٦ – وفي عصرنا الحاضر تيارات إلحادية، ونزعات مشككة، ومحاولات عنيفة للتخلص من سيطرة الدين عامة، ومن استمرار المجتمع الشرقي، متسما بطابع الاسلام خاصة، فلذلك نرى هجوما عنيفا على أحكام الاسلام، وتشكيكا للناس في صلاحيتها وملاءمتها لروح العصر.

ولهذا المنزع الهجومي أسراره وبواعثه الخفية، وله روافده من الانخداع بالثقافات الأجنبية، والانسياق وراء التيارات الحديثة التي تصدر عن الأوروبيين بعد أن خبوا في الفساد ووضعوا، وبعد أن أشرفت سفينتهم على الغرق، وأصبحت مثلهم وقواعد سلوكهم، وأساليب حكمهم، وبالا عليهم، وشرا مستطيرا يحاولون الخلاص منه فلا يعرفون السبيل - في هذا الوقت الذي تزلزلت فيه المجتمعات الغربية عن مثلها، وأصبح فيها من ينادي بتغيير هذه المثل، وتقويم هذه الأحكام المعوجة، نرى من يدعون بيننا لتغريب الشرق، ويريدوننا على أن نشارك أهل السفينة الغارقة اليوم أو غدا في ركوب سفينتهم والغرق معهم !

لذلك يجمل بمن يهتمون بالدراسات الاسلامية - والقرآنية منها على وجه خاص - أن يحسنوا عرض بضاعتهم، وأن يجلوها للناس في صورة تلائم عظمتها الحقيقية، وألا يفسدوا هذه الصورة بالأصباغ الملونة، والمساحيق المجتلبة، فإن جمالها رباني، وإن الاصباغ تشوهها، وتوهم بأنها تداري قبحا، وتخفي دمامة، وتعالج نقصا.

ان الاسلام هو القانون الطبيعي للحياة، وإن مناهجه النظرية والعملية هي التي تحل مشكلات المجتمع، وتصون أفراده من الوقوع في حمأة الرذيلة، وفي

ظلمات الشك والحيرة، ولكن على شريطة أن يجلى للناس صافيا كما أنزله الله، بريئا من التزمت والتحلل كليهما كما أراده الله.

* * *

٧ – أما بعد، فهاأنذا أقدم لعشاق الصور الطبيعية الصادقة الذين لا يحبون الخداع، ولا يؤخذون عن الجمال بالتجميل ـ أقدم لهم هذه الصورة الطبيعية للمجتمع الاسلامي كما تنظمه سورة النساء.

«وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب».

الشيخ محمد محمد المدني

تمهيد

١
سورة النساء وترتيب القرآن

١ - «سورة النساء» هي السورة الرابعة في ترتيب المصحف، أما في ترتيب النزول فأصح ما ذكر أنها سادسة السور التي نزلت بالمدينة.

فأول ما نزل بالمدينة: سورة «البقرة»، ثم سورة «الأنفال» ثم سورة «آل عمران»، ثم سورة «الأحزاب»، ثم سورة «الممتحنة»، ثم سورة «النساء» هذه.

وهناك روايات أخرى في ترتيب النزول غير ذلك.

وقد يقال: لم قدمت «البقرة» و «آل عمران» وغيرهما في ترتيب المصحف وقد نزل قبلهما سور كثيرة مكية؟ أو بعبارة أخرى: لِمَ لَمْ يرتب القرآن بحسب نزوله على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟.

والواقع أن الصحابة رضي الله عنهم لم يتفقوا على قول واحد في ترتيب سور القرآن، والذين كتبوا مصاحف خاصة قبل توحيد عثمان رضي الله عنه للمصحف، كانت مصاحفهم على اختلاف شديد في ذلك.

والسبب في هذا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يرو عنه أنه اتجه الى تنظيم القرآن بترتيب نزوله، وإنما روي عنه خلاف ذلك. فكانت السورة تنزل في أمر يحدث، والآية تنزل جوابا لمستخبر يسأل، ويوقف جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم على موضع السورة والآية، فكان يقول: ضعوا هذه الآية في

موضع كذا من السورة التي يذكر فيها كذا، وضعوا هذه السورة موضع كذا من القرآن، وقد صح أن جبريل كان يراجعه بالقرآن في شهر رمضان من كل عام، وانه في آخر عام راجعه به مرتين.

فالذي كان من الصحابة من كتابة مصاحفهم المختلفة في الترتيب عن المصحف العثماني، إنما كان قبل العرض الأخير، أما مصحف عثمان رضي الله عنه فقد كتب بعد المراجعة على ما كتب في عهد أبي بكر رضي الله عنه، وكانت صحفه عند حفصة، والذي كتب في عهد أبي بكر كان مراجعا على ما حفظ عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكتوبا، وما حفظ في صدور القراء من الصحابة رضوان الله عليهم.

٢ – وقد انعقد الاجماع على هذا الترتيب العثماني المتلقى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفي ذلك يقول القرطبي:

«فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف، فكله عن محمد خاتم النبيين عليه السلام، عن رب العالمين، فمن أخر سورة مقدمة، أو قدم أخرى مؤخرة، فهو كمن أفسد نظم الآيات، وغير الحروف والكلمات»(١).

ولعل الحكمة في العدول عن كتابة القرآن على ترتيب نزوله الى كتابته على هذا الترتيب المعروف: ان القرآن في عهد الرسول كان ينزل منجما على حسب الحوادث التي كانت تقع، ولغرض بينه الله تعالى وهو موآزرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتثبيت فؤاده: ﴿**وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا. ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا**﴾(٢). أما وقد كمل القرآن، وانقضى الغرض الذي كان يقصد اليه من تنجيمه وملاحظة الحوادث والأسئلة ونحوها في ما كان ينزل منه، فلو انه جمع على حسب ترتيب نزوله لفهم بعض النـاس أن آياته خاصة بحوادثها، أو انه حلول وقتية للمشكلات التي كانت على عهد الرسول فحسب، والله تعالى يريد

---

(١) ص ٦٠ من الجزء الأول من تفسير القرطبي طبع دار الكتب المصرية.

(٢) الآيتان ٣٢، ٣٣ من سورة الفرقان.

كتابا عاما خالدا، لا يختص بعصر دون عصر، ولا بقوم دون قوم، لذلك قضت الحكمة بأن يرتب ترتيبا يحقق هذا العموم، وهذا الخلود، ويبتعد عن الترتيب الزمني الذي نزل به لحكمة كانت مناسبة حين نزوله.

ثم ان القرآن كله من أمر الله تعالى نزولا وتفصيلا وترتيبا، وقد بلغه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما أمره الله تعالى، ولو كان لله تعالى أمر يخالف ذلك، لبلغه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولما فات أصحابه أو أجمعوا على كتمانه فيكفينا أن نعلم ذلك، وأن نلتزم هذا التوقيف من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأن نحتفظ بقدسية المصحف فلا نحاول أن نبدل في ترتيبه، تلبية للذين يدعون الى ذلك دون إدراك لما فيه من الخطورة، ومن الخروج على أمر بينه الرسول، وأجمع عليه أصحابه، وتواتر في المسلمين بعد ذلك جيلا عن جيل، وتحقيقا لوعد الله جل شأنه حيث يقول: ﴿**إنا نحن أنزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾. ﴿**وإنه لكتاب عزيز. لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد**﴾.

٣ – ولكن هذا لا يمنع الباحثين من أن يسترشدوا بتاريخ النزول، وأسباب النزول، توصلا الى ما يفيد الحقيقة في مختلف بحوثهم، فإن في معرفة هذا علما كثيرا، وفوائد جمة، وكشفا عن الكثير من الأسرار التشريعية والاجتماعية والتاريخية، وتوجيها الى الربط بين ذلك وما يستمد من القرآن الكريم من عبر، ولذلك عني العلماء بتسجيل ما يروى من أسباب النزول وترتيبه عناية فائقة، لا ليحاول المسلمون تغيير الترتيب المصحفي، أو الوقوف بالأحكام والمعاني عند الحوادث التي نزلت فيها الآيات، ولكن ليستعينوا بذلك ويعينوا على فهم الكتاب الكريم، وتيسير هدايته للآخرين الذين لم يسمعوه إلا نقلا، كما تيسرت للأولين الذين سمعوه عن مشافهة، وشهدوا حوادث نزوله عن عيان.

٤ – وعلى هذا المبدأ وجدنا مما يفيدنا في بحثنا عن سورة النساء أن نعرف البيئة المعنوية التي نزلت فيها ـ ونعني بالبيئة المعنوية ما كان يشغل القرآن والمسلمين في وقت نزولها من المسائل والأحكام ـ حتى ندرك الرابطة بين

موضوعاتها وموضوعات البيئة التي نزلت فيها، أو بين مشكلات المجتمع الاسلامي، وما كانت تطب[1] له بأحكامها ومبادئها وتوجيهاتها.

وهذه البيئة المعنوية يدلنا عليها مانزل من القرآن بين يدي هذه السورة، لذلك قلنا في أول هذه المقدمة: ان سورة النساء سادسة السور التي نزلت بالمدينة، وذكرنا السور السابقة عليها في أصح الروايات.

٥ - فإذا نظرنا الى سورة «الممتحنة» التي نزلت قبلها مباشرة على حسب هذه الرواية، وجدنا آياتها الثلاث عشرة تدور حول موضوعين بخصوصهما، وهما: نهي المؤمنين عن أن يتخذوا أولياء من أعداء الله يلقون اليهم بالمودة، ثم الأمر بامتحان المؤمنات اذا جئن الى المدينة مهاجرات ليعلم هل خرجن حبا بالله ورسوله أو خرجن من بغض على زوج، أو كراهية في أرض دون أرض، وليرتب على هذا العلم بعد الامتحان والاختبار البت في قبولهن بالمدينة مهاجرات، أو ردهن الى أزواجهن، وفي حالة الرد كيف يكون نظام هذا الرد وما شروطه، وهل يربط بين هؤلاء اللواتي جئن الى المدينة مهاجرات، واللواتي خرجن منها الى مكة من زوجات المسلمين هاربات.

هذان الموضوعان ـ مع بعض المعاني المتصلة بهما، والتي تتخلل آيات السورة على سنة القرآن وأسلوبه ـ هما الموضوعان اللذان اهتمت بهما سورة «الممتحنة»، واذن: كان المجتمع الاسلامي مهتما قبيل نزول سورة «النساء» بهذين الموضوعين فيما كان يهتم به.

وقد اهتمت سورة «النساء» فيما اهتمت به من الشؤون الاجتماعية، بقضية اتخاذ الكافرين أولياء، وبفروعها التي تمت اليها بصلة، وهي بيان أوصاف المنافقين واليهود ـ الذين كانت تجمعهم والمؤمنين جامعة التوطن في المدينة ـ والتحذير منهم.

ثم هي قد اهتمت أيضا بناحية أخرى من شؤون النساء، وإن لم تكن هي الناحية التي اهتمت بها سورة «الممتحنة»، فبينت كثيرا من أحكام الزوجية وحقوق الزوجات على أزواجهن، والأزواج على زوجاتهم.

---

(١) طب الرجل طبا ـ بفتح الطاء: تأنى للأمور وتلطف، ومنه المثل «من حب طب» ويقال «أصنعه صنعة من طب لمن حب» أي صنعة حاذق لانسان يحبه.

وبذلك يبدو التناسق المعنوي بين سورة «النساء» وسورة «الممتحنة» في هذين الجانبين.

٦ – واذا طبقنا هذه النظرة على سورة «الأحزاب» أيضا، وهي السورة السابقة على سورة «الممتحنة» مباشرة في النزول، وجدنا آياتها الثلاث والسبعين كلها تدور في دائرة أكثر الموضوعات التي عرضت لها سورة النساء.

فهي تتحدث عن بعض نواحي الأسرة وأولي الأرحام، وتبطل حكم التبني الذي كان معروفا في الجاهلية، وتتحدث عن زوجات الرسول وما ينبغي أن يكنَّ عليه من الأدب الرفيع ليكنَّ أسوة حسنة للمؤمنات، وعن تساوي المسلمين والمسلمات في ما أعده الله من مغفرة وأجر عظيم، ايحاء بأن الجميع على حد سواء في نظر الاسلام، وتتحدث في ذلك أيضا عن تساوي المؤمن والمؤمنة في وجوب الخضوع لما يقضي به الله ورسوله، ثم تتحدث عن حادثة من الحوادث الخاصة بالرسول وهي زواجه من مطلقة متبناه، تشريعا للحكم الاسلامي في ذلك، وعما لابس هذا الأمر من تصرف للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، أخذ فيه بما يعد من اللوم والتثريب، كما أخذ بمثل ذلك في «حادثة اليهودي وطعمة» التي سنذكرها في سورة «النساء».

وتتحدث عن غير ذلك من الشؤون الخاصة، والعامة، وفيها كثير من أحكام النساء والأسر والبيوت.

وتتحدث عن القتال وما كان يوم الأحزاب، وعن المنافقين وارجافهم في المدينة ... الخ.

وهذا كله ينبىء عن البيئة المعنوية التي كان عليها المجتمع الاسلامي في المدينة قبيل نزول سورة «النساء»، ويجعلنا نلمح الشبه الكبير بين ما تناولته سورتا «النساء» و «الأحزاب» من موضوعات.

وهكذا نستطيع أن نسير بالموازنة على هذا النحو فيما نزل قبل ذلك من السور الخمس السابقة على سور النساء، فنجد كثيرا من ألوان المشابهة في الدائرة العامة، وإن اختصت كل سورة من هذه السور، بناحية أو نواح خاصة بدت عنايتها بها أكثر من غيرها.

بل اننــا لنجــد عنــاصر هذه الموازنة قائمة أيضا فيما نزل بعد سورة «النساء» كما هي قائمة فيما نزل قبلها، فذلك هو الطابع العام لما نزل من القرآن بعد الهجرة.

٢
اسم السورة وعناية القرآن بالنساء

سميت هذه الســورة بســورة «النســاء» وقد يطلق عليها «سورة النساء الكبرى» أو «سورة النساء الطولى» تمييزا لها عن سورة أخرى من سور القرآن الكـريم هي سورة «الطلاق» التي يروى انهــا تسمى أيضــا «ســورة النســاء القصرى» وكذلك سماها ابن مسعود، أخرجه البخاري وغيره[١].

وفي القرآن الكريم سور أخرى عرضت لشؤون النساء كما عرضت لها هاتان السورتان منها: سورة «البقرة»، وسورة «المائدة»، وسورة «النور»، وسورة «الأحزاب»، وسورة «المجادلة»، وسورة «الممتحنة»، وسورة «التحريم»، ولكل من هذه السور جانب أو جوانب عالجتها.

وتلك عناية واضحة من القرآن الكريم بشأن المرأة، واهتمام باستقصاء أعظم أحوالها في مختلف أطوارها، وفي جوانب حياتها، وحرص على حمايتها وبيان حقوقها على الرجل، وحقوق الرجل عليها، ويزيد في أمر هذه العناية وهذا الاهتمام أن حكمة الله تعالى قضت بأن تسجل هذه الأحكام على وجه فيه كثير من التفصيــل والبيــان في القــرآن الكريم، وألا يكتفي بتقريرها وتفصيلها في السنــة، فإن القــرآن عادة هو الذي يتكفــل بمــا هو من قبيل الأصول الكلية ومــا يلتحق بهــا من الشــؤون التي يجب أن تكــون حاضرة في الناس متلوة يذكرونها دائما ولا ينسونها ولا يتفاوتون في درجة ثبوتها، فتبقى لديهم جميعا متواترة قاطعة.

---

(١) الاتقان في علوم القرآن ص ٦٩ ج ١ طبع المطبعة الموسوية المصرية في سنة ١٢٧٨ هـ.

على أن السنة المطهرة لم تدع شؤون النساء دون أن تبرز اهتمامها العظيم أيضا بها، فهناك عشرات، بل مئات، من الأحاديث الصحيحة التي تفصل هذه الشؤون، وتبين حكم الله فيها، وحسبنا في معرفة هذه العناية النبوية، بجانب العناية الإلهية، أن نذكر أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه، نوه بشأن النساء في خطبته المشهورة التي عرفت «بخطبة الوداع» لأنها كانت في العام الذي انتقل بعده الى الرفيق الأعلى، ولم يعش بعدها إلا إحدى وثمانين ليلة، كما هو معروف في السيرة المطهرة.

إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتناول في خطبته هذه إلا المبادىء العليا والأحكام الكبرى، على نحو من الاجمال، وفي صورة التوصية والتبليغ والاشهاد، كما يفعل من يحس بدنو أجله، فإنه حينئذ يهتم بالتوصية بأعز ما يحبه، وبأجل ما يجله، وفي هذه الخطبة يقول صلوات الله وسلامه عليه: **«أيها الناس، إن لنسائكم عليكم حقا، وإن لكم عليهن حقا: لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن، وتهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضربا غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم، فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتموهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيرا . . . ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد»**.

٣
عرض إجمالي لما تضمنته السورة

هذه السورة الكريمة مدنية، تتجلى فيها كل الخصائص التي اختصت بها السور المدنية، ويهمنا الآن من هذه الخصائص أنها تضمنت كثيرا مما يتعلق بتنظيم جماعة المسلمين في داخل بلادهم، وفي علاقاتهم الاجتماعية بعضهم مع بعض، وفي وضع أسس الحكم الصالح الذي يجب أن تقوم عليه دولتهم، وفي

وجوب الحذر من الذين يريدون أن يزلزلوا عليهم هذه الدولة إما عن طريق تشكيكهم في مبادىء الدين ومثله وتشريعاته، وإما عن طريق القوة المادية وإثارة الحرب بنوعيها اللذين عرفناهما في زماننا الحاضر بالحرب الحامية، والحرب الباردة.

ويمكننا هنا أن نعرض ما تضمنته السورة عرضا عاما، ثم نعود فنتبع هذا العرض بذكر النقاط الاجمالية التي تتركز حولها أهداف السورة.

وسيظهر من هذا وذاك أن السورة تتناول المجتمع الاسلامي وترسم له الخطوط المكونة لصورته، والمميزة لملامحه وقسماته على الوجه الذي يسعده ويدرأ عنه غوائل الشر، وعوامل الفساد:

١ - تبدأ السورة بتقرير المبدأ الأول الذي يجب أن تقوم عليه المجتمعات أيا كانت، وهو أن الناس جميعا متساوون في الخلق من نفس واحدة خلقها الله تعالى، وخلق منها زوجها، وانهم انبثوا جميعا من هذين الزوجين، لا فرق بين رجل وامرأة في هذه النسبة وفي هذه الأصالة، ولا فرق بين مشرق ومغرب، ولا بين أبيض وأسود وأحمر، وكلهم على البعد والقرب يشتركون بالنسبة الى الله تعالى في أنه خالقهم وربهم، وبالنسبة الى أصلهم الأول في أنهم أولو أرحام.

ذلك هوالمبدأ الأول الذي تقرره الآية الأولى في السورة:

«يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، إن الله كان عليكم رقيبا».

ولا يمكن أن يسعد مجتمع إلا اذا تقرر فيه هذا المبدأ، واعتنقه أهله، كعقيدة مقدسة لا يمكن التنازل عنها، أو التفريط فيها، وكل مجتمع يقوم على العنصرية الجنسية، أو القبلية، أو الطائفية، أو على اعتبار اللون، أو الصنف، لا بد أن يشقى وأن يضطرب عليه أمره، وأن يعوق عن بلوغ غاياته، وإصابة أهدافه.

٢ - وبعد أن قررت السورة هذا المبدأ الأول، ونادت به الناس جميعا في أول آية منها، أخذت تتحدث عن العناصر واللبنات المكونة لبناء المجتمع، وبدأت في ذلك بأضعف هذه العناصر، وأحوج هذه اللبنات الى الرعاية والتقوية،

وهم: اليتامى، والسفهاء، والنساء، فقد جرت عادة المجتمعات على أن تخيفها مظاهر القوة، فتؤثر فيها تأثيرا يعتمد المحاذرة والخوف فلا يكاد يوجد فيها من يجترىء على قوي فيهضمه أو يظلمه أو يتنكر لحقه. وعلى العكس من ذلك، يكون موقفها من الضعفاء، فنجد كثيرا من الناس يغريه ضعف الضعيف على اقتحام حماه، واهتضام حقه، فلما كانت هذه سنة البشر، وما جرت به عادتهم في مجتمعاتهم بحسب طبائعهم، وكان أضعف من في المجتمع هم هؤلاء الثلاثة: اليتيم لصغره وفقده من يدافع عنه ويحميه، والسفيه لضعف عقله واختلال تصرفه وكثرة الفرص التي تتهيأ لمن يريد انتهابه واغتصابه، والمرأة التي تكون عادة تحت ولاية أبيها أو قوامة زوجها، والتي لم تخلق على هيئة تجعلها مهيبة الجانب، مخشية البأس، لما كان الأمر كذلك في سنة المجتمع البشري، وفي شأن هؤلاء الأعضاء الضعفاء فيه، كان من الحكمة أن تهتم السورة بعد تقرير مبدأ المساواة بين الناس بوضع الأحكام التي فيها حماية لهؤلاء الضعفاء باعتبارهم لبنات في بناء المجتمع، وعناصر منها ومن غيرها يتكون، وعلى صلاحها وصلاح غيرها تقوم أسس الصلاح والاستقامة فيه، وذلك هو ما أخذت السورة في تقريره من أول آيتها الثانية:

﴿وآتوا اليتامى أموالهم، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب، ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم، إنه كان حوبا كبيرا﴾ الى آخر الآية العاشرة: **﴿ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا﴾**.

٣ – بعد ذلك اهتمت السورة بتشريع واضح مفصل في شأن هام من شؤون المجتمع هو «نظام المواريث» ولا يخفى أن هذا الشأن له دخل كبير في استقرار الأمور واستقامة العلائق بين أفراد الأسر على نحو يقطع النزاع، ويحسم أسباب الخلاف في أمر طبيعي متكرر كهذا، فانه لا بد أن يكون هناك من يموت، ويترك مالا، ويكون له أقارب يرثونه على درجات مختلفة من الصلة به، هذه صلة أبوة أو أمومة، وهذه صلة أخوة أو قرابة، وهذه صلة صهر، فلو ترك هذا الأمر فوضى لكان مثارا لنزاع كبير يتكرر في الأسرة الواحدة بين الحين والحين، واذا اضطرب نظام الأسر، اضطرب المجتمع كله لاضطرابه، فكان من الحكمة اذن أن تهتم السورة التي عنيت بدراسة شؤون المجتمع والتشريع له، بوضع

نظام تفصيلي كامل للمواريث، يتبين فيه نصيب كل وارث، وينحسم به النزاع والشر، وفي ذلك جاءت الآيات الكريمة من أول قوله تعالى: **﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾** الى قوله تعالى: **﴿ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين﴾**(١).

٤ - عرضت السورة بعد ذلك لجريمتين من الجرائم الخلقية من شأنهما أن تفسدا المجتمع إفسادا شديدا، وأن تسلبا من أعضائه نساء ورجالا ما لكل منهما من خصائص، وذلك ما جاء في قوله تعالى: **﴿واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم، فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا. واللذان يأتيانها منكم فآذوهما، فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما، إن الله كان توابا رحيما﴾**(٢).

وفي هاتين الآيتين كلام طويل، واختلاف في وجوه النظر لدى المفسرين من جهة المقصود من «**الفاحشة**» ومن «**اللاتي يأتين**» ومن «**اللذان يأتيانها**» ومن جهة العقوبة المقررة في هذا الشأن، وهل نسخ حكم ذلك أو لم ينسخ، وليس هذا العرض الاجمالي هو الظرف المناسب لبيان ذلك كله.

٥ - ثم بين بعد ذلك شأن عظيم له اتصال بالمجتمع نفسي توجيهي اصلاحي، ذلك هو «التوبة»: ممن تقبل، ومتى تقبل.

وأمر التوبة، وإن كان يبدو أنه أمر روحي خاص بين العبد وربه، لكنه ذو تأثير معنوي في الأفراد يتأثر به المجتمع، فالفرد لا يخلو من أن يقع في بعض الذنوب، ومن أن يساوره اليأس حينا من الغفران، والطمع حينا في جانب العفو، وليس هذا وذاك مما تستقر عليه النفوس، وتهدأ به الحياة، واذا استولى القلق النفسي على الأفراد في مجتمع ما، فاستولى عليهم الخوف المسرف واليأس المسرف أو الطمع المسرف، فإن المجتمع يصيبه من ذلك نوع من الشلل أو الخلل، لذلك كان من الحكمة أن يبين هذا الشأن الاجتماعي، ويحدد موقف الاسلام منه، ليعرف كل فرد من أفراد المجتمع أين موضعه من حساب الضمير،

---

(١) الآيات من ١١ الى ١٤ من سورة النساء.

(٢) الآيتان ١٥، ١٦ من سورة النساء.

ومن التماس العفو والحصول على التطهير، ولهذا جاء البيان عن ذلك في آيتين تاليتين لآيتي الفاحشة السابقتين، وهما قوله تعالى: ﴿**إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما، وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن، ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما**﴾(١).

٦ – بعد هذا عرضت السورة لبعض أحكام الأسرة، ونظمت بعض العلائق بين الأزواج والزوجات فيها، كما بينت المحرمات في النكاح من جهات: النسب، والصهر، والرضاعة، والجمع، وبثت في أثناء ذلك بعض المبادىء والوصايا وما يكون أصولا في باب التشريع الاجتماعي. وجاء ذلك كله على نوع من البسط والتفصيل في الآيات من ١٩ الى ٣٥ أي من قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها**﴾ الى قوله عز وجل: ﴿**وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما، إن الله كان عليما خبيرا**﴾.

٧ – ثم عرضت السورة في ربع كامل الى الأسس التي أقامت عليها أول مجتمع اسلامي تحت ظلال الدولة الاسلامية، فوضعت له أسس الايمان والخلق والتعاون الاجتماعي، وحذرته من مفسدات الأمم وما يطيح بها، ويفضي الى هلاكها ـ من أخلاق الشح والكبر والرياء والنزول على مشورة دعاة السوء والكفر ـ كما حذرته من الذين يعيشون في ظلاله من اليهود الذين جرت عادة بعضهم أن يحرفوا الكلم عن مواضعه، ويلووا ألسنتهم طعنا في الدين، وأشارت الى بعض أخلاقهم والى بعض الحوادث في تاريخهم، ثم انتهت الى الموازنة بين جزائهم في الآخرة، حين يصلون النار، كلما نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها ليذوقوا العذاب، وجزاء المؤمنين الذين يعملون الصالحات في الجنات التي تجري من تحتها الأنهار.

جاء ذلك كله في اثنتين وعشرين آية تبدأ من قوله تعالى: ﴿**واعبدوا الله**

---

(١) الآيتان ١٧، ١٨ من سورة النساء.

ولا تشركوا به شيئا، وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم، إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا﴾[1] وتنتهي عند قوله جل شأنه: ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا، لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا**﴾[2].

وسنعود إن شاء الله تعالى بعد هذا العرض السريع فنقف عند كثير من هذه المواضع لاستجلاء عظمتها التشريعية، وإدراك مدى اصلاحها في جوانب المجتمع.

٨ – ثم وضعت السورة أساس الحكم الاسلامي، فبينت أن ذلك يقوم على أمرين عظيمين هما أداء الأمانات الى أهلها، والعدل بين الناس.

وسنعرف في ما بعد كيف يستغرق هذان الأصلان جميع العناصر التي يتكون منها حكم سليم يسعد المجتمع في ظلاله.

وبينت طريق الوصول الى معرفة ما هو خير وصلاح وعدل وأمانة، فأجملت ذلك في:

* طاعة الله، التي هي الرجوع اليه جل شأنه والخضوع لحكمته.

* وطاعة الرسول، التي هي تقبل حكمته واتباع سنته والتسليم له دون إحساس بأي حرج في الصدور، أو تكلف في الاتباع والقبول.

* وطاعة أولي الأمر، وهم أصحاب الحل والعقد في الأمة الذين يجتهدون في تعرف مصالحها واستنباط أحكام الله في مختلف شؤونها وأحوالها.

كما بينت أن الايمان بالله يتنافى مع الايمان بالطاغوت وهو كل ما سوى الله ممن يأمر، أو مما يأمر، بما نهى الله عنه، أو ينهى عما أمر الله به، وأن الرسول ما أرسل إلا ليطاع بإذن الله، وإن ذلك أساس من أسس الايمان من خرج عنه لم يقبل إيمانه، ومن تمسك به ﴿**فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا**﴾.

---

(١) الآية ٣٦ من سورة النساء.

(٢) الآية ٥٧ من سورة النساء.

وقد جاء ذلك في الآيات من ٥٨ الى ٧٠، أي من قوله تعالى: ﴿**إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل**﴾ الى قوله عز شأنه: ﴿**ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما**﴾.

٩ – ثم بدأت السورة بعد ذلك تتجه الى جانب المحافظة على هذا المجتمع الاسلامي وتحذيره من كيد أعدائه المتربصين به، والذين لا يفتأون يدبرون له الفتن، ويحيكون له الدسائس والمؤامرات، فأمرت المؤمنين بأن يأخذوا حذرهم من أعدائهم الخارجين ومن أذناب هؤلاء الأعداء في الداخل، وأمرت بالقتال في سبيل الله، وبينت أسبابه ودوافعه عند المؤمنين، وعند الكافرين، وعرضت ـ في أثناء التشجيع على القتال، والتثبيت أمام الدواعي النفسية للنكوص عنه، ورد شبه المرجفين ـ الى الحديث عن القضاء والقدر وما لا بد منه من نهاية محتومة للانسان، واستمرت في بيان هذه الأحكام وما يتصل بها على نحو من التفصيل والبيان والتحذير والتعليم والارشاد والتوجيه، واستغرق ذلك كله أربعا وثلاثين آية تبدأ من قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا بثبات أو انفروا جميعا**﴾ ـ وهي الآية الحادية والسبعون ـ الى قوله تعالى: ﴿**ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون، وترجون من الله ما لا يرجون، وكان الله عليما حكيما**﴾ ـ وهي الآية الرابعة بعد المائة.

١٠ – وجاءت بعد ذلك احدى عشرة آية بمناسبة حادث كان بين خصمين أحدهما مسلم، والآخر يهودي، وقد عرضت قضيته على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وصور له الأمر بينهما تصويرا مخالفا للحقيقة، فحسن ظنه بالذين صوروه له، اعتدادا بإسلامهم ومظهرهم، وكانوا في الحقيقة من المنافقين الخائنين وإن تظاهروا بالاسلام، فمال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى تصديقهم، والحكم على اليهودي، ثم أطلعه الله على حقيقة الأمر، ورسم له ولكل حاكم وقاض خطة العدل والحياد والتخلص من العاطفة حين القضاء والفصل، واتخذ من هذه الحادثة عبرة وجه اليها رسوله والمؤمنين توجيها قويا، فيه تأديب وفيه ما يشبه التأنيب، ثم بين للمجتمع بهذه المناسبة أن التناجي والتآمر لا خير في كثير منه، إذ هو إنما يحدث عادة في السر والخفاء، وما يحدث في السر

والخفاء كثيرا ما يكون شرا وفسادا وضررا، وإلا لما أخفاه أصحابه وأسروا أمرهم فيه، وقد استثنى من هذا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس، وجاء في ختام ذلك بيان أن مشاقة الرسول وعدم الرضى بحكمه بعد تبين الحق، أمر سيء العواقب في الدنيا والآخرة، وهو خروج عن سبيل المؤمنين.

وهذا كله في الآيات التي تبدأ من قوله تعالى: **﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله، ولا تكن للخائنين خصيما﴾** الى قوله عز وجل: **﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا﴾**(١).

١١ - ثم عرضت السورة للشرك وأوهام المشركين وإضلال الشيطان لهم، وعاقبتهم من الخسران المبين، وعذاب الجحيم، ووازنت في هذا الجزاء، وتلك العاقبة، بينهم وبين المؤمنين الذين يعملون الصالحات.

وذلك لأنها تريد أن تقطع من هذا المجتمع الجديد كل عرق يمت الى الشرك بسبب أو نسب، وتريد أن تنزع منه كل هاجس من هواجس الاضلال فيه، وكل وهم من الأوهام الموروثة التي كان لهذا المجتمع أو لأفراد هذا المجتمع عهد بها من قريب، حتى تتطهر النفوس تطهرا كاملا، وتخلو من رواسب الماضي خلوا تاما.

وأتبعت ذلك بالأساس الذي ينظر الله اليه، وأنه ليس هو التمني، وإنما هو العمل وإسلام الوجه لله الذي له ما في السموات وما في الأرض.

جاء ذلك كله في إحدى عشرة آية تبدأ من قوله تعالى: **﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا﴾** الى قوله عز وجل: **﴿ولله ما في السموات وما في الأرض وكان الله بكل شيء محيطا﴾**(٢).

١٢ - بعد هذا عادت السورة الى شأن النساء في ثلاث آيات تبدأ بقوله

---

(١) الآيات من ١٠٥ الى ١١٥ من سورة النساء.

(٢) الآيات من ١١٦ الى ١٢٦ من سورة النساء.

تعالى: ﴿ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن﴾ الى قوله تعالى: ﴿وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعاً عليما﴾.

وسنعرض عند التفصيل لهذا الموضع بين أحكام النساء إن شاء الله.

١٣ - ثم تحدثت عن تقوى الله وأنها من الوصايا التي أجمعت عليها جميع الكتب السماوية وأنها مما يقضي به المنطق وفهم الأمر على وجهه الصحيح، إذ كل شيء لله ملكا، وكل شيء تحت إرادة الله قدرة وفعلا، فكيف لا يتقيه من يخافه ويرتجيه.

وفي ذلك أمرت المؤمنين بأن يكونوا قوامين بالقسط شهداء لله، وبأن يؤمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل، وعرضت لبعض صفات المنافقين، وحذرت المؤمنين منهم ومن اتخاذ الكافرين أولياء من دون أهل الايمان، ومضت في هذا وما يتصل به من أول قوله تعالى: ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض، ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله، وإن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض، وكان الله غنيا حميدا. ولله ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا﴾(١). وتأمل كيف ذكرت جملة «لله ما في السموات وما في الأرض» مرة في أول الآية الأولى، ومرة في آخرها، ومرة في الآية الثانية، وجاء بين ذلك التوصية بالتقوى، والتحذير من الكفر.

وكان آخر هذه الآيات هو قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما﴾(٢).

١٤ - بعد هذا أخذت السورة في حديث عن أهل الكتاب - والمراد بهم هنا اليهود لأنهم هم الذين كانوا بالمدينة وهم الذين ينطبق عليهم حديث السورة - فذكرت حمقهم في مطالبتهم محمدا صلى الله عليه وآله وسلم أن ينزل عليهم كتابا من السماء، وأن لهم في هذا الحمق ماضيا، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا: أرنا الله جهرة، ثم ذكرت ماضيهم في اتخاذهم العجل وموقفهم حين أمرهم

---

(١) الآيتان ١٣١، ١٣٢ من سورة النساء.

(٢) الآية ١٥٢ من سورة النساء.

بالسجود ونهيهم عن العدوان في السبت، وفي نقضهم المواثيق، وقتلهم الأنبياء، وموقفهم من مريم وعيسى وزعمهم قتل المسيح ... الى غير ذلك من مخازي تاريخهم.

وجاء ذلك كله في الآيات من قوله تعالى: ﴿**يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء**﴾ الى قوله عز وجل: ﴿**لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك، والمقيمين الصلاة، والمؤتون الزكاة، والمؤمنون بالله واليوم الآخر، أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما**﴾(1).

١٥ - ثم جاءت بعد ذلك بحديث عن الوحي والرسالات فبينت أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ليست بدعا من الرسالات، فقد أوحى الله اليه كما أوحى إلى غيره من نوح وابراهيم واسماعيل وغيرهم من الرسل الذين قصهم الله عليه، ومن الرسل الذين لم يقصصهم عليه.

كما بينت أن الحكمة من إرسال الرسل هي إقامة الحجة على الناس، وأن الكفر بالرسالات والصد عنها لا بد أن يوصل أصحابه الى جهنم، فليس الكفر هاديا إلا الى هذا الطريق، ثم توجهت الى الناس جميعا بنداء تأمرهم فيه باتباع الرسول الذي بعثه الله بالحق منه، والى أهل الكتاب ـ والمراد بهم هنا النصارى الذين يزعمون في شأن عيسى ما يزعمون ـ فبينت لهم أنهم غالون في شأن عيسى، وما عيسى إلا رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه، فعليهم أن يؤمنوا بالله إلها واحدا، وينتهوا عن عقيدة التثليث، واستمرت في هذا النداء تؤيده وتتبعه بما يقويه، ثم نادت الناس مرة أخرى بنداء عام تلفتهم فيه الى برهان الله ونوره المبين في رسالة الاسلام، وأن الاعتصام بهذه الرسالة هو السبيل الى رحمة الله وفضله وصراطه المستقيم.

وقد جاء ذلك كله في الآيات من أول قوله تعالى: ﴿**إنا أوحينا إليك كما**

---

(١) الآيات من ١٥٣ الى ١٦٢ من سورة النساء.

أوحينا الى نوح والنبيين من بعده، وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان، وآتينا داود زبورا. ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل، ورسلا لم نقصصهم عليك، وكلم الله موسى تكليما﴾[1] الى قوله عز وجل: **﴿فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به، فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطا مستقيما﴾**[2].

١٦ – ثم ختمت السورة بآية في شأن الميراث أفردتها عن الموضع الذي ذكرت فيه أحكام المواريث لحكمة مقصودة، تلك الآية هي قوله تعالى: **﴿يستفتونك، قل الله يفتيكم في الكلالة، أن امرؤ هلك ليس له ولد، وله أخت، فلها نصف ما ترك، وهو يرثها إن لم يكن لها ولد، فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك، وإن كانوا أخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين، يبين الله لكم أن تضلوا، والله بكل شيء عليم﴾**[3].

هذا عرض إجمالي لما تضمنته سورة «النساء» من الأحكام والمبادىء والوصايا، وكلها ذات صلة وثيقة بشأن المجتمع، ووضع الأسس التي يجب أن يقوم عليها.

ويمكننا أن نرد ذلك ـ إذا أردنا إيجازا أكبر ـ الى الأمور الآتية:

١ – اعلان مبدأ المساواة بين الناس تمهيدا لاقامة المجتمع على أساسه.

٢ – حقوق النساء، واليتامى، والسفهاء.

٣ – أحكام المواريث.

٤ – أحكام الزوجية وما يتصل بها.

٥ – التضامن الاجتماعي في ظل التوحيد والخلق الكريم.

٦ – أساس الحكومة الاسلامية.

---

(١) الآيتان ١٦٣، ١٦٤ من سورة النساء.

(٢) الآية ١٧٥ من سورة النساء.

(٣) الآية ١٧٦ وهي الآية الأخيرة من سورة النساء.

٧ – التحذير من أهل النفاق والكفر ومن الأعداء الذين يتربصون الدوائر بالمؤمنين، ويحاربونهم حروبا مادية ومعنوية.

٨ – إرسال الرسل شأن إلهي، وليس محمد بدعا من الرسل.

٩ – إقامة الحجة على من يزعمون التثليث، وإثبات أن الله واحد، وأن المسيح ما هو إلا عبد لله.

١٠ – الرسالة المحمدية رسالة عامة موجهة الى الناس أجمعين.

٤
أقسام البحث

هذا البحث يتألف من قسمين:

القسم الأول:

المبادىء والتوجيهات التي أقامت عليها السورة نظام المجتمع.

وهي نوعان:

أ) ما يرجع الى تقرير الأصول العامة والتوجيهات التي يدور المجتمع في نطاقها، وتكون له روحا يستلهمه في وجوه حياته.

ب) وما يرجع الى تركيز روح التفاؤل والأمل في المجتمع، حتى لا تخيم على أفراده عوامل اليأس والقنوط، فيضعف ـ تبعا لذلك ـ جهده، وتقل ثمراته.

القسم الثاني:

الأحكام التي شرعتها السورة لهذا المجتمع، وبيان ملاءمة كل منها لحكم الفطرة، ومقتضيات الطبيعة التي ليست إلا سنن الله في الكون، ونواميسه للحياة، والموازنة بينها وبين غيرها من النظم المقابلة لها في الشرائع الأخرى، ملية كانت أو وضعية، كلما احتاج المقام الى ذلك، وبمقدار ما يتسع له المجال.

وهذه الأحكام ـ كما يتبين من عرضنا السابق للسورة ـ ترجع الى: المحافظة على حقوق الضعفاء من أعضاء المجتمع، وتنظيم شؤون الأسرة في الزوجية والميراث، وبيان حقوق النساء على الرجال، وحقوق الرجال على النساء،

وتنظيم أسلوب التعامل بين الزوجين في حالتي الوفاق والخلاف، ووضع الأساس الذي يقوم عليه التعامل التجاري والكسب المشروع، وتقرير عصمة النفس المؤمنة، وتشريع عقوبة بعض الجرائم الخلقية التي من شأنها أن تهدد كيان المجتمع وبيان أركان الايمان والعقيدة الصحيحة، ومصادر التشريع، وأصول الحكم في الاسلام، وتشريع ما يحفظ الصلاة ويبين عظيم منزلتها، من أنها لا تؤدى إلا والمرء في حالة طهارة حسية ومعنوية، ولا تترك حتى في حالة الخوف من العدو في ميدان القتال، وبيان الغاية من الحرب وتشريع أحكامها، وتحريم اتخاذ الكافرين أولياء التماسا للمصالح الخاصة، الى غير ذلك مما قد يجر اليه القول، أو يدعو الى تفصيله المقام.

وإذا كان أساس بحثنا وما نعقده من الموازنة، هو ما جاء في سورة «النساء»، فإن ذلك لا يمنعنا أن نستعين في إيضاح ذلك وتكميله بما جاء في القرآن الكريم عامة، فإن القرآن يفسر بعضه بعضا، ويتلاقى بعضه مع بعض، ولا يختلف شيء منه عن شيء، وهذا سر من أسرار إعجازه: ﴿**ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا**﴾.

كما اننا سنستعين ـ كلما اقتضى المقام ـ بما نراه في السنة المطهرة متصلا بذلك إن شاء الله تعالى، فإن السنة بيان الكتاب ومفتاحه، والنور المبين الذي يكشف عن أسراره.

القسم الأول

المبادىء والتوجيهات
التي أقامت عليها السورة
نظام المجتمع

الأصول العامة والتوجيهات

المجتمع الاسلامي مجتمع طبيعي

المجتمع الطبيعي هو الذي يقوم على أساس من الطبيعة، ويدرك أحكامها ومقتضياتها، وينزل عليها في غير تمرد ولا منافرة ولا مقاومة.

ولا ينبغي أن يفهم من هذا أن المجتمع الطبيعي هو الذي يطلق لنفسه العنان، فلا يتقيد بقيد، ولا يحاول أن يهذب جموح الطبيعة، ويرد ما عسى أن يكون لها من شطط ـ لا ينبغي أن يفهم هذا، لأن من أحكام الطبيعة نفسها أن الاسترسال في وضع من الأوضاع الفطرية دون أي كبح، لا بد أن يعكس هذا الوضع في النهاية، فالطبيعة تأذن بتهذيبها والحد من صور اندفاعها، وإن كانت تأبى أن تقاوم وتنكر، ويفرض عليها ما لا يلائمها، وما من شأنه أن يعوق مسيرتها.

وإذا قام مجتمع ما على أساس إنكار طبائع الأشياء ومقتضيات تكوينها، أو وجد فيه من أحكام التعامل والسلوك ما ينافرها ويغالبها، فذلك هو المجتمع الصناعي، ومن شأن الطبيعة أن تحس بأنه مفروض عليها، مقاوم لها، فهي تأباه وتمقته وتأخذ في محاربته ومطاردته حتى تزيله أو تحيله.

ومن مزايا التشريع الاسلامي ـ بل لعل ذلك أكبر مزاياه ـ أنه يدرك هذا الأمر حق الادراك، وأنه يجري على مقتضاه جريانا كليا، لا يختلف أسلوبه فيه

مهما تعددت الأحكام، وتنوعت التشريعات والقوانين، واختلفت الموضوعات، وتغيرت الأزمنة والأمكنة، وليس ذلك بعجيب وهو تنزيل الحكيم الحميد الذي يعلم السر في السموات والأرض، والذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، ولذلك توصف الشريعة الاسلامية بأنها «شريعة الفطرة» و «الدين القويم» و «الصراط المستقيم»، وتوصف أمة الاسلام بأنها «أمة وسط» و «شهداء على الناس».

وسورة النساء تتكفل بتنظيم «المجتمع الاسلامي» على نحو طبيعي كما يبدو واضحا من المبادىء والتوجيهات التي أقامته على أساسها، ومن الأمل الذي بعثته فيه، ومن الأحكام التي أخذته بها.

أقامت السورة نظام المجتمع الاسلامي على مبادىء وأصول، وزودته في الوقت نفسه بكثير من التوجيهات العملية التي تتلاقى مع هذه المبادىء والأصول.

وأهم المبادىء والأصول التي سنعرض لها بالبحث في هذا القسم، يرجع الى:

١ – المساواة بين الناس.

٢ –الايمان بالله وحده إلها معبودا، ومشرعا رحيما، عليما، حكيما.

٣ – العدل في الحكم والقضاء والشهادة.

٤ – التضامن الاجتماعي.

وأهم التوجيهات العملية التي سنعرض لها أيضا في هذا القسم يرجع الى ما يأتي:

٥ – الآيات المحذرة.

٦ – الآيات الموجهة.

٧ – الآيات المبشرة.

هذه هي أهم المبادىء والأصول والتوجيهات العملية، التي أقامت عليها سورة «النساء» نظام المجتمع الاسلامي، والتي سنعرض لها بالبحث في هذا القسم، وقد يجر الحديث الى نقاط متصلة بها، فنسير معه تكميلا للفائدة.

والمقصود من أن السورة أقامت المجتمع الاسلامي على هذه المبادىء والأسس، هو أنها قررتها فيه أصولا يرجع اليها كل تشريع، وكل معاملة، وكل

تصرف، وأن جميع ما جاء من أحكام تفصيلية، بالتحليل أو التحريم، أو الايجاب أو الارشاد، إنما يستهدف واحدا أو أكثر من تلك المبادىء والتوجيهات ويجري في دائرته، ويتقرر تطبيقا عليه.

الآن فلننظر الى كل واحد من تلك المبادىء والتوجيهات حسب ما رسمنا لهذا البحث، والله المستعان:

١
المساواة بين الناس

العالم والنظام الطبقي:

١ - مما هو ثابت في تاريخ الأمم والشعوب قبل الاسلام أن الأحبار والرهبان ـ وساعدهم الملوك وأصحاب السلطة المادية ـ قسموا الناس طبقات، وخيّلوا لهم أن الدماء الآدمية تختلف، وأن حقوقها تبعا لذلك تتفاوت، فلهذه الطبقة من الحقوق ما ليس لتلك، ولهذا الدم أن يحكم وأن يورث الحكم في أعقابه بأمر الله، وليس لأحد من العامة أن يعترض وإلا كان جزاؤه الطرد على يد الحكام من الحياة الدنيا بالموت، والطرد على يد رجال الكهنوت في الحياة الآخيرة من رضوان الله، وبهذا فترت الهمم، وانحلت العزائم، وصار الناس يدورون في فلك ضيق: ان كانوا من الخاصة لم يكدوا ولم يكدحوا ولم يكلفوا أنفسهم أن يسلكوا في الحياة سبيلا قويما، لأنهم لا يخافون أن يضيع مجدهم، أو ينزلوا الى مرتبة العامة، وإن كانوا من العامة لم تسم نفوسهم الى حياة أرفع لأن هذه الحياة مستحيلة عليهم في ظل هذا التقسيم الجائر الذي فرض على المجتمع، ومن ثم استرخى هؤلاء وهؤلاء، وصار العز والرفعة ميراثا يصل الى الابناء عن آبائهم وأجدادهم، كما صار الفقر والشقاء ميراثا لقوم آخرين لا يعدوهم.

هذا النظام الطبقي هو النظام الذي كان يعرفه العالم ويرضخ له كارها، وكانت الشعوب تسير على مقتضاه مسخرة، ولا تعرف الأكثرية في ظلاله حقا، ولا تستطيع ـ من طول ما أصابها من الذلة ـ أن تفكر في التخلص منه، وكان

يستوي في ذلك أهل المدنيات والحضارات، وأهل البداوة والتوحش، فالأمر في ظلال الدولتين الرومانية والفارسية هو الأمر في جزيرة العرب على عهد الجاهلية، كلهم يعيشون في مجتمعات تفرق بين الناس، وتقرر ان بعضهم شريف وبعضهم وضيع، حتى الطبقة الواحدة كانت تتفاوت وتنقسم الى طبقات، ومن قرأ تاريخ هاتين الدولتين اللتين كانتا تقتسمان العالم نفوذا وقيادة ونظما وقوانين وتقاليد، يرى هذه الطبقية في أبشع صورها متمثلة في المناصب ومن تسند اليهم، وفي الأرض ومن يمتلكها، وفي العقوبات واختلافها بحسب المذنبين أو المجرمين نوعا وكما وكيفا، وفي التجاوز عن العقوبات كذلك، فليس كل أحد يعاقَب، وليس كل أحد يُتجاوَز عنه، فربما سرق الشريف فتركوه، بينما نراهم إذا سرق الوضيع أو اشتبهوا في أنه سرق أصروا على توقيع العقوبة عليه، وكانت العقوبة تزداد في جانب الشدة والقسوة كلما ازداد المذنب في جانب الذلة والضعف.

والعرب لم يكونوا مختلفين حالا في ذلك عن غيرهم، فهذا تاريخهم يشهد بأنهم كانوا أمة متفاخرة بالآباء والأجداد، متكاثرة حتى بعظام الموتى في المقابر، وأنهم كانوا قبائل متفاوتة: فمنهم الشرفاء العالون، ومنهم الأدنياء النازلون، وبين ذلك مراتب، وفي شعرهم وأخبار منافراتهم الكثير الذي يدل على ذلك، وينبىء عن شدة الاعتداد به، والتعويل عليه في مجتمعهم، وعلى هذه النزهة كان الفرزدق يفاخر جريرا فيقول له:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم ... إذا جمعتنا يا جرير المجامع

وعلى أساس من هذه التفرقة كان التفضيل بين نمير من جانب، وكعب وكلاب من جانب آخر في قول جرير يهجو الراعي النميري:

فغض الطرف إنك من نمير ... فلا كعبا بلغت ولا كلابا

وعلى أساس هذه التفرقة أيضا هجى بنو باهلة فقيل فيهم:

ولو قيل للكلب يا باهلي ... عوى الكلب من قبح هذا النسب

وكان من عقائدهم الخرافية أن دماء الأشراف دواء شاف من مرض الكلب، وعلى هذا يقول الشاعر في مدح قوم ووصفهم بأنهم شرفاء:

أحلامكم لسقام الجهل شافية ... كما دماؤكم تشفي من الكلب

وقد استمر هذا النظام الطبقي في أوروبا، وكانت فرنسا قبل ثورتها مظهرا

من أشنع مظاهره، إذ كان فيها طائفة النبلاء، وطائفة الأجراء، وإذ كان مجتمعها يعتبر الغنى مبررا لفعل السوء، وارتكاب الموبقات، والاستعلاء على القانون، بينما يعتبر الفقر كأنه جلباب عبودية ورق أو حيوانية، فلا يكاد يجد الفقير من ينصفه أو يحترمه أو يدفع عنه غوائل القوي أو الغني.

بل إننا مازلنا الى الآن نرى أمة كبرى كالولايات المتحدة، وشعبا كبيرا في جنوب أفريقيا يجري في هذا القرن على التفرقة بالألوان، فللأبيض من الحقوق ما ليس للأسود، حتى في دور العلم والجامعات الكبرى التي من شأنها أن تمثل الرقي الفكري، والسمو العقلي، نرى لديهم هذه التفرقة، ونسمع في الاذاعات، ونقرأ في الصحف أنباءها التي تثير الحزن، وتبعث على منتهى الاشمئزاز، وحسبنا أن نقرأ أن فتاة زنجية تطرد من إحدى الجامعات، وتتظاهر عليها جموع الشعب هاتفة بقتلها، ويصنع لها تمثال رمزي، ثم يحطم هذا التمثال لا لشيء إلا لأنها - وهي زنجية - دخلت الجامعة تطلب العلم، وتأخذ قسطها كإنسان من نوره، ومن العجيب أن هذا الأمر يتطور في دولة كالولايات المتحدة الأميركية، حتى يصبح مشكلة يجتمع لها وزراؤها، ويتفرغ لها رئيسها.

أضف الى ذلك نظرة الأوروبيين الى غير الأوروبيين، فقد كانت ومازالت الى اليوم نظرة ازدراء وتعصب، فعندهم أن الأوروبي صنف ممتاز خلق ليسود غيره ويصعد به مدارج الرقي وأن غير الأوروبي صنف أدنى منه، عليه أن يسمع له ويطيع، وقد جرأهم هذا المبدأ على استعمار بلادنا، واستنزاف مواردنا، والتسلط علينا، واستخدامنا في مصالحهم، وفي تصريف تجارتهم، مع تحطيم روحنا المعنوي حتى صرنا لهم مناطق نفوذ، وصاروا يتعاركون علينا، ويتسابقون على استلابنا وامتلاكنا، وقد طال علينا الأمد حتى سلمنا لهم بهذا المبدأ فعلا وقبولا ورضوخا، وإن ظل فينا يومئذ من ينكره قولا وكتابة، ولكن الله تعالى قد بعث فينا الآن روحا جديدا، فاستطعنا أن نهدم هذا البناء العتيق على رؤوس الذين أقاموه، وأن نعلمهم كيف يعاملوننا على قدم المساواة كما يتعاملون بعضهم مع بعض.

وكان من آثار هذا المبدأ الذي هو التفرقة بين الناس، انهم كانوا يحاربون الشرق بأسلحة دنيئة لا يحاربون بها في الغرب، كالغازات الخانقة،

والميكروبات ونحو ذلك، وأنهم كانوا يبيعون الشرقيين من الدواء أصنافا غير التي يبيعونها للأوروبيين، وهذا - حتى الدول المنهزمة اذا كانت دولا أوروبية عوملت معـاملة فيهـا كثير من الرقة واللطف واحترام الشعور والمحافظة على الكرامة، أما اذا كانت شرقية آسيوية أو أفريقية أو غير ذلك، فإن للمغلوب منها الويل كل الويل، والذل كل الذل، ولذلك نرى المغلوبين من دول أوروبا لا يكاد يمر عليهم سنوات معدودة حتى ينالوا استقلالهم، ويعودوا الى تبوىء مكانتهم بين الشعوب كما كانوا، لا لمجرد أنهم أصلح للحياة، أو أقدر على التخلص من أزماتها، ولكن لأن غالبيتهم يرون لهم ذلك لأنهم من جنسهم وعصبيتهم.

المرأة في العالم القديم:

٢ - وفي جانب آخر من جوانب هذه الطبقية أو هذه العصبية نرى موقف هذه المـدنيات والحضارات المخالفة للاسلام من المرأة يصور لونا من ألوان الظلم والاساءة من الانسان الى أخيه الانسان.

كانت المرأة في الشعوب المتوحشة لا تعدو أن تكون في حياتها مخلوقا تابعـا للرجـل، ليس له في نفسه قيمة، ولكن قيمته جاءت من أن الرجل يريده انتفاعا ومتاعا، فمثلها في ذلك مثل الحيوان الأعجم، أرأيت الى الحيوان كيف يعيش حياته مسخرا في أغراض مالكه، لا يأكل إلا ما يطعمه، ولا يعمل إلا في ما اليه يوجهه، أرأيت اليه كيف يذل ويحرم كل حق إلا الحق الذي يحفظه لمالكه بوصفـه بعض ماله، وكيف يعتـدي عليه المعتدي فلا يكون مسيئا ولا معتديا إلا بمقدار ما فوت على مالكه من منفعة، أو أصابه من مضرة، فليس للحيوان نفسه حق في ألا يعتدى عليه، ولكن الحق كل الحق في ذلك إنما هو لمالكه وصاحبه.

كذلك كانت المرأة في الشعوب المتوحشة قديما، وكذلك كانت تعامل في البيوت والأسر والمجتمعات: حياتها تابعة لحياة الرجل، يطعمها ويكسوها ليتمتع بها ويستخدمها، ويأخذ ما شاء من أموالها، وكانوا أحيانا يجتزون شعور النساء ليبيعوها كما تجتز أصواف الأغنام، وأوبار الأنعام، وكان الرجل يجمع من النساء

ما شاء، ويطلق منهن من شاء، وكانت المرأة تعتبر أمة لزوجها، لا يرى لها حقا معه، ولا ترى هي لنفسها حقا، وكان الزوج إذا مات تترمل زوجته حتى تموت، فلا يسوغ لها أن تتزوج، ولا أن تتزين، أما إذا ماتت الزوجة، فللرجل أن يتزوج، وقد بقيت آثار في كثير من مجتمعاتنا الشرقية على الرغم من الاصلاح الاسلامي، رسبت فيها من أحكام المجتمعات الأولى، فمازال أهل الريف المصري ينظرون الى المرأة التي تتزوج بعد موت زوجها نظرة فيها شيء من اللوم والازدراء، بينما يرون زواج الرجل بعد موت زوجته أمرا طبيعيا ولا يرون فيه شيئا يخالف المألوف أو يحيد عن السنن الطبيعي.

بل لقد كان بعض الشعوب يستحسن من المرأة التي مات زوجها أن تقتل نفسها بعده، فكانت الزوجة المسكينة تلقي بنفسها من مكان عال فيندق عنقها، أو تتحطم ضلوعها، وكانت ربما أحرقت نفسها في النيران التي تحرق بها جثة زوجها الميت، ومازال هذا الحكم القاسي مطبقا في بعض الشعوب وإن كانت المرأة قد تخففت من الموت المادي الى نوع من أنواع الموت المعنوي، فارتضت أن تعيش بعد زوجها، ورضي لها المجتمع ذلك، ولكن على شريطة أن تحلق شعرها، أو تجدع أنفها، أو تصلم أذنيها، أو تشوه وجهها، لكي تضمن ألا ينظر الرجال بعد زوجها اليها، ولكي تحقق هذا اللون من الوفاء لذلك الشريك الراحل الذي يلزمها المجتمع به، وإن لم يلزم به زوجها لو وقف موقفها، فهو إلزام لجانب واحد، ومبالغة ظالمة في استضعاف أضعف الطرفين، وهو المرأة.

ويحدثنا التاريخ أن المرأة كانت تلاقي من العنت وألوان الشقاء حتى في المجتمعات المتمدينة والبلاد المتحضرة ما لا يلاقي الرجل بعضه، فكان يحكم عليها بالموت مثلا إذا خالفت زوجها أو أسرفت في ماله، وكانت تعد روحا شريرة في بعض المجتمعات، بل عدها مجمع من مجامع روما مخلوقا لا نفس له، وزعم أنه لا حق لها في الحياة الآخرة، أي أنها لا تبعث كما يبعث الناس، وإنما تنتهي حياتها بالموت، كالحيوان في رأي من يقول إن الحيوان لا يبعث، فهي في هذا نظير للحيوان الأعجم في نظرهم، هذا فضلا عن حرمانها التصرف في أموالها بالبيع أو الشراء أو الهبة أو غير ذلك من ألوان التصرف إلا بإذن زوجها، ومازالت

بقايا هذا الحكم راسبة في أعمال بعض الشعوب الى يومنا هذا، ومازال من شعوب أوروبا من يحرم على المرأة أن تتصرف في خالص مالها إلا بموافقة زوجها.

التفرقة بالجنس أو بالنوع مخالفة للنواميس الكونية:

٣ – ويتبين من هذا كله أن العالم قبل الاسلام، وفي ظلال النظم البشرية المتفاوتة، كان يعاني معاناة شديدة من مبدأ «اللامساواة»، وأن آثار هذا المبدأ مازالت تبدو في كثير من الأحكام والعادات والنظم حتى في عصرنا الحاضر.

هذا من غير شك مبدأ منافر للطبيعة، مخالف لمقتضى أصل الخلق، فالناس من حيث هم، مربوبون لرب واحد، ناشئون من أصل واحد، وإذن فإنسانيتهم واحدة، لا يمكن أن يمتاز فرد من أفرادهم، أو طبقة من طبقاتهم، أو جنس من أجناسهم، أو لون من ألوانهم، أو سكان إقليم من أقاليمهم، أو سلالة شعب من شعوبهم، إلا إذا كان هذا الامتياز مستندا الى معان ووجوه من كسبهم وسعيهم وعملهم الصالح.

ولهذا كان الاسلام طبيعيا فطريا حين قرر مبدأ المساواة بين الناس، وإهدار الجنس، وإلغاء الطبقات، وعدم الاعتراف بالسلطان الذي يستمد من «الدم» أو «السلالة» أو «الكهنوت» وعدم الاعتراف بالتفرقة الظالمة بين «الذكورة» و «الأنوثة» في معنى الانسانية المشترك، وفي حق كل نوع منهما في التمتع بمقتضيات حياته النوعية، وخصائصه الطبيعية في ظل من المساواة واحترام الكرامة المشتركة، وكان طبيعيا فطريا حين توجه بدعوة الحق، التي هي رسالة الاسلام، الى الناس جميعا من كل جنس، وفي كل زمان ومكان، واعتبر جميع الذين يلبون الدعوة أخوة لا فرق بين أبيضهم وأسودهم وأحمرهم، فكان بلال وهو العبد الحبشي زميلا وأخا لعلي وهو الحر القرشي، وكان سلمان الفارسي نظيرا وأخا لعمر بن الخطاب، وكان أسامة بن زيد المولى العتيق قائدا على آخر جيش كونه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان المؤمنون

والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، ﴿ومن يعمل الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا﴾.

آية النساء الأولى تقرر المساواة الكاملة:

٤ – وقد صدرت سورة النساء بتقرير هذا المبدأ واضحا جليا، وإقامة اصلاحها الاجتماعي على أساسه، فافتتحت بهذا المطلع القوي، حيث تقول:

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، إن الله كان عليكم رقيبا﴾.

تحليل علمي للآية:

وجهت الآية الخطاب في هذا الى الناس جميعا، لأنه شأن عالمي انساني عام، وليس خاصا بمجتمع إقليمي أو زماني.

ثم بدأت بأمرهم بتقوى ربهم الذي خلقهم، فهو الذي يملك ما خلق، ومن واجب مخلوقيه أن يتجهوا اليه لأنهم ناشئون عن فضله، ومربوبون له، ومحتاجون اليه، فهم في ذلك جميعا سواء، ولا يوجد فيهم من يشذ عن هذا الحكم، أي عن كونه مخلوقا لله، مربوبا له حتى يستحق أن يمتاز من دونهم، ويتقى من دونهم، وإنما الذي يتقى وحده هو الرب الخالق.

وإذن فقد وضع الناس كلهم وضعهم الطبيعي بالنسبة للرب الذي خلق، والذي يستحق أن يتقى، فكانوا في هذا الوضع متساوين لا يمتاز أحد منهم عن أحد، ولا شعب منهم عن شعب، ولا صنف منهم عن صنف، ولا سلالة منهم عن سلالة.

فهذا أول ركن من أركان المساواة.

ثم هم جميعا فوق كونهم مخلوقين لرب واحد، مخلوقون من نفس واحدة، فالعنصر واحد كما ان الخالق واحد.

ثم هذا العنصر ليس هو «الذكر» فقط، أو «الأنثى» فقط، فإن جميع الرجال وجميع النساء الذين انبثوا في العالم، واقتسموا بلاده وأقاليمه وخيراته،

انما انبثوا «منهما» أي من النفس الواحدة، ومن زوجها المخلوق منها، فليست المرأة إذن مجرد وعاء للولد كما كانوا يعتقدون، وكما قال الشاعر العربي: «**وإنما أمهات الناس أوعية**».

وفي آية أخرى تصريح بذلك حيث يقول الله جل جلاله:

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[1].

ثم عادت الآية لأمر الناس مرة أخرى بتقوى الله، ولكن على أسلوب آخر عجيب فيما له من دلالة وإيحاء: ذلك أنها تقول: **﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾**.

وقد قرئت كلمة «**الأرحام**» على وجهين، فالجمهور قرأها بالنصب عطفا على لفظ الجلالة، فالمعنى على هذا، واتقوا الله، واتقوا الأرحام ـ اتقوا الله أن تخرجوا على أمره ونهيه، واتقوا الأرحام أن تقطعوها وتنسوا حقوقها أو تنكروها، وحمزة قرأها بالجر عطفا للأرحام على الضمير المجرور في «به»[2] فالمعنى: واتقوا الله الذي تتساءلون به وبالأرحام، وذلك أن العرب كانوا يتناقشون بالله وبالأرحام حين يستعطف بعضهم بعضا، فيقول أحدهم للآخر أسألك بالله وأسألك بما بيننا من رحم أن تفعل كذا[3]، وسواء أكان المعنى هو هذا أو ذاك، فإن الأرحام قد أبرزت في هذه الآية إبرازا يوحي بعظم شأنها، وكمال العناية بها حيث عطفت على لفظ الجلالة أو على الضمير العائد اليه، إيذانا بأن حقها مستمد منه جل جلاله، وفي الحديث القدسي الشريف: «**قال الله عز وجل: أنا الله وأنا الرحمن، خلقت الرحم، وشققت لها اسما من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته** ـ أو قال ـ : «**بتته**»[4].

---

(١) الآية ١٣ من سورة الحجرات.

(٢) والنحاة يشترطون في عطف الظاهر على الضمير أن يكرر حرف الجر، تطبيقا على قواعدهم وشواهدهم، والقرآن خير شاهد لو كانوا ينصفون.

(٣) وهذه المناشدة أمر طبيعي في الناس، وليس خاصا بالعرب.

(٤) رواه أبو داود وغيره عن عبد الرحمن بن عوف، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح ـ الترغيب والترهيب للحافظ المنذري ج ٣ ص ٢٢٥.

ثم تختتم الآيــة عبارتها في تقرير هذا المبدأ بقوله تعالى: ﴿**إن الله كان عليكم رقيبا**﴾، ولم يرد في القرآن الكريم وصف الله تعالى بأنه «رقيب» إلا في ثلاثة مواضع أحدها هذا الموضع في أول سورة «النساء»، والثاني في ما أنبأ الله تعالى أن عيسى يقوله حين يسأله ربه عما قال للناس فيقول: ﴿**ما قلت لهم إلا ما أمرتني به ان اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الـرقيب عليهم، وأنت على كل شيء شهيد**﴾[1]. والموضع الثالث في سورة الأحزاب حيث يقول الله تعالى مخاطبا نبيه صلوات الله وسلامه عليــه: ﴿**لا يحـل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن، إلا ما ملكت يمينك، وكان الله على كل شيء رقيبا**﴾[2].

فآية المائدة تقرر رقابة الله تعالى في شأن يتصل بالألوهية والوحدانية، وآية الأحزاب تقرر هذه الرقابة على النبي في شأن يتصل بالنساء، وآيتنا هذه تقرر هذه الرقابة الإلهية على المجتمع في مبدأ المساواة بين الناس الذي يرجع الى استوائهم في المخلوقية والمربوبية والنفس الأولى.

النتائج التي أسفر عنها هذا التحليل:

ومن هذا يتبين أن فاتحة سورة النساء تقرر المبدأ الأول الذي لا بد من قيام أي مجتمع صالح على أساسه، وهو مبدأ المساواة أمام الله، وفي ظل تقوى الله ورقابة الله، وفي كون جميع الأفراد من رجال ونساء منبثين من زوجين «ذكر وأنثى».

وفي هذا:

* إلغاء للفوارق الطبيعية.
* وإلغاء للفوارق الدينية والعنصرية.
* وإلغاء للتفاوت في الوزن الاجتماعي بين الرجل والمرأة.

---

(١) الآية ١١٧ من سورة المائدة.

(٢) الآية ٥٢ من سورة الأحزاب.

* وغرس للوازع النفسي في المجتمع، وهو المعبر عنه بتقوى الله.
* وإحياء لعاطفة الرحم الانسانية، وهو المعبر عنه بتقوى الأرحام.

التفاوت الطبيعي بين الرجل والمرأة:

٥ - ولا ينبغي أن يفهم من هذا أن المرأة والرجل قد أصبحا بهذا مستويين حتى في ما تفرض الطبيعة اختلافهما فيه بحسب التكوين والوظائف المقصودة من كل منهما - لا ينبغي أن يفهم ذلك، فان هذه السورة الكريمة قد قطعت الطريق على من يتوهمونه أو يريدونه، حيث تقول: ﴿**ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض، للرجال نصيب مما اكتسبوا، وللنساء نصيب مما اكتسبن، واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليما**﴾[1].

أي أن الفطرة قد أكسبت كلا من الجنسين أوضاعا خاصة، ويسرت لكل منهما سبيله بحسب المقصود منه، وسلحته فيه بما يحتاج اليه من سلاح، وحدود الطبيعة لا يصح أن تقتحم، وخلق الله لا يمكن أن يغير، فمن أراد ذلك كان مريدا المحال، ومتمنيا ما لا يكون.

وإذن فالمساواة لا تقتضي إنكار حكم الطبيعة، ونسيان الفوارق الخلقية وما يتبعها من الاختصاص في الأعمال، وإنما هي مبدأ اجتماعي يقتضي ألا يكون بعض المتماثلين في الانسانية محابى مكرما، وبعضهم مضطهدا مهانا.

ومثل ذلك أيضا يقال في المساواة بين الأفراد والشعوب، فلكل نصيب مما اكتسب، أي مما طبع عليه، ومنح أدواته وأسلحته، وإن كانوا جميعا سواء في الوزن والاعتبار الانساني العام.

ولهذا اتصال في المعنى بقوله تعالى: ﴿**قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى**﴾[2] وقوله جل شأنه: ﴿**سبح اسم ربك الأعلى، الذي خلق**

---

(١) الآية ٣٢ من سورة النساء.

(٢) الآية ٥٠ من سورة طه.

فسوى، والذي قدر فهدى﴾[1] وبما ورد من قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «كل ميسر لما خلق له»[2].

مبدأ المساواة في غير آية النساء من القرآن عامة:

٦ – ومبدأ المساواة بين الناس مبدأ مقرر في غير هذا الموضع أيضا من القرآن الكريم. ومن ذلك قوله تعالى في سورة الحجرات: **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾**[3].

ولكن سورة الحجرات نزلت بعد سورة «النساء»، وبينهما عدد كبير من السور، وإذن فسورة «النساء» سابقة في تقرير هذا المبدأ، أي أنها بكرت بتقريره في أوائل عهد المسلمين بالمدينة لتقيم مجتمعهم على أساسه.

ومما يشير الى هذا المبدأ قوله تعالى في سورة الأحزاب: **﴿وقال ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل. ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا﴾**[4].

ووجه ذلك أنه تعالى ينعي على الكافرين أنهم اعتمدوا على سادتهم ورؤسائهم حتى أضلوهم السبيل، وكان عليهم أن يعلموا أنه لا سلطة لأحد على أحد في عقيدة ولا توجيه، وأن كل انسان مسؤول عن عمله، والناس جميعا متساوون في ذلك فلا ينفع التابعين الاحتجاج بالسير وراء المتبوعين، ويدل على أن هذا الدفاع منهم غير مقبول قوله تعالى قبل هاتين الآيتين عنهم: **﴿إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا، خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا ولا نصيرا، يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا﴾**[5].

وفي سورة البقرة إشارة مثل هذه الى مبدأ المساواة حيث يقول الله عز

---

(٢) الآيات من ١ إلى ٣ من سورة الأعلى.

(٣) رواه البخاري ومسلم وأبو داود واحمد في مسنده عن عمران بن حصين، راجع الجامع الصغير (باب الكاف).

(٤) الآية ١٣ من سورة الحجرات.

(٥) الآيتان ٦٧، ٦٨ من سورة الأحزاب.

(٦) الآيات من ٦٤ إلى ٦٦ من سورة الأحزاب.

وجل: ﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب. وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم، وماهم بخارجين من النار﴾[1].

وكل من سورتي «الأحزاب» و «البقرة» قد سبقتا في النزول سورة «النساء»، وهما مدنيتان ولكنهما قد أفادتا هذا المبدأ بطريق الاشارة، كما افادته بعض السور المكية كذلك، أي في حدود هذه الاشارة، ومنها سورة الأعراف حيث يقول الله جل جلاله: ﴿قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس في النار، كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى اذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار، قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون. وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون﴾[2].

ومنها كذلك سورة «ص» حيث يقول الله تعالى، في ما أنبأ به من تخاصم أهل النار: ﴿هذا فوج مقتحم معكم لا مرحبا بهم، إنهم صالو النار. قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار. قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا في النار﴾[3].

ومنها كذلك سورة الصافات حيث يقول جل شأنه: ﴿وقفوهم انهم مسؤولون. ما لكم لا تناصرون. بل هم اليوم مستسلمون. وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون. قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين. قالوا بل لم تكونوا مؤمنين. وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين. فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون. فأغويناكم إنا كنا غاوين. فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون﴾[4].

وسورة الزخرف حيث تقول: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا، فهو له قرين، وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون.

---

(١) الآيتان ١٦٦، ١٦٧ من سورة البقرة.

(٢) ٣٨ - ٣٩ من سورة الأعراف.

(٣) ٥٩ - ٦١ من سورة «ص».

(٤) ٢٤ - ٣٣ من سورة الصافات.

حتى إذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين. ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون﴾[1].

ونريد من إيراد هذه الآيات في هذه السور المكية بيان أن هذا المعنى جاء في القرآن المكي، وأنه يدل أصالة على أن التابعين لا ينجيهم من العذاب أن يعتذروا بأنهم كانوا تابعين، وذلك يستلزم أن كل إنسان مسؤول عما فعل، لأنه متساو مع الآخرين، ولا مبرر لانسياقه في الكفر والطغيان تبعا لهم، وخضوعا لسيادتهم وسيطرتهم، وقد جرت سورة «البقرة» وسورة «الأحزاب» المدنيتان على هذا الأسلوب الذي يفيد مبدأ المساواة بالاستلزام، أما سورة «النساء» فقد صرحت به لأول مرة، وجعلته منطوق العبارة في أول آية منها، ثم جاءت بعد ذلك سورة «الحجرات» فقررته هي أيضا صريحا واضحا، وسورة «الحجرات» من أهم السور المدنية التي عنيت بتنظيم بعض شؤون المجتمع، وهي تهتم بقواعد السلوك الاجتماعي، والأدب الذي يجب أن يقوم بين المواطنين.

٧ - ويطول بنا الحديث لو أردنا أن نتتبع كل ما ورد في القرآن الكريم صراحة أو اشارة الى هذا المبدأ العظيم الذي أقام الله عليه صرح الاصلاح الاجتماعي، وهو مبدأ المساواة الذي ما كان العالم يعرفه من قبل نظريا ولا عمليا، والذي ظل من مفاخر الاسلام الى يومنا هذا.

ولكننا نكتفي باضافة ما جاء تقريرا لهذا المبدأ في السنة المطهرة، وما كان من احترام المسلمين له، وقيام مجتمعهم عليه في العصر الأول، وهو عهد الصحابة والراشدين:

السنة المطهرة ومبدأ المساواة:

فمما ورد في السنة المطهرة قوله صلى الله عليه وآله وسلم في خطبته الكبرى بحجة الوداع: «**أيها الناس. إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي على عجمي فضل**

---

(١) ٣٦ - ٣٩ من سورة الزخرف.

إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم. قال: فليبلغ الشاهد منكم الغائب»[1].

والمعنى في هذه العبارات الواضحة مستمد من نصوص الكتاب الكريم، حيث ذكرت الرب الواحد، والأب الواحد، وانتفاء الفضل والامتياز إلا بالتقوى، وقد أكد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله باستشهاده بسامعيه حتى أقروا بتبليغه. ثم بأمره إياهم أن يبلغ الشاهد منهم الغائب فكان ذلك منه صلى الله عليه وآله وسلم عناية بالغة بهذا الشأن الخطير من شؤون الاجتماع السليم.

وقد بلغ من حرص النبي صلى الله عليه وآله وسلم طول حياته على تقرير هذا المبدأ وتثبيته في نفوس المسلمين، انه كان قدوة عظيمة في تطبيقه على نفسه، فما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يمتاز على أصحابه، وكان يستشيرهم فيسألونه ويراجعونه قائلين: هل هذا شيء قلته من عندك يا رسول الله أو نزل به وحي؟ فإن قال هو من عندي جاءوا بما عندهم من الرأي، وربما رجع صلى الله عليه وآله وسلم الى رأيهم كما جرى في بعض الغزوات.

وأبلغ من هذا كله أن النبي عليه وآله الصلاة والسلام طعن سواد بن غزية بقدح سهم «لا نصل له ولا ريش» في بطنه وهو مكشوف ليستوي في الصف يوم بدر فقال: قد أوجعتني فأقدني، فكشف له عن بطنه ليقتص منه، فطفق يتمسح به، وكان ذلك توسلا منه للتوصل الى هذا الشرف العظيم، وآذن الناس قبل موته بأن من له حق عنده فليطلبه، وإذا كان ضرب أحدا فليقتص منه، وأذن لرجل أن يضربه حين ادعى أنه ضربه يوما، فقال الرجل إني كنت عاري الكتف أو الظهر، فألقى له الرداء عن عاتقه الشريف وكان شأنه في ذلك شأن سواد بن غزية.

الصحابة ومبدأ المساواة:

وقد سار أصحابه على نهجه فأوقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه عليا كرم الله وجهه مع يهودي من آحاد اليهود في خصومة بينهما، وعاتبه علي كرم الله

---

(١) راجع خطبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المعروفة بخطبة الوداع، وكانت في السنة التاسعة من الهجرة بمعنى يوم النحر، وتواترت بها الأحاديث، وسجلت في كتب السنة والتاريخ والأدب.

وجهه بعد المخاصمة بأنه لم يسو بين خصمه وبينه في المعاملة، لأنه دعاه - أي دعا عليا - بكنيته فقال له: تكلم أبا حسن، تكريما له. بينما لم يدع خصمه إلا باسمه، وفي التكنية تعظيم، فكان عليه تحقيقا للمساواة أن يدعوه باسمه، أو يدعو خصمه بكنيته أيضا.

وقصة عمر مع عمرو بن العاص وابنه والمصري من القصص المشهورة الدالة على عدالة الاسلام وعناية خلفائه الأولين بالمساواة بين الناس، فقد سوغ للمصري أن يضرب ابن عمرو الأمير، وقال: «**متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا**»، فسارت هذه القولة المشهورة مثلا باقيا على الزمان.

ولم يطق جبلة بن الأيهم، ملك بني غسان، هذا العدل العمري الاسلامي، ولم يرض بالمساواة بينه وبين الأعرابي حين لطمه، فأبى عمر إلا أن يقتص من جبلة للأعرابي تحقيقا لمبدأ المساواة، ففر جبلة من هذه المساواة ولم يكن الاسلام قد وقر في قلبه، فارتد ولجأ الى النصرانية.

ويذكر من مفاخر المأمون العباسي أنه جلس يوما للمظالم فكان آخر من تقدم اليه امرأة عليها هيئة السفر، وعليها ثياب رثة، فوقفت بين يديه وأفضت اليه بأن لها شكوى من خصم ظلمها، فسألها: أين الخصم؟ فقالت: الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين، وأومأت الى العباس ابنه، فقال: يا أحمد بن أبي خالد، خذ بيده فأجلسه معها مجلس الخصوم، فجعل كلامها يعلو كلام العباس، فقال لها أحمد بن أبي خالد: يا أمة الله إنك بين يدي أمير المؤمنين، وإنك تكلمين الأمير، فأخفضي من صوتك، فقال المأمون: دعها يا أحمد، فإن الحق أنطقها وأخرسه، ثم قضى لها برد مظلمتها وإحسان معاملتها، وأمر لها بنفقة.

فهذه هي المساواة التي مازالت الأمم تنشدها وترنو اليها، ومازالت النظم (الديمقراطية) تتمنى الوصول الى مداها، وأن تسوي بين الرؤساء والمرؤوسين فيها.

٢

للايمان بالله وحده

إلها معبودا، ومشرعا رحيما، عليما، حكيما

قضية التوحيد، على نحو جديد:

القـرآن الكريم فرغ من قضية التوحيد، ومن محاجة المشركين وإقامة الدليل على بطلان زعمهم في أن لله تعالى شركاء يعبدون كما يعبد، ويرجون كما يرجى، وعلى أن وحدة الربوبية تقتضي وحدة الألوهية، أي أن العقول السليمة، والفطر المستقيمة تحكم بأن لهذا الكون ربا هو الذي خلقه، وهو الذي أنعم بكل نعمة فيه، وهو الذي يقدر على إدامة هذه النعمة لمن منحه إياها إن شاء، وعلى سلبها منه إن شاء، فهو صاحب الشأن على الاطلاق، كما هو صاحب الخلق والابداع على الاطلاق، ومن كان هذا شأنه، وجب عقلا أن يكون هو الإله الواحد الذي لا يشرك به غيره ﴿**أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون**﴾.

فرغ القـرآن الكـريم من هذه القضية حين كان ينـزل في مكة، ويقارع المشـركين، ويقتـل عقـائدهم، ويعيب عليهم عبادة الأوثان واتخاذهم شفعاء يقربونهم الى الله زلفى، أما وقد صار المسلمون مجتمعا مؤمنا في المدينة، فإن القرآن لا يتناول أمر الوحدانية كقضية يناضل عنها على الوجه الذي كان في البيئة

المكية المشركة، ولكنه يتحدث عنها على نحو آخر وهو ذلك الذي نرى في سورة «النساء» مظهرا له:

التوحيد عملا، بعد التوحيد علما:

فهو يتحدث عن وحدانية الله كمبدأ يجب أن يستقر في المجتمع عملا، بعد أن قامت الأدلة عليه حجة ونظرا.

فبينما هو يقول في إيجاز: ﴿**واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا**﴾. ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾. ﴿**الله لا إله إلا هو ليجمعنكم الى يوم القيامة لا ريب فيه**﴾. ﴿**ولله ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا. إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين**﴾، فلا يعدو أن يكون مذكرا بقضية استقرت وقام الدليل من قبل على صحتها، نراه يتحدث عن الله تعالى مشرعا يجب على الناس أن يتلقوا أحكامهم عنه، وأن يؤمنوا ايمانا خالصا بأنه هو وحده صاحب الحق المطلق في ذلك من جهة انه هو الخالق، ومن جهة انه هو المتصف بالصفات التي لا بد منها في من يشرع، ومن جهة انه رقيب لا يغيب، ومن جهة انه أعد في الآخرة ثوابا عظيما لمن أطاعه، وعذابا مهينا لمن عصاه وتعدى حدوده:

١ - نرى جانبا من هذا في أول آية من السورة حيث تقول: ﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم**﴾.

وذلك هو جانب الامر باسم «الربوبية»، والالزام بمقتضى «المخلوقية».

٢ - ونرى جانباً من هذا في الآيتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة من السورة حيث تقولان: ﴿**تلك حدود الله، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وذلك الفوز العظيم، ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين**﴾.

فالذي يضع الحدود هو الله تعالى، والذي يجب له الطاعة هو الله تعالى

الذي وضع هذه الحدود، ورسوله الذي بلغ عنه، والناس إما طائع ملتزم هذه الحدود فله الجنة والفوز العظيم، وإما عاص متعد هذه الحدود فله النار والعذاب المهين.

أهداف التشريع الاسلامي:

٣ – ونرى جانباً من هذا في آيات ثلاث من السورة هي قوله تعالى: ﴿**يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم، والله عليم حكيم، والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما. يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا**﴾[١].

فهذه الآيات تذكر الغاية من التشريع ووضع الحدود وقواعد التعامل في المجتمع، فليست هي مجرد الرغبة في تقييد الناس وإخضاعهم للسلطان الالهي، ولو كانت كذلك لما كانت إلا حقا، لأن الناس جميعا ملك لله تعالى، وفي حدود سلطانه التكويني قبل السلطان التشريعي، ولكنها غاية تنبعث عن صفتي الرحمة والحكمة، فالله تعالى، وهو الحكيم الرحيم بعباده، يريد أن يبين لهم البيان الشافي، ولا يكلهم إلى أنفسهم وتجاربهم دون أن يعينهم بوحيه وتشريعه وبيانه فقد تهتدي العقول، ولكنها كثيرا ما تضل، وكثيرا ما تختلف، وكثيرا ما ترى شيئا وتغيب عنها أشياء، فلا بد إذن من بيان من العليم الذي لا يخفى عنه شيء، ولا يضطرب علمه بشيء ـ سبحانه ـ والله تعالى يريد أن يهدي عباده سنن التاريخ، ويقرب لهم تجارب من كانوا قبلهم، ويريد أن يتوب عليهم أي يغفر لهم ويطهر مجتمعهم مما كان عليه سلفهم في الجاهلية، بينما يريد أهل الشهوات والأهواء أن يخرجوهم عن الصراط المستقيم، وأن يميلوا بهم عن سنة الفطرة، والله ـ تعالى ـ يريد أن يخفف عن عباده لأنه يعلم ان الانسان مخلوق ضعيف.

وإذن، فالتشريع انما هو للبيان والهداية والتطهير والاصلاح، وللعصمة من الميل والانحراف وتجاوز الصراط المستقيم والسنن الطبيعية، وهو مع ذلك

---

(١) ٢٦ ـ ٢٨ من سورة النساء.

كله تشريع قائم على ملاحظة ما في الناس من ضعف طبيعي يجعلهم غير قادرين على تحمل المشاق التي تزيد على الطاقة، أو تثقل عن مألوف الاحتمال.

ولا شك أن هذه الآيات التي تتناول هذه المعاني في بيان الغاية من التشريع والفائدة التي تتحقق للناس منه، والرحمة التي تصاحبه وتلابسه، من شأنها أن توجه الناس الى الايمان بالله تعالى مشرعا، كما آمنوا بها ربا وإلها معبودا.

الاذعان شرط في الايمان:

٤ – ونرى جانبا من هذا في آيات من السورة، هي التي ترسم طريقة معرفة حكم الله، والالتزام به في تقبل ورضى لا يلابسهما أي عناد أو أي تبرم، وذلك قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا. ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا. وإذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا. فكيف اذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله ان اردنا إلا إحسانا وتوفيقا. أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم، وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا. وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله، ولو انهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول، لوجدوا الله توابا رحيما. فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما. ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم، ولو انهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا. وإذن لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما. ولهديناهم صراطا مستقيما. ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين

والشهداء الصالحين وحسن أولئك رفيقا، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما﴾[1].

فهذه الآيات الكريمة تسبح هذا السبح الطويل في تقرير ذلك المبدأ، مبدأ ارجاع التشريع كله لله تعالى، عن طريق الرجوع اليه فيما أنزل والرجوع الى رسوله فيما بلغ أو بين، والرجوع الى أولي الأمر فيما يستنبطون تطبيقا للنصوص، وتنزيلا على القواعد والمصالح، فإنهم بذلك موقعون عن الله رب العالمين، وليسوا مشرعين، أو هم ـ بتعبير آخر ـ مظهرون لحكم الله بعد التأمل في مصادره والتعرف عليه، لا منشئون لأحكام من عندهم.

وفي سبيل تركيز هذا المعنى تتحدث هذه الآيات عن المنافقين الذين يريدون ان يتحاكموا الى الطاغوت ـ وكل ما سوى الله ممن يرجع اليه بالباطل، أو يؤخذ حكمه، ويخضع لسلطانه بالباطل، فهو طاغوت ـ فالآيات تعجب الرسول من هؤلاء الذين يزعمون الايمان بما أنزل اليه وما أنزل من قبله، وهم في الوقت نفسه يرجعون الى غير الله ورسوله في التحاكم، وإذا دعوا الى الله ورسوله أبوا وأعرضوا وصدوا عن السبيل، ثم تقرر في حكم حاسم نفي الايمان عن كل من يأبى تحكيم الرسول، الذي هو تحكيم لله، وعن كل من يرفض حكم الرسول ولا يؤمن به ايمانا خالصا صادقا لا يشوبه حرج في الصدور، ولا التواء في القبول، ثم تنتهي الى المبدأ في النهاية، كما صدرت به في البداية، فتعلن أن طاعة الله ورسوله هي الأساس الذي يكون به الفضل والنعمة وحسن العاقبة.

٥ – ونرى جانبا شبيها بهذا أيضا في الآية الخامسة عشرة بعد المئة من هذه السورة، حيث يقول الله جل شأنه:

﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا﴾.

فذلك أيضا تحذير من مشاقة الرسول ومباينته، واتباع غير سبيل

---

(١) ٥٩ ـ ٧٠ النساء.

المؤمنين وأصل المشاقة أن تكون في شق غير شق صاحبك، والمراد أن هناك سنة متبعة ومبادىء مقررة للاسلام أساسها اتباع هدى الرسول واختيار شقه وجانبه الذي يكون فيه، لأنه مبلغ عن الله، مبين لحكم الله، مصدر عن أمر الله، مسدد من الله، فمن ترك هذا المبدأ فقد شاق الرسول واتبع غير سبيل المؤمنين، فإذا كان هذا بعد التبين والعلم النافي للريب، القاطع للحجة، فإن خطره عظيم، حيث يوعد الله تعالى فاعله بأن يتركه الى نفسه، ويملي له في ضلالته، ويذره في غلوائه وباطله، ثم يصليه في الآخرة العذاب الشديد عذاب جهنم **﴿وساءت مصيرا﴾**.

ظاهرتان من ظواهر القرآن:

١) تذييل الآيات بصفات الله:

٦ – وكذلك نرى جانبا هاما تحرص عليه السورة، ولا تكاد تخلو منه آية من آياتها، ذلك هو تذييل ما جاءت به من المبادىء والأحكام والتوجيهات بإثبات صفات الله تعالى التي تغرس الهيبة والمحبة والرضى في نفوس المؤمنين، وتقر فيهم مبدأ: «لا حكم إلا لله» إقرارا مبنيا على معرفة من هو الله.

وتلك حكمة بالغة، فيها مراعاة للقلوب، وفيها سياسة نفسية انسانية عالية، فإن الانسان إذا ذكر بأن الذي يشرع له، ويوجهه، ويقرر المبادىء التي تصلحه، ذو صفات تتناسب مع هذه السلطة وتتحقق بها هذه الهيمنة، فإنه يكون أكثر تقبلا، وأعظم امتثالا، وأبعد عن التمرد والعصيان وتجاوز الحدود.

وهذا التذييل بذكر صفات الجلال والجمال التي لمولانا جل شأنه، هو خاصة من خواص القرآن الكريم عامة في جميع سوره، لا فرق بين المدني منها والمكي وهي خاصة جعلت لهذا الكتاب المبين ميزة الربط بين التكاليف والضمير الانساني المستمد من الايمان الصادق، ولم تترك التكاليف جافة ثقيلة يلقى بها القاء، ويقسر الناس عليها قسرا خاليا من مناشدة العقول والقلوب، كما هو الشأن في القوانين الوضعية البشرية.

وسـورة «النساء» في الكثرة الكاثرة من آياتها مظهر كامل صادق لهذه الخاصة القرآنية العظيمة:

فأول آية منها ذيلت بقوله تعالى: ﴿ان الله كان عليكم رقيبا﴾، ومن هذا الوصف، ومن كونه جاء تذييلا لأول آية، نفهم ان الله تعالى يريد أن يغرس في نفوس عباده من أول الأمر مهابته والحذر من رقابته، والمجتمع الذي يرسخ فيه هذا، هو المجتمع الذي يكون فيه ميزان التعامل منضبطا مستقيما كما لو كان كل عضو فيه يستصحب معه من يراه في جميع تصرفاته، ويتبعه في كل غدواته وروحاته.

وقد جاء التذييل بمثل هذا المعنى في آيات من السورة، مثل قوله تعالى بعد الأمر بدفع الأموال لليتامى إذا بلغوا النكاح: ﴿وكفى بالله حسيبا﴾. وقوله بعد بيان أن الشفاعات منها ما هو حسن ومنها ما هو سيء، وأن لكل شافع نصيبا وكفلا من شفاعته: ﴿وكان الله على كل شيء مقيتا﴾ - أي مقتدرا، حافظا، شاهدا - وقوله تعالى بعد الأمر بمقابلة التحية بأحسن منها أو بمثلها على الأقل: ﴿إن الله كان على كل شيء حسيبا﴾، وقوله تعالى بعد الكلام على بعض شؤون النساء واليتامى والمستضعفين من الولدان: ﴿وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما﴾ وقوله بعد توجيه الزوجين الى الصلح، والايحاء بالتوسل اليه عن طريق الاحسان والبذل: ﴿وأحضرت الأنفس الشح ، وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا﴾.

أما التذييلات الدالة على العلم المحيط، والرحمة الشاملة، والحكمة التامة والعزة والقدرة، فهي كثيرة، ويكفي أن نقرأ السورة لنرى كل آية من آياتها تقريبا، تنتهي بتذييل منها مناسب لموضوعه تمام المناسبة.

ومن ذلك: ﴿ان الله كان عليما حكيما﴾ ﴿والله عليم حليم﴾ ﴿ان الله كان غفورا رحيما﴾ ﴿ان الله كان بكم رحيما﴾ ﴿ان الله كان بكل شيء عليما﴾ ﴿ان الله كان عليما خبيرا﴾ ﴿ان الله كان على كل شيء شهيدا﴾ ﴿ان الله كان عليا كبيرا﴾ ﴿ان الله كان عفوا قديرا﴾ ﴿ان الله كان عزيزا حكيما﴾ ﴿ان الله كان سميعا بصيرا﴾ ﴿لوجدوا الله توابا رحيما﴾ ﴿وكفى بالله عليما﴾ ﴿وكفى بالله

شهيدا﴾ ﴿وكفى بالله وكيلا﴾ ﴿وكان الله بكل شيء محيطا﴾ ﴿فإن العزة لله جميعا﴾ ﴿وكان الله شاكرا عليما﴾ ... الخ.

٢ - التنقل والتوزيع ترويحا للقلوب:

٧ - ويشبه هذه الخاصة ـ التي هي بث صفات الله تعالى المشعرة بعظمته وجلاله، في آياته، وفي خلال أحكامه وتشريعاته ـ خاصة أخرى من خواص القرآن، تشترك معها في الغاية والهدف، تلك هي ان القرآن الكريم، لا يحشد المبادىء والتشريعات حشدا، ولا يعنى بأن يجمعها في نطاق واحد، ولا بأن يضم الشبيه منها الى شبيهه، والموضوع في بعض تفاصيله الى بعض، ولكنه يراوح ويغادي بالموعظة حينا، والقصة حينا، ويذكر طرفا من الشيء، ثم يتركه، ثم يعود الى إتمامه، وهكذا حتى لا تسأم النفوس هديه، ولا تستثقل حديثه، وبهذا أخذ القرآن طابعا غير طابع الكتب المألوف الذي يقسم الغرض الى أبواب وفصول وأقسام وأنماط الى غير ذلك، وكان هذا سرا من أسرار إعجازه، وإبقاء على رونقه وحسن ديباجته، وأخذه دائما بالقلوب.

وهذه الخاصة التي تقوم على بث الموعظة والنصيحة وتخول النفوس والارواح بما يصلحها، ويقوي استعدادها وينشطها، شبيهة بالخاصة التي ذكرناها من قبل في ان الغاية منهما هي تطويع النفوس، واجتلابها الى التقبل والتتبع والاذعان، إلا ان الخاصة الأولى تعتمد على أمر عقلي منطقي، وكأنها تقول للناس، هذه صفات من يوجه اليكم القول، ويشرع لكم الاحكام والمبادىء، والعقول تحكم بأن من كانت هذه صفاته فله حق الحكم والتوجيه وأن يذعن الناس لسلطانه، أما هذه الخاصة الثانية فإنها تعتمد على العاطفة والترويح، وسلوك ما من شأنه أن يلفت الأنظار، ويجذب القلوب.

وهناك أمثلة كثيرة لهذه الخاصة في مختلف سور القرآن مكيا ومدنيا، وحسبنا أن نتلو آية سورة لنراها ونلمسها ونرى كيف استطاعت أن تخرج الكتاب المبين عن أن يكون كتابا أصم مغلقا لا روح فيه، الى كتاب يأخذ بالألباب في قوة، ويحرك النفوس في أريحية وارتياح.

وفي سورة «النساء» من ذلك ان الله تعالى بعد أن بين طرفا من أحكام النساء في قوله:

﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض﴾ عقب على ذلك بقوله تعالى: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا﴾ الى أن قال: ﴿ان الله لا يظلم مثقال ذرة، وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما. فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا، يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا﴾، ثم قال بعد ذلك مباشرة: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون، ولا جنبا إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا، وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لا مستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم، إن الله كان عفوا غفورا﴾[1].

فقد تنقلت الآيات من بعض أحكام النساء الى بعض أحكام العقيدة، الى بعض الأخلاق التي يجب أن تسود أفراد المجتمع، ثم عقبت ببيان ان الله لا يظلم مثقال ذرة، وصورت مشهدا من مشاهد الحساب يوم القيامة حيث يجاء من كل أمة بشهيد، ويجاء بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم شهيدا على هؤلاء، ثم ذكرت حكما من أحكام الصلاة، ثم حكما من أحكام التطهر بالماء أو بما ينوب عنه من الصعيد الطيب.

وهكذا انتقلت من معنى الى معنى، وجاءت من كل شجرة بثمرة، ومع ذلك لم تبعد ولم تأت بما يعد في الأذواق متنافرا، أو يبدو أمام العيون أو الاسماع متقاطعا، فهي لم تخرج عن دائرة أحكام المجتمع وأسسه وغرس بذور الايمان في أفراده، وسبحان ﴿الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، قيما﴾.

آيات تجمع الظاهرتين:

ومن ذلك في السورة أيضا قوله تعالى: ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين

---

(١) اقرأ من الآية ٢٤ إلى الآية ٤٣ من سورة النساء.

النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة، وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما﴾ ﴿وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما. ولله ما في السموات وما في الأرض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله وإن تكفروا فان لله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنيا حميدا. ولله ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا. إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا. من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة، وكان الله سميعا بصيرا، يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا﴾[1].

وهذه الآيات تجمع الظاهرتين جميعا، ففيها من الظاهرة الثانية: التنقل من بعض أحكام النساء الى الحديث عن ملك الله للسموات والأرض، وقدرته عليهما وعلى ما فيهما، وأن عنده ثواب الدنيا والآخرة، وإلى الأمر بإقامة القسط، والنهي عن اتباع الهوى في شأنه، وفيها من الظاهرة الأولى أنها ذيلت كل هذه الآيات السبع بأوصاف لله تعالى تورث المحبة والرهبة والمراقبة، حيث تقول: **﴿فان الله كان غفورا رحيما﴾ ﴿وكان الله واسعا عليما﴾ ﴿وكان الله غنيا حميدا﴾ ﴿وكفى بالله وكيلا﴾ ﴿وكان الله على ذلك قديرا﴾ ﴿وكان الله سميعا بصيرا﴾ ﴿فان الله كان بما تعملون خبيرا﴾**.

وهذا أسلوب واضح القصد، لم يأت عفوا، ولا يمكن أن يأتي عفوا.

الشرك ألوان:

٢ - وهناك جانب آخر يتصل بالوحدانية وإبطال مزاعم الشرك، وتفنيد حججه، سواء أكان شركا على طريقة الوثنيين، أوشركا على طريقة أهل الكتاب.

بيان ذلك أن مجتمع المدينة كان مؤلفا من المسلمين ومن أهل الكتاب - وأغلبهم اليهود، وأقلهم النصارى - وكان بين المسلمين فريق من المنافقين

---

(١) الآيات من ١٢٩ الى ١٣٥ من سورة النساء.

الذين يتظاهرون بالاسلام وهم يبطنون الكفر، وقد تحدث عنهم كثير من السور المدنية، كما تحدث عن أهل الكتاب.

فسورة «النساء» تكلمت عن الشرك مخاطبة جميع هؤلاء الذين ضمتهم بيئة المدينة.

١ - فقالت للمؤمنين: ﴿**واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا**﴾ لتفيدهم أن الشرك بالله ليس هو اتخاذ الأوثان والأحجار فحسب، ولكن هناك ألوانا من الشرك غير هذا اللون، فكل من آثر على الله تعالى أحدا من الناس، أو شيئا من الأشياء فقد ارتكب لونا من ألوان الشرك، لأن الايثار اختيار بعد الموازنة، فإيثار طاعة الحكام في ما يخالف أمر الله ونهيه لون، وإيثار الشهوات على الطاعات لون، وإيثار المادة والكسب المحرم لون، وإيثار حكم الانسان على حكم الله في التحليل والتحريم لون ... وهكذا.

والقرآن الكريم، والسنة المطهرة يسميان هذه الألوان بأسماء تدل على هذا المعنى.

فالله تعالى يقول عن الذين يحكمون الأهواء: ﴿**أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا**﴾[1] ويقول عن بعض أتباع الأنبياء السابقين: ﴿**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا، لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون**﴾[2] ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبين معنى اتخاذهم الأحبار والرهبان أربابا من دون الله بأنهم كانوا يحللون لهم ويحرمون، أي يغتصبون سلطة التشريع التي لا تكون إلا لله فيقبلون ذلك منهم.

وقد أمر القرآن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأن يدعو أهل الكتاب الى نبذ الأرباب حيث يقول:

﴿**قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله**

---

(١) ٤٣ الفرقان.

(٢) ٣١ التوبة.

ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾(١).

فإذا كان المجتمع الاسلامي خاليا من شرك الأوثان، فإن هناك ألوانا من الشرك أخرى يجب أن يحذروها، وأن تحذرها المجتمعات دائما، فإنها لا تختص بزمان دون زمان، ولا بمكان دون مكان، فمادامت الأهواء، ومادامت الطواغيت، ومادام المال وإغراؤه، والجاه والحرص عليه، مادام هذا كله باقيا في الناس - وإنه لباق ما بقي الناس - فيجب أن يحذروه، ويجب أن يأخذوا أنفسهم، كلما حدثتهم فيه أنفسهم، بأن يتجهوا الى ايثار الله، على كل ما سواه.

٢ - وقالت السورة في هذا الجانب أيضا:

﴿ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾(٢).

وقد جاءت هذه الجملة في موضعين من السورة:

أحدهما: وهي بصدد الكلام عن أهل الكتاب حين نادتهم بقوله تعالى: **﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم﴾** في عدة آيات من السورة منها قوله تعالى: **﴿انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به اثما مبينا. ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا﴾**(٣).

والجبت: لفظ يطلق على السحر والساحر والشيطان، أما الطاغوت فكل ما يتخذ من دون الله ويكون سببا أو مصدرا للطغيان وتعدي حدود الله.

وقد أخرج ابن اسحق عن ابن عباس قال: كان الذين حزبوا الأحزاب من قريش، وغطفان، وبني قريظة: حيي بن أخطب، وسلام بن الحقيق، وأبا رافع، والربيع بن أبي الحقيق ... الخ...

فلما قدموا على قريش قالوا: هؤلاء أحبار اليهود، وأهل العلم بالكتب

---

(١) ٦٤ آيتي عمران.

(٢) جاءت هذه الجملة مرتين في سورة النساء، حيث صدرت بها كل من ايتي ٤٨، ١١٦ من هذه السورة.

(٣) اقرأ الآيات من ٤٧ إلى ٥٧ من سورة النساء.

الأولى، فاسألوهم أدينكم خير أم دين محمد؟ فسألوهم: فقالوا لقريش: دينكم خير من دينه، وأنتم أهدى منه وممن اتبعه.

فهذا هو ايمان هؤلاء الكتابيين بالجبت والطاغوت، وشهادتهم بأن عبدة الأوثان أهدى سبيلا من عبدة الرحمن، وأنه لا ضلال وخروج على ما يعلمون من الحق، وإيثار لما يبغونه من الارجاف على النبي والمؤمنين على ما يعلمونه من الحق المبين.

فذلك هو الموضع الأول.

أما الموضع الثاني فقوله تعالى: **﴿ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا. ان يدعون من دونه إلا اناثا، وإن يدعون إلا شيطانا مريدا، لعنه الله، وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا. ولأضلنهم، ولأمنينهم، ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام، ولآمرنهم فليغيرن خلق الله، ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا. يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا، أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصا. والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا، وعد الله حقا، ومن أصدق من الله قيلا﴾**(١).

وهو موضع ذكر فيه المؤمنون بما كان من أهل الجاهلية حيث يتخذون الشيطان وليا من دون الله، فيستمعون الى وحيه وأمره ونهيه، ويتبعون ما يزينه لهم من أفعال منافية للفطرة، مخالفة لأمر الله، مغيرة لخلق الله، كل ذلك إضلالا لهم وتمنية بالباطل.

والغاية من هذا أن تجتث السورة هذا الجذر العميق من المجتمع، فلا تبقي له على أثر، وتقول لهم: ان اتّباع الشيطان، والتقبل لوسوسته من شأنه

---

(١) الآيات من ١١٦ إلى ١٢٢ من سورة النساء.

أن يجـر الى مثـل ما جر اليـه الأولون من الضلال البعيد، ومن هذه الأوهام والخرافات التي لا تليق بمجتمع راق مؤمن بالله، معتقد بوحدانيته.

يا أهل التثليث: انتهوا خيرا لكم:

٣ - وهناك جانب ثالث في قضية التوحيد، وجه القول فيه الى النصارى خاصة، أولئك الذين يرون الآلهة ثلاثة: الله، ومريم، وعيسى، فتثبت لهم السورة أن الله هو الإله وحده، وأن عيسى ما هو إلا رسوله وكلمته ألقاها الى مريم، وأنه لن يستنكف أن يكون عبدا لله، ولا الملائكة المقربون يستنكفون ذلك، فكلهم عباد الله، وكلهم خاضعون لله، وإن الله مالك السموات والأرض، وإليه الجزاء في الآخرة، وإن دعوة الاسلام هي برهان الله المبين الى جميع الناس.

وذلك قوله تعالى: **﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم، ولا تقولوا على الله إلا الحق، إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه، فآمنوا بالله ورسله، ولا تقولوا ثلاثة، انتهوا خيرا لكم، إنما الله إله واحد، سبحانه أن يكون له ولد، له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا. لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله، ولا الملائكة المقربون، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم اليه جميعا. فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله، وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما، ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا. يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا. فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطا مستقيما﴾**[1].

---

(١) الآيات من ١٧١ إلى ١٧٥ من سورة النساء.

٣

العدل في الحكم والقضاء والشهادة

١ - العدل من أهم الأركان التي يقوم عليها المجتمع الصالح، وكل مجتمع لا يقوم على أساس من العدل هو مجتمع فاسد صائر الى الانحلال ثم الزوال.

وقد عنيت سورة «النساء»، كما عني القرآن الكريم في كثير من السور، بأن يقيم المجتمع الاسلامي على أساس العدل القويم الذي لا يعرف الالتواء، ولا يتأثر بالأهواء، وقد جاءت جميع تعاليم الاسلام متمشية مع العدل، فكل ما شرعه الله تعالى من أحكام المعاملات، وقواعد السلوك الاجتماعي، وتفصيل العلاقة بين المؤمنين بعضهم وبعض، وبينهم وبين غيرهم، كل ذلك قام على العدل، ورمى الى تحقيق العدل، ومن ضوابط الشريعة الاسلامية، أن كل تشريع لا يقوم على العدل، والرحمة، والمصلحة، فليس من الشريعة، وإن أدخل عليها بنوع من التأويل.

العدل في سورة «النساء»:

٢ - وسورة «النساء» قد أسهمت بنصيب واضح في تقرير مبدأ العدل في

الحكم، وفي القضاء، وفي الشهادة، وكل المبادىء والأحكام التي أتت بها يمكن إرجاعها الى مبدأ العدل:

١) فالمســاواة التي تحدثت عنها في أول آية منها، هي أساس العدل، ولولاها لاضطرب ميزانه.

٢) واعتقاد الوحدانية عدل في الاعتقاد، وفيه انصاف للعقل، لأن العقل يحكم بأن للكون صانعا واحدا تبدو آثار قدرته وربوبيته في كل ما خلق، وفي كل ما جعل، وفي كل ما أنعم، على طراز واحد من الاستقامة والاتقان والاطراد، فإذا كان الأمر كذلك فلا بد للعقل من أن يحكم بأن الإله المستحق للعبادة والتوجه والخضوع دون شريك له، هو هذا الخالق الواحد، ولذلك جاء في وصية لقمان لابنه: «**يا بني لا تشرك بالله، إن الشرك لظلم عظيم**»[1] وجاء في سورة «النساء»: «**ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**» وما هذا إلا لأن المشرك قد أخل بميزان العدل إخلالا عظيما وخرج على مقتضى العقل خروجا بعيدا، فلم يعد أهلا لأن يغفر له ويتجاوز عن ذنبه.

وفي هذه السورة أيضا: «**ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما**» «**ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا**».

وفي سورة الحج: «**فاجتنبوا الرجس من الأوثان، واجتنبوا قول الزور، حنفاء لله غير مشركين به، ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق**»[2].

٣ - والتضامن الاجتماعي الذي تقرره السورة في الآيات التي تبدأ بقوله تعالى: «**واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا**» هو أيضا مظهر من مظاهر عدل الاسلام، لأنه لا يمكن أن يتحقق التوازن على وجه يكفل الاستقرار إلا بذلك، ولا يمكن أن يقبل في العقول أن يكون أحد أعضاء المجتمع متخما بالمال والنعيم، وبجانبه من هو مستحق لبعض ذلك ليعيش، ثم يعفى هذا المترف

---

(١) ١٣ لقمان.

(٢) ٣٠ - ٣١ الحج.

المنعم من أن يعاون أخاه وزميله في مجتمعه بشيء من ماله، ان ذلك لا يمكن أن يحكم به عاقل، ولا يمكن أن يرتضيه نظام يقوم على العدل والتعاون.

٤ – وإذا نظرنا الى الأحكام فإننا نجد السورة تقرر في أول حكم منها وجوب اعطاء اليتامى أموالهم، وذلك هو مقتضى العدل، لأن الولي أو الوصي قد أخذ هذا المال ليحفظه لا ليأكله، فإذا طمع فيه فقد جافى العدل، وخرج على العهد الذي به استولى على هذا المال.

ثم تقرر هذا صراحة في ختام آيات التوصية باليتامى فتقول: ﴿**ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا**﴾(١) فتصرح بأن الأمر راجع الى العدل، وأن الخروج عنه ظلم، وأن الظلم هو النار، وعاقبته النار.

ونجد السورة حينما تحدثت عن النساء في أول آية جاء فيها الحديث عن النساء تقول: ﴿**وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى، فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم، ذلك أدنى ألا تعولوا**﴾ فالأمر إذن في جواز التعدد أو عدم جوازه منوط بالعدل وجودا وعدما.

وفي آيات المواريث تقول السورة: ﴿**آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا، فريضة من الله، ان الله كان عليما حكيما**﴾، فتشير بذلك الى أن هذا التوزيع الإلهي مبني على مراعاة العدل، حيث يعلم الله تعالى من هو الأقرب نفعا، وما نسبة هذا النفع، فأعطى الأنصباء، وفرض المواريث، بحسب ما يعلم من ذلك، أي أنه تعالى علم دور كل عضو من أعضاء الأسرة في أسرته، ومقدار نفعه، وقيمة حظه من معاونة غيره، فقسم الفرائض على حسب علمه وحكمته وتقديره.

وهكذا كل حكم من الأحكام في هذه السورة أو في غيرها، إنما يستهدف

---

(١) ١٠ النساء.

العدل، ويقوم على العدل، وهذا أمر منطقي، وإلا لما شرع، ولما ألزم به الناس في شريعة العدل.

آيتان جامعتان من سورة «النساء» في العدل:

٣ – وقد جاءت آيتان متميزتان في سورة «النساء» تقرران مبدأ العدل:

احداهما قوله تعالى:

﴿ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل، إن الله نعما يعظكم به، إن الله كان سميعا بصيرا﴾(١).

وهذه الآية أصل جامع من أصول الحكم، فهي تقرر أولا وجوب أداء الأمانات الى أهلها، وكلمة «**الأمانات**» كلمة عامة شاملة: فالحكم بين الناس أمانة، لأن الله وسد للحاكم هذا المركز، وجعله أمينا عليه، ولذلك يعتبر خروج الحاكم عن مقتضى النصيحة والاخلاص للشعب غشا وخيانة، والولد عند أبيه أمانة، عليه أن يحسن حفظها، وأن يقوم على ما يصلحها، حتى يسلمه الى المجتمع وإلى نفسه قويا صالحا قادرا على حمل أعبائه، وأداء ما يؤديه مثله، والزوجة أمانة عند زوجها، وزوجها أمانة عندها، على أن الزوجية لها حقوق وواجبات، ولها قداسة، فمن فرط، أو خان، أو أفرط فقد جافى خطة العدل، والعلم أمانة، والمال أمانة، والتجارة أمانة، وهكذا كل من أوتي شيئا، أو جعل الله تحت يده شيئا، فهو حامل الأمانة، عليه أن يرعاها، ويصلحها، ويؤديها كاملة غير منقوصة.

ثم تقرر الآية أن الحكم يجب أن يكون بالعدل، وما الحكم إلا فرع من فروع الأمانة كما قدمنا، وأداء الأمانة يقتضي أن يكون على أساس العدل، ولكن لما كان الحكم يصحبه السلطان والنفوذ والقوة، وكان من شأن الانسان إذا قوي وتسلط وعظم نفوذه، أن يغريه ذلك اغراء قويا باتباع هواه، وأن يتعرض بذلك لمجافاة العدل في الحكم، لما كان الأمر كذلك، خصص الحكم بالعدل ـ الذي هو

---

(١) ٥٨ النساء.

أمانة من الأمانات ـ بوصية مستقلة زيادة في ابراز أمره، وتوجيه العناية اليه، ولأنه هو بذاته أساس تبنى عليه الحياة السعيدة في المجتمع، والحاكم فيه قدوة لغيره، وحارس على أمانات محكوميه، وقد ختمت الآية ببيان أن هذه الوصية، أو هذا الأمر إلهي، هو أمر بشيء عظيم له قيمته وخطره، وبأن الله تعالى هو الرقيب على تنفيذه، لأنه هو السميع البصير فلا يغيب عنه قول ولا فعل.

والآية الثانية من الآيتين المتميزتين اللتين تقرران مبدأ العدل في سورة النساء، هي قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين، إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا﴾(١).

وفي سورة «المائدة» آية شبيهة بهذه الآية هي قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾(٢).

وقد توافقت الآيتان في كثير من جزئيات هذا النداء الإلهي، وإن اختلف التعبير بعض الاختلاف:

فنرى الآيتين تطلبان من المؤمنين أن يكونوا «**قوامين لله**» أو «**قوامين بالقسط**» الذي هو العدل والتوازن.

على «القوامية» تبنى عظمة الأمم:

والقوام: هو المبالغ في القيام بالشيء، المضطلع به اضطلاعا قويا، فهو شديد الحرص عليه، شديد الوفاء له، شديد الغيرة على تمامه وصلاحه.

إن الناس قد يشتغلون بألوان من الأعمال، ويهتمون بكثير من الشؤون ويقومون بهذا وذاك قياما مألوفا لا يكلفهم انبعاثا خاصا، ولا يدفعهم الى بذل

---

(١) ١٣٥ النساء.

(٢) الآية ٨ من سورة المائدة.

جهود فوق العادة في سبيل تجويد أعمالهم واتقانها، ولكننا نصادف في الأمم وفي البيئات العامة أو الخاصة، أفرادا يكون اهتمامهم بأعمالهم وما أسند اليهم، أو ما أخذوا أنفسهم بالقيام به، اهتماما على نحو فريد له شأن يلفت النظر، ويثير الاعجاب، ويبشر بالخير والصلاح.

إن أمثال هؤلاء يفنون في أعمالهم فناء كليا، ولا يدخرون في سبيل اصلاحها وإتمامها سعيا ولا جهدا، ويغارون عليها غيرة شديدة تبعث فيهم نشاطا عجيبا، وجلدا غريبا، وصبرا يصبح مضرب الأمثال، ويبعث في غيرهم احتراما لهم ولعملهم، وهيبة من أن يقفوا في سبيلهم.

ترى الواحد من أمثال هؤلاء لا هم له إلا أن يحقق النجاح لما اضطلع به من شأن، ولا شيء في نظره يمكن أن يلويه عن ذلك أو يصده، فلا هو بالحريص على غنى أو مجد يناله، ولا هو بالضعيف عن عقبات أو صعاب تعترضه، ولا هو بالناكص على عقبيه إذا طال عليه الأمد، أو تعقدت بين يديه العقد.

هذا هو «القوام» بالشيء، وهذا هو الذي يطلب الله الى المؤمنين أن يكونوه له وللعدل، فهو يريد أن يكونوا «**قوامين لله**» «**قوامين بالقسط**» مضطلعين بهذا وذاك على نحو قوي ظاهر القوة، لا أن يكونوا صورا ضعيفة هزيلة، يرضون بأيسر الأمور، وأدنى الآمال، ولا يبذلون أكرم الجهود، ويتلمسون المعاذير عن ضعفهم وتخاذلهم. وهذا لون من ألوان التربية للشعوب، والعمل على إيجاد رأي عام قوي فيها كما يقول علماء الاجتماع، يكون مهيبا محترما، يوجه الى الخير العام الذي يصوره هذا التعبير البليغ الجامع: «**كونوا قوامين**»، فكل الناس مطالبون بأن يكونوا على هذه الصفة، ذوي شخصيات قوية، مضطلعة بما تضطلع به في ثبات قصدها، وهو باعثها، وهو ملهمها، وهو غايتها وعزم وشجاعة، واضطلاعها بذلك لله، فهو قصدها ـ عندئذ يكون الحاكم «**قواما لله**» «**قواما بالقسط**» ويكون المحكوم «**قواما لله**» «**قواما بالقسط**» ويكون الناصح كذلك، والمنتصح كذلك، والعامل كذلك، والموظف كذلك، كل في ما خوله الله، قوام لله، قوام بالقسط، وعندئذ تكون الأمة بناء قويا، من لبنات قوية، وتكون في حصانة من أن تهضم أو تهدم أو تهزم أو تظلم أو تهمل.

وقد اختلف التعبير بين آية «النساء» وآية «المائدة» في أول هذا النداء،

إذ تقـول سورة «النسـاء»: ﴿**كـونوا قوامين بالقسط شهداء لله**﴾ وتقول سورة «المائدة»: ﴿**كونوا قوامين لله شهداء بالقسط**﴾.

وفي هذا الاختلاف إيحاء بأن كلا منهما يصح أن يوضع موضع الآخر وأن «القوامية لله» هي «عين القوامية بالقسط» و «الشهادة لله» هي عين «الشهادة بالقسط »، ولا شك أن ذلك تنويه عظيم بشأن القسط والشهادة لله.

والشهادة بالقسط اظهاره للحاكم ليحكم به، وإظهاره من الحاكم بالحكم، فالحكـام مطالبون بأن يكونوا شهداء بالقسط، على معنى أن يظهروه ويؤيدوه ويحكموا به، والناس مطالبون بأن يكونوا شهداء بالقسط على معنى أن يدلوا به الى من ولوه حكمهم، وأن يظهروه عليه، ويؤيدوه فيه، ويرضوا به، ولا يخرجوا عليه.

القسط صمام الأمن في كل مجتمع:

والقسط صمام الأمن في كل مجتمع وهو في الحكم والشهادة والعقيدة والعمـل والحب والبغض وغيـر ذلك أسـاس الاستقرار والطمأنينة في الناس، فمـادام ميزانه صادقا، والأيدي التي تمسك به أمينة حفيظة، فالمجتمع بخير وسعـادة، وأما إذا اختل ميزانه، أو اعتل من وكل اليه أمره، فهنا الشقاء كل الشقـاء، وهنـا التزعزع أشد التزعزع، وهنا ضياع الثقة بين الناس بعضهم وبعض، وبين الحـاكمين والمحكومين، وهنا تربص كل فريق بصاحبه، وتحين الفـرص للايقـاع به، وهنا ـ لذلك كله ـ ضعف الأمة، وطمع أعدائها فيها، ثم انقضـاضهم عليهـا، ثم استعبـادهم لها ﴿**وما كان الله ليظلمهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**﴾.

العدل ميزان لا يتأثر بالحب ولا بالشنآن :

ثم ان سورة «النساء» تقول: ﴿**ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين**﴾ فتنهي عن ملاحظة عوامل التعصب للنفس، أو التحيز للقرابة، مما يبعث على تلوين العـدل بغير لونه، واعطاء المشهود له ما لا يستحقه، وذلك هو الاخلال بالعدل عن طريق محاباة النفس أو من تميل اليه النفس.

ويقابل هذا في سورة «المائدة» ﴿**ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا**﴾، وهو نهي عن ملاحظة عوامل الكراهية، ومن شأنها أيضا أن تلون العدل بغير لونه، وأن تحمل على التحيف وإضاعة الحق، وذلك هو الاخلال بالعدل عن طريق الاجحاف بصاحب الحق، والحيلولة بينه وبين الوصول الى حقه.

ثم نجد تقابلا آخر بين الآيتين في السورتين، ذلك أن سورة «النساء» تقول: ﴿**ان يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما**﴾ أي إن يكن المشهود له أو عليه غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما، فلا يكن غناه أو فقره مبررا الى الشهادة أو الاعراض عنها، وسورة «المائدة» تقول: ﴿**اعدلوا هو أقرب للتقوى**﴾ أي فالعدل أقرب للتقوى وإرضاء الله عن ملاحظة دواعي الكراهية والشنآن، ويتكون من هذا وذاك قاعدة: هي أن العدل يجب ألا يتأثر أو يتلون بمبررات عاطفية فيلاحظ فيه غنى غني، أو فقر فقير، أو كراهية عدو، أو محبة ولي، فإن العدل أقرب الى مرضاة الله، وأدعى الى تقبله سبحانه.

البغض في الله لا يبرر الانحراف عن العدل:

ولعل في آية «المائدة» اشارة الى الحالات التي يكون فيها الشنآن لله، لا لغرض شخصي أو دنيوي، فإن المكروهين ـ حتى لمثل هذا الغرض الشريف ـ الذين تقر الشريعة بغضهم، بل تأمر به، يجب أن يتمتعوا مع هذه الكراهية بالعدل وإيفاء الحق، فلو أننا وازنا بين المصلحة في إقامة العدل لهم، كما يقام لسائر الناس، وبين ما يتوهم من المصلحة في ظلمهم والحيف عليهم، انتقاما منهم، وضغطا عليهم بحجة أنهم أعداء الله، والخارجون على أمره، والمفسدون في أرضه، لوجدنا المصلحة الأولى أحق بالاعتبار، وأشبه بالسمو الذي يريده الله لبني الانسان وأقرب لتقوى الله، وأدنى الى تحقيق مرضاته، أما المصلحة الأخرى فليست بجانب هذه إلا وهما يخيله الشيطان ليفسد به العدل على المؤمنين، ويدس به عليهم، كيدا لهم وخداعا، وإيقاعا بهم وبمجتمعهم، على أن أمر الكراهية والشنآن غير منضبط، فكثيراً ما يظن الانسان أنه يكره أمرا لا يكرهه إلا في الله، والواقع انه يكرهه كراهة شخصية لسبب من الأسباب بدا

له أو خفي عليه، وليس من الحكمة أن تعلق العدالة بهذه العاطفة المتأرجحة غير المنضبطة، وإنما الحكمة كل الحكمة في أن تكون العدالة حرة مطلقة الحرية، محايدة لا تعرف المحاباة ولا الكراهية، ولذلك يمثلونها في هذا العصر شخصا معصوب العينين حتى لا يرى ما يتأثر به، وفي يده ميزان مستقيم.

هذه هي عدالة الاسلام التي يأمر بها القرآن، ولا يرضى إلا بها رب القرآن، والتي لا تعرف عدوا ولا صديقا، ولا قريبا ولا بعيدا، والتي تضع أمام الناس هذه الحقيقة الصادقة، إذ تثبت ميزان العدالة في أيدي الممسكين به، وتخوفهم من أن يلتووا به، أو يعتدوا على قدسيته، مع علم الله بهم، وخبرته التامة بأعمالهم، ﴿وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا﴾.

قضية فيها درس وعبرة:

٤ – وفي سورة «النساء» بعد هذا تسع آيات تتحدث عن قضية من القضايا عرضت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان فيها نوع من التآمر يراد به لفت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الحقيقة، وتحويله عن الحكم الصحيح.

وقد قدمنا بعض الكلام عن هذه القضية في الفصل الذي عرضنا فيه آيات السورة عرضا إجماليا، وهنا نزيد هذا الموضوع بيانا ليتجلى للقراء مدى اهتمام القرآن والاسلام عامة، بالعدل في القضاء:

١ – فأما الآيات التسع فهي قوله تعالى:

﴿إنا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما. واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيما. ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم، ان الله لا يحب من كان خوانا أثيما. يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم، إذ يبيتون ما لا يرضى من القول، وكان الله بما يعملون محيطا. ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة، أم من يكون عليهم وكيلا. ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله، يجد الله غفورا رحيما. ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه،

وكان الله عليما حكيما. ومن يكسب خطيئة أو اثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا، ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء، وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما﴾[1].

٢ – وأما قصة هذه القضية التي تتحدث عنها هذه الآيات فقد رويت في عدة روايات منها ما رواه الإمام البغوي في تفسيره «معالم التنزيل» حيث يقول: «روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: **﴿إنا أنزلنا اليك الكتاب بالحق . . .﴾** في رجل من الأنصار يقال له طعمة بن أبيرق من بني ظفر بن الحارس سرق درعا من جار له يقال له قتادة بن النعمان، وكانت الدرع في جراب له فيه دقيق ـ أو نخالة كما في رواية أخرى ـ فجعل الدقيق ينتثر من خرق في الجراب حتى انتهى الى الدار، ثم خبأها عند رجل من اليهود يقال له زيد بن السمين، فالتمست الدرع عند طعمة، فحلف بالله ما أخذها وما له بها من علم، فقال أصحاب الدرع: لقد رأينا أثر الدقيق حتى دخل داره، فلما حلف تركوه واتبعوا أثر الدقيق الى منزل اليهودي فأخذوها منه، فقال اليهودي: دفعها الي طعمة بن أبيرق، فجاء بنو ظفر ـ وهم قوم طعمة ـ الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسألوه أن يجادل عن صاحبهم وقالوا له: إنك إن لم تفعل افتضح صاحبنا، فهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يعاقب اليهودي[2].

وهناك روايات أخرى ذكرها القرطبي وغيره، ومنها رواية مطولة لابن اسحق ذكرها ابن كثير في تفسيره نقلا عن أبي عيسى الترمذي عند تفسيره هذه الآية من جامعه، وعن ابن جرير في تفسيره[3].

٣ – ويظهر من هذه الروايات انه كان هناك تبييت يدبر لصرف النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الوصول الى الحقيقة في هذه القضية، وكان مصدر هذا التبييت قوم طعمة بن أبيرق الانصاري الذي سرق الدرع، وأن القوم حاولوا

---

(١) الآيات من ١٠٥ الى ١١٣ من سورة النساء.

(٢) ٥٧٣ من الجزء الثاني من تفسير البغوي (طبعة المنار سنة ١٣٤٣ التي جمعت بين هذا التفسير وتفسير الحافظ ابن كثير).

(٣) ٥٧٤ من الجزء الثاني من تفسير ابن كثير (الطبعة المشار إليها).

استغلال عاطفة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حيث انهم مسلمون وأن الذي ألقوا عليه تهمة السرقة ليخلصوا صاحبهم منها، هو ذلك اليهودي المسمى بزيد بن السمين،وكأنهم ظنوا في أنفسهم أن الأمر عصبية دينية، وأن رسول الله ممن تأخذهم هذه العصبية في الحكم والقضاء.

الرسول إنما يقضي بما يتبين له حسب اجتهاده:

ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنما مال الى ما يقولون، وهم بعقوبة اليهودي لأنه رجح صدقهم، لإسلامهم وظنه فيهم الخير، والرسول صلى الله عليه وآله وسلم حين يقضي إنما يقضي بما يتبين له، ويترجح عنده بحسب الأحوال والقرائن والشهادات، فقد ثبت في الصحيحين عن هشام بن عروة عن أبيه عن زينب بنت أم سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سمع جلبة خصم(١) بباب حجرته فخرج اليهم فقال: «**ألا إنما أنا بشر، و إنما أقضي بنحو مما أسمع، ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته(٢) من بعض فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليحملها أو ليذرها**»، وروى الإمام أحمد بسنده عن أم سلمة قالت: «**جاء رجلان من الأنصار يختصمان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم في مواريث بينهما قد درست ليس عندهما بينة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنكم تختصمون إلي، و إنما أنا بشر، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، و إنما أقضي بينكم على نحو مما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار يأتي بها انتظاما في عنقه يوم القيامة» فبكى الرجلان وقال كل منهما: حقي لأخي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أما إذ قلتما فاذهبا فاقتسما، ثم توخيا الحق بينكما، ثم استهما(٣) ثم ليحلل كل منكما صاحبه**».

---

(١) الخصم: المخاصم، وقد يجيء للمؤنث والمثنى والجمع، ومن الأخير قوله تعالى «وهل أتاك نبأ الخصم اذ تسوروا المحراب» ٢١ سورة ص.

(٢) أي أقوى وأشد لها فهما، وعنها ابانة.

(٣) اقترعا لينال كل منكم نصيبا بالقرعة.

غير ان الله تعالى بين لرسوله الحق في هذه القضية، ونهاه عن معاضدة أهل التهم والدفاع عنهم والتقبل لما يقولونه عن خصومهم قبل تبين أنه حق، لا بمجرد إحسان الظن بهم، وحق المخالف في الدين كحق الموافق، كلاهما مصون محفوظ بالعدل.

وقد كانت هذه القصة موضع شرح وتعليق، وتأويل وتحقيق واستنباط لبعض المبادىء الأصولية، والأحكام القضائية، حتى شغلت المفسرين والأصوليين والفقهاء ورجال القضاء، والذي يهمنا منها الآن هو أن سورة «النساء» قد سجلتها، وجعلت منها حادثا تطبق فيه عدالة الاسلام، التي لا ترضى بأن يهضم اليهودي أمام المسلم، وأن تستكمل البينات، ويدقق في تبينها قبل الحكم على الناس، وأن الرسول مطالب بذلك من ربه، في هذا البيان القوي الجلي الذي لا يخلو من بعض اللوم والتثريب[1].

ولسنا في هذا المقام بصدد بيان القواعد والأحكام المستنبطة من هذه الآيات، فلذلك موضع آخر.

---

(١) بعض العلماء يجوزون الصغائر من الأنبياء، ويقولون في مثل هذه الآية: ان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لما هم بالدفع عنهم وقطع يد اليهودي، كان بذلك فاعلا ما يجب عليه الاستغفار منه فقال الله تعالى له: «واستغفر الله ان الله كان غفورا رحيما» وبعضهم يؤول تأويلا يناسب القول بعدم وقوع الذنب من الأنبياء أصلا.

٤

التضامن الاجتماعي العام

«مسؤولية الفرد عن نفسه وعن أفراد مجتمعه»

توحيد الله، والاحسان الى الناس:

١ - الآيات الرئيسية التي تتحدث عن مبدأ التضامن في سورة «النساء» هي قوله تعالى: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وبالوالدين إحسانا، وبذي القربى، واليتامى، والمساكين، والجار ذي القربى، والجار الجنب، والصاحب بالجنب، وابن السبيل، وما ملكت أيمانكم، إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا. الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل، ويكتمون ما آتاهم الله من فضله، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا، والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا. وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما. ان الله لا يظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما. فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا، يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا﴾[1].

فالله جل جلاله يأمر عباده أن يقيموا مجتمعهم على أساسين:

---

(١) الآيات من ٣٦ إلى ٤٢ من سورة النساء.

الأول: عبـادتـه وحده لا شريك له في التوجه والدعاء، ولا في التشريع بالتحليل أو التحريم.

وقد تقدم الكلام عن هذا المبدأ.

الثاني: أن يكونوا متضامنين متكافلين «**كالجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى**» كما صورهم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

صور الإحسان:

٢ - وقد أجملت هذه الآيات ما أمرت به في شأن هذا التضامن والتراحم في كلمة جامعة شاملة هي كلمة (الإحسـان) فقالت: ﴿**وبالوالدين إحسانا، وبذي القربى، واليتامى**﴾ . . . الخ .

والإحسان مرتبة فوق العدل، فإذا تعاملت مع الناس فأخذت منهم حقك وأعـطيتهم حقـوقهم، فقـد جريت على سنة العدل والمبادلة بالحق، ولكن إذا تجاوزت هذه المنزلة الى ما هو فوقها من الرفق والايثار، فقدمت لله ولاخوانك في المجتمع بعض حقك راضيا لتنفع به من هو في حاجة اليه، أو تقبلت منهم أقل مما لك لهـذا الغرض الشريف، فأنت تجري على سنة «الإحسان» والله يأمر بالعدل والإحسان.

وليس الاحسان هو تلك الصورة التي تطور اليها معنى اللفظ في مجتمعنا، وهي اعطاء الفقير المحتاج شيئا فحسب، وإنما هو أوسع دائرة من ذلك، فهو يشمـل كل نوع من أنـواع المعـاملة فيه سمو، وفيه بر، وفيه تطبيق لمبادىء الفضيلة، وإيثار للسلوك القويم.

للانسـان مع والديه نوع من المعاملة أساسه التكريم والرعاية، وحسن الأدب، ورد الجميل، ومكافأة العاطفة بالعاطفة، والصبر على ما عسى أن يكون لهما من متاعب أو أخطاء أو إساءات، فهذا هو الاحسان بالوالدين.

وللانسـان مع ذوي قربـاه نوع آخـر من المعاملة والمجاملة يقوم على أساس من الصلة والبر والمودة والتجاوز والغفران، فهذا نوع آخر من الاحسان.

وللانســان نوع من المعــاملة مع اليتامى يقوم على أساس من الرحمة واللطف ورقة القلب، وإدراك أن هذا اليتيم قد فقد من كان يحبه، ويمنحه الود صافيا، ويستعذب العذاب في سبيله، وأنه أصبح وحيدا في حياته يعاني آلام هذا اليتم، ويرى الأبناء من حوله يعانقون آباءهم ولا يرى له أبا يعانقه، فبهذا يرحمه، ويحبه، ويجعل رحمته إياه وحبه في مظهر كريم لا يجرحه، ولا يسيء الى عاطفته، ولا يشعره بأن هذا يفعل معه من أجل أنه يتيم.

فهذا نوع ثالث من الاحسان، وهكذا لكلٍّ أسلوب من المعاملة يليق به، ويشعر معه بأنه عضو ذو قيمة في المجتمع، وأن زملاءه في هذا المجتمع لم ينكروه، ولم يتنكروا له، ويحمله ذلك على أن يحب هذا المجتمع، وينزع من صدره ما جرت العادة بأن يكون في صدور المحرومين من حرج وضيق، أو من حقد وضغن.

والذي يقال في القريب، وفي اليتيم، يقال مثله وعلى هداه، في المسكين، وفي الجـار ذي القـربى، وفي الجار الجنب، وفي الصاحب بالجنب، وفي ابن السبيل، وفي ما ملكت الأيمان، كلٌّ له أسلوب يجب أن يعامل عليه، وكل له حقوق يجب أن ترعى، وأن تتحقق برعايتها صورة التضامن الاجتماعي كاملة واضحة جميلة.

ولهذا أجملت الآيات ما أوصت به الى هؤلاء جميعا في كلمة جامعة هي «الإحسان».

٣ – أما الذين أوصت بهم، وبأن يوصل اليهم المجتمع هذا الاحسان فقد استقصتهم استقصاء، وعنيت بأن تعدهم. وقد اختلفت الروايات التي جاءت بها كتب التفسير في المراد ببعضهم:

فقيل مثلا: الجار ذو القربى، هو الذي بينك وبينه قرابة، والجار الجنب هو الذي ليس بينك وبينه قرابة، وقيل: بل الجار ذو القربى هو الجار المسلم، والجار الجنب هو اليهودي والنصراني.

وقيل: بل الجار ذو القربى هو الزوجة، والجار الجنب هو الرفيق في السفر.

وكذلك اختلف في «الصاحب بالجنب» فقيل هو الزوجة، وقيل هو الرفيق في السفر، وقيل هو جليسك في الحضر، ورفيقك في السفر.

وكذلك تعددت آراؤهم في المسكين وفي ابن السبيل، وليس من سبيلنا أن نستقصي ذلك، فحسبنا أن نعلم أن هذه الآراء كلها تعين أعضاء في المجتمع يقع عليهم الاحسان الذي أمر به، وبذلك يتحقق ما يرمي اليه الاسلام من تضامن وتكافل.

تحذير المجتمع من مظاهر «الارستقراطية»:

وهي الاختيال والفخر والتعالي على الناس، ومن مظاهر «الأنانية» وهي: البخل والتبخيل، وكتمان النعمة، ومراءاة الناس.

٤ – ختمت الآية الأولى من هذه الآيات بقوله تعالى: ﴿**ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا**﴾.

والمختال: المتكبر.

قال أبو اسحق: المختال الصلف المتباهي الجهول الذي يأنف من ذوي قرابته إذا كانوا فقراء، ومن جيرانه إذا كانوا كذلك، ولا يحسن عشرتهم، ويقال: هو ذو خيلة أيضا.

قال الراجز:

يمشي من الخيلة يوم الورد بغيا، كما يمشي ولي العهد

وفي الحديث «**من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله اليه**» و «**بئس العبد عبد تخيل واختال**».

والعرب تقول: رجل أخائل، أي ذو خيلاء معجب بنفسه، ولا نظير له في الصفات إلا «رجل أدابر» وهو من لا يقبل قول أحد، ولا يلوي على شيء، و «رجل أباتر» وهو الذي يبتر رحمه ويقطعها[١].

والفخور: من كان كثير الفخر والتعالي على الناس.

وإنما ختمت الآية بذلك لأن الكبر والاختيال من عوامل غمط الحق[٢]، وبطر النعمة، كما ورد في بعض الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم،

---

(١) لسان العرب مادة (خيل).

(٢) غمط الحق جحده.

فالمتكبر يترفع عن مجتمعه ويرى أنه أعلى من أفراده، وأكبر من أن ينزل اليهم، أو يعطف على المحتاجين منهم، ولا يرى لأحد عليه حقا، وذلك أيضا بطر للنعمة، لأن النعمة يجب أن تشكر، وشكرها من جنسها.

فالله تعالى يحذر الناس من الكبر الذي هو عادة منشأ الظلم وغمط الحق، وبطر النعمة بعدم شكرها، والغفلة عن حقها.

ثم تعطف الآيات على هذا أوصافا أخرى مما يحول عادة بين الناس وإعطاء الحقوق، والقيام بواجب التكافل، فتذكر ﴿**الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله**﴾.

فالبخل خلق يمنع صاحبه من العطاء، ويجعله قابضا على ما معه، ممسكا به، حريصا عليه، ومن شأنه أن يفسد خلق صاحبه، وأن يجعله قاصرا عن التطاول والسمو إلى أية منزلة فاضلة، فهو أناني أثر منكمش ليست له في العادة ميول الاجتماعي، وإنما هو نفور من الناس، حريص على أن يظل منطويا على نفسه، مشغولا بجمع ماله، يخشى أن يتردد عليه الناس، أو يتردد عليهم، فيفجعوه في شيء من ماله الذي هو شقيق روحه، وقصارى همته.

هذا صنف من الناس تبتلى به المجتمعات فيكون عليها وبالا، ويكون على نفسه وبالا، وخلقه هذا هو مظهر من مظاهر المجتمعات المفككة التي غلبت عليها المادية والمصالح الشخصية، فترى كل فرد من أفرادها لا هم له إلا أن يجمع ما استطاع من المال والمنافع، وأن يحجز ما استطاع لديه فلا يبذله ولا يجود به، وكلما كثر أمثال هؤلاء في المجتمع، عجل عليه الفساد والانحلال، ثم أدركه الفناء والزوال، وليس الزوال والفناء دائما حسيين بمعنى الانقراض وضياع الأشخاص، ولكن قد يكون الزوال والفناء معنويين، فكم من أمم تعيش، وكم من مجتمعات تتحرك وتنشط، ولكنها في الواقع ميتة، قد أدركها من الموت الأدبي ما هو أشد من الموت الحسي، وفي بعض الأمثال: الدمار ولا العار.

ثم هذا الصنف عادة، وهو البخلاء المانعون، لا يكتفون بأن يبخلوا هم أنفسهم، حتى يأمروا الناس بالبخل، وذلك لأنهم لا يحبون أن يتقرر مبدأ العطاء والجود، حتى لا يعود ذلك عليهم بما يخافون، وحتى لا يكون هناك سبيل الى مطالبتهم، فهم يريدون البخل مبدأ متقررا في المجتمع كما هو مبدأ متقرر

عنـدهم، ولهذا نرى القرآن الكريم لا يكتفي بذم البخلاء، بل يذم أيضا الذين يأمرون الناس بالبخل، كما نراه لا يكتفي بأن يطلب الى الناس أن يكونوا معطين أجوادا،ولكن يأمرهم أيضا بأن يحضوا غيرهم على الاعطاء والجود،وذلك بإعلان الصـدقـات أحيـانـا، وبـأمر الناس بها أحيانا، وفي القرآن الكريم ذم للذين لا يحضون على طعام المسكين، قد أخرج على صورة تدل على أنه لون من ألوان التكذيب بيوم الدين، وذلك حيث يقول الله جل شأنه: ﴿**أرأيت الذي يكذب بالدين. فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين**﴾(١).

وتراهم مع هذا يكتمون ما آتاهم الله من فضله، ويتظاهرون بأنهم فقراء أو مدينون، أو مثقلون بتكاليف الحياة، ولهم دائما موقف الشكوى والتبرم وإنكار النعمة.

هذا هو موقف الباخلين، وهذا هو الذي يريد القرآن أن يحذر منه أفراد المجتمع، لأنه هو مدار اختلاله وانحلاله وهلاكه، وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أي داء أدوأ من البخل**» ويقول: «**إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم: أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا**».

وقـد أعقبت هذه الأصنـاف في الآيـة الكـريمة بقوله تعالى: ﴿**وأعتدنا للكـافـرين عذابـا مهينـا**﴾ وهـو إنذار ووعيد للكافر، ومن معاني الكفر الستر والتغطية، والبخيل يكفر النعمة، أي يسترها ويغطيها ولا يحب أن تظهر عليه، وجزاء ذلك عند الله هو عكس مقصوده، وذلك بأن يعذبه الله عذابا مهينا، فهو قاصـد أن يعـز بالمال، وأن يضمن كرامته باكتناز المال، فيعاقبه الله بنقيض مقصـوده، فيصبـح ماله سببا في إهانته وفي تعذيبه بالسقوط في المجتمع، وضياع المنزلة والكرامة وهذا خزي له في الدنيا وليس بمانع عنه العذاب يوم القيامة.

الجود بالمال:

وفي القرآن الكريم ثناء على الجود والايثار، يقابل هذا الذم للشح والكتمان

---

(١) من ١ إلى ٣ سورة الماعون.

والأثرة، وذلك في مواضع كثيرة منها قوله تعالى عن الأنصار الذين استقبلوا المهاجرين مرحبين أجوادا باذلين: ﴿**والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون**﴾(١).

٥ - وتذكر الآيات بعد هؤلاء صنفا آخر من المختالين الفخورين أفضى بهم اختيالهم وفخرهم الى خلق ذميم، كما أفضى هذا الاختيال والفخر الى البخل والكتمان.

هذا الصنف هم الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، فليس هؤلاء كالذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله، ولكنهم يبذلون ويجودون بالمال، غير انهم لا يقصدون من البذل والعطاء إلا الرياء والسمعة، فهم لا يؤمنون بالله رباً مجازياً على الحسنات، ولا يؤمنون بيوم الحساب، حتى يتجهوا الى طلب الثواب من الله، وكل ما يؤمنون به أن يظهروا في المجتمع بمظهر الباذل المنفق، وهؤلاء لا يكون انفاقهم وبذلهم مستقرا ولا باقيا بل يكونون فيه متزلزلين.

وقد دأب بعض الأغنياء على أن يقدموا بعض الهبات أو التبرعات، موافقة لبعض الحكام، أو اجتلابا للمنزلة عندهم، أو رجاء في إقرار أمر، أو الموافقة على منفعة لهم، فهؤلاء إنما ينفقون المال رئاء الناس، وقد شهدت بنفسي رجلا من الأغنياء، قدم ذات يوم «تحويلا» على أحد المصارف الى حاكم سابق ليعطيه تبرعا الى معهد علمي معروف، ثم تصادف أن هذا الحاكم خلع بعد أيام، فعاد يسترد تبرعه من الجهة التي تبرع لها دون أن يأخذه شيء من الحياء. فمثل هذا لا يبغي وجه الله، وإنما يبغي وجه الحاكم، فلما ذهب الحاكم استرد هبته، وفي حديث الثلاثة الذين هم أول من تسجر بهم النار ـ وهم: العالم، والغازي، والمنفق، المراؤون بأعمالهم ـ يقول صاحب المال يوم القيامة لله تعالى: ما تركت

---

(١) الآية ٩ من سورة الحشر.

من شيء تحب أن ينفق فيه إلا أنفقت في سبيلك، فيقول الله كذبت إنما أردت أن يقال جواد، فقد قيل.

٦ – وحسبنا هذا من تتبع ما ذكرته الآيات، وبيان ما ترمي اليه، فقد وضح انها تريد أن تبني مجتمعا متكافلا متضامنا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا.

ولكننا نورد بعض ما جاء في السنة المطهرة حثا على هذا المبدأ، وتطبيقا على مقتضاه:

السنة والتضامن الاجتماعي:

١ – يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره**».

وروى الإمـام أحمد بسنده عن أبي العالية عن رجل من الأنصار قال: خرجت من أهلي أريد النبي صلى الله عليه وآله وسلم فإذا به قائم ورجل معه مقبل عليه، فظننت أن لهما حاجة، قال الأنصاري: لقد قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى جعلت أرثي له من طول القيام، فلما انصرف قلت يا رسول الله لقد قام بك هذا الرجل حتى جعلت أرثي لك من طول القيام، قال: «**وقد رأيته؟**» قلت نعم. قال: «**أتدري من هو؟**» قلت: لا. قال: «**ذاك جبريل، مازال يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**» ثم قال: «**أما أنك لو سلمت عليه لرد عليك السلام**».

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**الجيران ثلاثة، جار له حق واحد، وهو أدنى الجيران، وجار له حقـان، وجار له ثلاثة حقوق، فأما الجار الذي له حق واحد، فجار مشرك لا رحم له، له حق الجوار، وأما الجار الذي له حقان، فجار مسلم، له حق الاسلام، وحق الجوار، وأما الذي له ثلاثة حقوق، فجار مسلم ذو رحم له حق الجوار، وحق الاسلام، وحق الرحم**»[1].

---

(١) راجع اسناد هذه الأحاديث في تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٤٣.

٢ - وقال عليه وآله الصلاة والسلام: «**إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو - أي قل زادهم - أو قل طعام عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد، فهم مني وأنا منهم**».

وقد علق أبو اسحاق الشاطبي في الموافقات على هذا الحديث فقال: «ذلك ان مسقط الحظ هنا قد رأى غيره مثل نفسه، وكأنه أخوه أو ابنه أو قريبه أو يتيمه أو غير ذلك ممن طلب بالقيام عليه ندبا أو وجوبا، وأنه قائم في خلق الله بالاصلاح والنظر والتسديد، فهو على ذلك واحد منهم، فإذا صار كذلك لم يقدر على الاحتجان[1] لنفسه دون غيره ممن هو مثله، بل ممن أمر بالقيام عليه، كما ان الأب الشفيق لا يقدر على الانفراد بالقوت دون أولاده، فعلى هذا الترتيب كان «الأشعريون» رضي الله عنهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «**فهم مني وأنا منهم**» لأنه عليه الصلاة والسلام كان في هذا المعنى الإمام الأعظم، وفي الشفقة الأب الأكبر، إذ كان لا يستبد بشيء دون أمته ... وهو نظر من يعد المسلمين كلهم شيئا واحدا على مقتضى قوله عليه الصلاة والسلام: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا**» وقوله: «**المؤمنون كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**» وقوله: «**المؤمن يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه**» وسائر ما في المعنى من الأحاديث، إذ لا يكون شد المؤمن للمؤمن على التمام إلا بهذا المعنى، وكذلك لا يكونون كالجسد الواحد إلا إذا كان النفع واردا عليهم على السواء، كل أحد بما يليق به، كما أن كل عضو من الجسد يأخذ من الغذاء بمقداره قسمة عدل لا يزيد ولا ينقص، فلو أخذ بعض الأعضاء أكثر مما يحتاج اليه أو أقل، لخرج عن اعتداله، وأصل هذا من الكتاب ما وصف الله به المؤمنين من أن بعضهم أولياء بعض، وما أمروا به من اجتماع الكلمة والأخوة وترك الفرقة، وهو كثير، إذ لا يستقيم ذلك إلا بهذه الأشياء وأشباهها مما يرجع اليها ...

وقد كان عليه الصلاة والسلام «أجود الناس بالخير، وأجود ما كان في شهر رمضان، وكان إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة» وقالت له

---

(١) احتجن المال: ضمه في نفسه واحتواه.

خديجة: «**إنك لتحمل الكل وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق**». وحُمِلت اليه تسعون ألف درهم فوضعت على حصير، ثم قام اليها يقسمها، فما رد سائلا حتى فرغ منها، وجاءه رجل فسأله، فقال: «**ما عندي شيء، ولكن ابتع عليَّ** - أي اشتر حاجاتك على حسابي دينا علي - **فإذا جاء شيء قضيناه**»، فقال له عمر: ما كلفك الله ما لا تقدر عليه. فكره النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالا، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعرف البشر في وجهه، وقال: «**بهذا أُمرت**».

الجود بالنفس:

وهكذا كان الصحابة ﴿**ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**﴾: إيثار بالملك، وإيثار بالنفس، وفي الصحيح أن أبا طلحة ترس على النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم أُحُد - أي جعل نفسه ترسا له يقيه من أن يصاب - وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتطلع ليرى القوم، فيقول له أبو طلحة: لا تشرف يا رسول الله يصبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك، ووقى بيده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فشُلَّت.

وهو معلوم من فعله عليه الصلاة والسلام، إذ كان في غزوه أقرب الناس الى العدو، ولقد فزع أهل المدينة ليلة فانطلق ناس قبل الصوت، فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم راجعا، قد سبقهم الى الصوت، وقد استبرأ الخبر على فرس لأبي طلحة عري - أي بدون ركاب - ولا زمام ولا ما يركب عليه من لين أو خشن - والسيف في عنقه - صلى الله عليه وسلم - وهو يقول: «**لن تراعوا**» وهذا فعل من آثر بنفسه، وحديث علي ابن أبي طالب في مبيته على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ عزم الكفار على قتله، مشهور، وفي المثل السائر «والجود بالنفس أقصى غاية الجود»[1].

---

(١) ص ٢٥٣ من الجزء الثاني من الموافقات لأبي اسحاق الشاطبي.

القتـال مظهـر من مظاهـر التضـامن الاجتماعي، قيمته كتضحية عظمى، وأهدافه، وآدابه:

٧ – وعلى هذا الأساس وهذا المبدأ، الذي هو التضامن والتكافل بين الفرد وشركائه في المجتمع، أمر المؤمنون بالقتال في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان، وجاءت آيات من سورة «النساء» تبين مشروعية القتال، وأهدافه، ومن الذين يقاتلون، ومن العدو الداخلي المثبط الذي يجب أن يحذروه وأن يحصنوا أنفسهم من كيده وفتنته.

وقد جاءت هذه التفاصيل ـ كما أشرنا من قبل في أربع وثلاثين آية من السورة، تبدأ من الآية الحادية والسبعين: ﴿**يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم**﴾ وتنتهي بالآية الرابعة بعد المائة: ﴿**ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليما حكيما**﴾.

فإذا نظرنا الى هذه الآيات من حيث ما جاءت به من المبادىء المقررة للتضامن، والتكاليف المنبعثة عنه، فإننا نجدها:

١ – تقرر أن القتال إنما هو تضحية بالنفس في سبيل الله، وبيع للحياة الدنيا في نظير ثمن وأجر عظيم يجب أن تتجه اليه أنظار ذوي الهمم العالية، والنفوس الشريفة، وهذا هو قوله تعالى: ﴿**فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة، ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما – ٧٤**﴾.

٢ – وتقرر ان القتال في سبيل الله له هدف انساني تضامني هو إنقاذ الضعفاء، وإقامة العدل بإنصاف المظلومين، وإشعارهم بأن لهم أولياء ونصراء في الله، لا يبتغون على ذلك جزاء ولا شكورا.

وهذا هو قوله تعالى: ﴿**وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها، واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا – ٧٥**﴾.

٣ – وتقرر على سبيل الموازنة بين أهداف المؤمنين وأهداف الكافرين من القتال، أن الأولين يقاتلون في سبيل الله ـ وسبيل الله كل فضيلة، وكل عدل وحق، وكل إنصاف وبر ـ أما الذين كفروا فيقاتلون في سبيل الطاغوت ـ والطاغوت كل

ميل وجنف، وكل جبروت وظلم، وكل سير مع الأهواء ودوافع الشر والإثم ـ كما تقرر على سبيل هذه الموازنة أيضا، أن المؤمنين قوة لأنهم يقاتلون في سبيل الحق أعداء الحق، أولياء الشيطان، فهم يقاتلون قتالا مكسوبا معروف النهاية، مضمون النصر، لأنهم هم الجانب الأقوى بالحق، وبالله، وأعداؤهم هم الجانب الأضعف بالباطل، وبالشيطان.

وذلك قوله تعالى: ﴿**الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت، فقاتلوا أولياء الشيطان، إن كيد الشيطان كان ضعيفا - ٧٦**﴾.

٤ – وتضع أمام المؤمنين عقيدة من شأنها أن تثبت قلوبهم، وتنفي عوامل الجبن والتزلزل عنهم، وهي عقيدة الايمان بالقضاء والقدر، وأن لكل انسان أجلا معلوما عند الله لا يعدوه، فلا يقدمه طعن أو نزال، ولا يؤخره جبن أو فرار: ﴿**أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة - ٧٨**﴾.

ويروى في ذلك أن خالد بن الوليد قال حين جاءه الموت على فراشه: لقد شهدت كذا وكذا موقفا، وما من عضو من أعضائي إلا وفيه جرح من طعنة أو رمية، وها أنذا أموت على فراشي ... فلا نامت أعين الجبناء».

وقديما قال زهير بن أبي سلمى الشاعر الجاهلي:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وإن يرق أسباب السماء بسلم

وهكذا يذكرهم القرآن بما يعرفونه، وبما يشاهدونه في الحياة من سنن الله.

المرجفون على المجتمعات:

٥ – وتحذرهم من المنافقين والمرجفين الذين لا تخلو منهم المجتمعات، ونراهم ـ ولا سيما في أوقات الخوف والحروب ـ يعملون على إحداث الفتن وبلبلة الأفكار دائما، ويشيعون قالة السوء عن أولي الأمر فيهم بالباطل، ويعتمدون في صنعهم هذا على الاشكالات النظرية، والأوهام الباطلة.

وذلك قوله تعالى: ﴿**وإن تصبهم حسنة**﴾ أي من خصب ورزق ورواج ﴿**يقولوا هذه من عند الله**﴾ أي لنا، وليس لك فيها فضل، ولا جاءت بسبب يمنك

ولا بحسن سعيك، ولا بسياسة راشدة منك **﴿وإن تصبهم سيئة﴾**من ضيق أو نقص من الثمرات أو نحو ذلك مما تجري به العادة بين الحين والحين في كل مجتمع **﴿يقولوا هذه من عندك﴾** أي بشؤمك، وبسببك، فقد اتبعناك فجر علينا أتباعك كل هول، ولو بقينا على ديننا ما أصابنا شيء من ذلك.

وهذه دائما أساليب الصنف المنافق في كل مجتمع، وهم الذين يدخلون في شيء من الأشياء ظاهرا وهم له كارهون، وعليه ناقمون، فيعملون على زلزلته بالارجاف وإثارة الشكوك والأوهام.

وفي مثل هؤلاء - وهم قوم فرعون - يقول القرآن الكريم: **﴿فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه، وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه﴾**(١).

ويقـول القرآن الكريم في أمثالهم عامة: **﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف، فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه، خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين﴾**(٢).

وقـد ردت عليهم آيـة «النساء» ردا مبطلا لتمويههم، وجاء هذا الرد من ناحيتين فرقت بينهما.

الناحية الأولى: ناحية استغلالهم لما يرد على المجتمع من خير ورواج، ومن نقص وضيق، وقد بينت في هذه الناحية أن هذا وذاك من عند الله، ومعنى كونهما من عنده لأنهما يتبعان سننه الكونية التي تقضي بأن تتداول الناس في الحيـاة أيام بؤس، وأيام نعيم، لا فرق في ذلك بين المؤمن والكافر، والصالح والفـاسق، ولا فرق في ذلك بين عهـد وعهد، فإن الرواج والكساد، والصلاح والفساد، كل ذلك منوط بسنن الله تعالى، غير ان لبعضه أسبابا في قدرة الناس، وأسبـابا ليسوا قادرين عليها، ولا مسيطرين تمام السيطرة على توجيهها، فقد يفلت منهم - باعتبـارهم بشرامحدودين - حساب قدروه، وقد تتعامل من وراء ظهورهم أو من حولهم عوامل خفية لا يدركونها، فتكون النتيجة أن يقع مرة خير، وأن يقـع مرة شر، ولا يمكن لانســان أن يزعم مهما كانت قدرته، ومهما كانت

---

(١) الآية ١٣١ من سورة الأعراف.

(٢) الآية ١١ من سورة الحج.

سياسته، أنه محيط بكل ما حوله، موجه لجميع الأسباب على ما يؤدي حتما الى الصلاح، ويدرأ حتما كل مظاهر الفساد، فالحكام، وأهل السياسة وأصحاب الاحصاء في كل ناحية معرضون للخطأ والصواب، وليسوا آلهة ولا أنبياء، فكل ما عليهم هو أن يخلصوا النصح لله ولرسوله وللمؤمنين، وألا يقصدوا إلا الى الاصلاح والخير ما استطاعوا، ويظلمهم الناس إذا رموهم حينئذ بالشؤم أو بسوء الرأي، ونسبوا اليهم السر في ما يصيب الناس أحيانا من الكساد، أو الفساد.

فهذا هو معنى قوله تعالى في هذا الشأن: ﴿**قل كل من عند الله**﴾.

المسؤولية الشخصية ـ كل نفس بما كسبت رهينة:

الناحيــة الثـانيــة: ما يتصل بتقرير مبدأ المسؤولية الشخصية وأن الانسان يجني ثمرات عمله، وعواقب سعيه.

ومن تأمل سنة الله في ذلك عرف أن كل عمل من الأعمال، انما هو كمقدمة من المقدمات التي تتبعها النتيجة، فإذا عمل الانسان السيئات كانت أعماله مقدمات لنتيجة من شأنها أن تتبع تلك المقدمات وهي أن يصيبه من الخسار بمقدار ما قدم من سوء، في الدنيا والآخرة، وإذا عمل الانسان الصالحات كان عمله كذلك مبدأ لما يناله من خير ونعمة.

ولكن الله تعالى وهو الرحيم بخلقه، العليم بأنهم ضعفاء قاصرون، لم تجر سنته بأن يحاسبهم على هذا وذاك حسابا دقيقا خاليا من الرحمة، وإن جاء على مقتضى العدل والتسوية، ولذلك نراه جل جلاله يغفر الهفوات وصغائر الذنوب، ويستر على المسيئين مرة بعد مرة، وكل منا يعلم بينه وبين نفسه أن الله تعالى لا يؤاخذه على كل ذنب فور وقوعه، بل يتركه وقتا ما، لعله يثوب الى رشده، ويرجع الى ربه، وربما تكرر هذا التأجيل أو هذا الستر الإلهي مرة بعد مرة، حتى يأتي وقت تقع فيه العقوبة، وتحصد فيه ثمرات السيئة، فيكون ذلك بكسب الانسان وجزاء لذنبه، فمن فضل الله تعالى أنه لا يوقع العقوبة على الذنب فورا في كل الأحيان، ولو أوقعها فورا، لكان ذلك على وفق العدل، ولكنه يستر حينا، ويغفر أحيانا على مقتضى الرحمة واللطف بعباده، وهذا هو ما تحدث به القرآن في موضــع آخــر حيث يقول الله جل شأنه: ﴿**وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت**

أيـديكم ويعفـو عن كثيـر﴾[١] وحيث يقـول سبحـانه: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بمـا كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾[٢] أي بجميع ما كسبوا، وحيث يقول جلت كلمته: ﴿ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى اليهم أجلهم﴾[٣].

والخلاصة: انه في جانب ما يفعله الانسان من ذنوب، وما يقع منه من أخطاء، نرى الله تعالى رحيما، كثيرا ما يمهل ويستر ويغفر، ثم يترك العبد بعد ذلك يحصد ما زرع، فالعبد إذن إنما يصيبه ما يصيبه من نفسه، أي بسبب من أخطائه وذنوبه.

وقد جاءت السنة بهذا كما جاء القرآن الكريم، ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**لا يصيب رجلا خدش من عود، ولا عثرة قدم، ولا اختلاج عرق، إلا بذنب، وما يعفو الله أكثر**» وقوله صلوات الله وسلامه عليه: «**والذي نفسي بيده لا يصيب المؤمن هم ولا حزن ولا نصب، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله عنه بها من خطاياه**».

أمـا في جانب عمـل الصـالحـات فقد جرت السنة الإلهية على تيسير اليسرى لمن توجه اليها، وهنا أيضا يعامل الناس بمقتضى الرحمة، لا بمجرد العدل، فإن الخير والنجاح اللذين يصيبهما من عمل الصالحات، لهما أسباب كثيرة، منها ما في قدرة العبد، ومنها ما ليس في قدرته، وذلك كمثل الزارع يزرع، ويسقي ما زرع، ولكنه يصادفه مع ذلك عقبات لا يستطيع تذليلها، فرحمة الله سبحانه وتعالى تتدخل في كثير من الحالات، وسننه تقضي بأن ييسر اليسرى، وبأن يوفق ويعين ويصلح، وبهذا يكون الفضل.

وإذن فالنجاح إنما هو بالتماس الأسباب والأخذ فيها بشرط أن يصاحبه التوفيق وتيسير الصعاب، وهذا إنما يكون بمحض الفضل الإلهي، ولذلك يقول

---

(١) الآية ٣٠ من سورة الشورى.

(٢) الآية ٤٥ من سورة فاطر.

(٣) الآية ١١ من سورة يونس.

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**لن يدخل أحدكم الجنة بعمله**. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته**».

والمراد هنا أن العمل وحده إنما هو بالنسبة للنجاح، وحصول الثمرات بعض المقدمات، لا جميعها، وباقي المقدمات هو من فضل الله وتيسير الله، وما يتغمد به عباده من إحسان ورحمة.

وهذه سنة الله في من يعملون الصالحات، فهو يعينهم، ويقويهم، ويهيىء لهم من أسباب الخير ما لا يعرفون، ويدبر لهم بلطفه، حتى يتم نجاحهم، وينالوا الخير والحسنات، وذلك الفضل من الله.

وقد عرف من القرآن الكريم أن الله تعالى يجزي على الذنب بمقداره، ويعفو عن كثير من الذنوب، بل يبدل الله أحيانا سيئات بعض عباده حسنات، أما من يعملون الصالحات فإنه يجزيهم على الحسنة الواحدة بعشر أمثالها، والله يضاعف لمن يشاء.

وإذن نصل الى تقرير ما قررته الآيات فنقول:

١ – كل ما يصيب الانسان من خير أو شر، فهو من عند الله خلقا وإيجادا وتقديرا على حسب سنته، لأنه تعالى لا يقع في ملكه إلا ما يريد.

٢ – وقد جرت سنته بأن يغمر عباده بفضله، فمن عمل صالحا يسره له، ودبر بلطفه ما يصلحه وينجحه مما يعلم من الأسباب ومما لا يعلم، فالنجاح الذي يدركه ليس مستندا الى مجرد العمل، ولكنه مستند كذلك الى التوفيق والفضل الغامر، فهو في الحقيقة من الله.

ومن عمل بعض السيئات فكثيرا ما يطاوله ويغفر له ويستره، فإذا عاقبه عاقبه بذنبه، وأحصده السيئة التي زرعها، فهي في الحقيقة منه.

٣ – وهذا هو الجمع بين قوله تعالى: ﴿**قل كل من عند الله**﴾، وقوله جل شأنه: ﴿**ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك**﴾.

ونعود الى السياق الذي كنا فيه من تتبع ما تقرره آيات القتال، فنقول:

طاعة الرسول، والرجوع الى أولي الأمر:

٦ – وتقرر أن طاعة الرسول من طاعة الله، لأن الرسول في الحقيقة

لا يأتي بشيء من عنده، وإنما هو مبلغ عن الله، أو مبين لحكم الله، أو مطبق ذلك على الحوادث والقضايا حسب اجتهاده بما يريه الله من الحق والمصلحة: ﴿**من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا - ٨٠**﴾.

٧ - وتقرر أن من واجب الكافة في المجتمع أن يرجعوا في أمورهم العليا، وفي ما يتصل بأمن المجتمع أو خوفه الى رؤسائهم وولاة أمرهم، فإنهم هم الذين يعلمون أسرار ذلك، ويستنبطون ما يصلحه.

وقد عرفت الأمم القوية، والمجتمعات التي تربي أفرادها على الصفات الحميدة، كيف تسير على هذا المبدأ، فترى الرأي العام فيها صبورا، قليل التبرم، يرجع الى أولياء الأمر في البلاد ما يقع من المشكلات والمعضلات، ويترك لهم أمر حلها، والتصرف في شأنها، وترى صحفهم تتلقى في ذلك التوجيهات من حكوماتهم وهيئاتهم المختصة، لئلا يخوضوا في الأمور خوضا يفسدها، وتراهم أبعد الناس عن إذاعة أخبار الأمن والخوف وحركات الجيوش ومواقعهم وأسلحتهم وما الى ذلك.

وهذه تربية اجتماعية مصدرها قوله تعالى إذ يعيب على المنافقين أخلاقهم، ويعدد مساوئهم، ويحذر المؤمنين من شرورهم وكيدهم: ﴿**وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به، ولو ردوه الى الرسول وإلى أولي الأمر منهم، لعلمه الذين يستنبطونه منهم، ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا - ٨٣**﴾ أي لأنصت كثير منكم الى ارجافهم وإذاعاتهم لأخبار السوء التي من شأنها أن تزلزل المجتمعات، وتعصف بسكينتها.

القتل العمد من أعظم الجرائم:

٨ - وتقرر عصمة دم المؤمن، فتقول: ﴿**وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ**﴾ وتقول: ﴿**ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما - ٩٢، ٩٣**﴾.

والسبب في تقرير السورة لهذا المبدأ، وهي بصدد أحكام القتال التي قررتها، أن هذا الأمر وقع في مجتمع المؤمنين، فقد روي أن أبا الدرداء ـ أو صحابيا آخر ـ قتل رجلا وقد قال كلمة الايمان حين رفع عليه السيف فأهوى

به اليه فقال كلمته، فلما ذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم قال القاتل: انما قالها متعوذا. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**هل شققت عن قلبه؟**».

حرمة القتل تأولاً واحتجاجاً بالنوايا:

وهنا ننبه الى أمرين:

أحدهما: إن هذا سمو عظيم بالمؤمن، وفيه توجيه الى أنه لا يجوز للمؤمنين أن يقتل بعضهم بعضا على التأول والاحتجاج بالنوايا، وبسبب الاختلاف في الرأي، أو في السياسة، أو في المذهب، أو نحو ذلك وهذا أصل كثيرا ما انحرف المسلمون عنه في تاريخهم، فكانت عاقبته وبالا عليهم، وكم سالت دماء بريئة بسبب العصبيات والخلافات مع أن الجميع مؤمنون متفقون على أصول الاسلام، وما به يكون الايمان، فإلههم واحد، وكتابهم واحد، ورسولهم واحد، وأهدافهم واحدة.

تغليظ الكفارة على قاتل الخطأ والعقوبة الأخروية على قاتل العمد:

الثاني: إن الآية الأولى من هاتين الآيتين قد رسمت في حال القتل الخطأ طريقة التكفير عن هذا الخطأ، والتعويض عنه، فأوحت بذلك أنه ليس خطأ هينا، وليس كسائر الأخطاء التي تمر بدون تغليظ على فاعلها، واصلاح لما اقترف، وإن الآية الثانية قد غلظت العقوبة الأخروية على قاتل العمد تغليظا شديدا، لم يعهد في غير هذه الجريمة من الجرائم، فذكرت جهنم، والخلود فيها، والغضب، واللعنة، وإعداد العذاب، وكون هذا العذاب المعد عظيما، وذلك لما في هذه الجريمة من هدم لبنيان بناه الله.

وفي ذلك يقول الزمخشري في الكشاف:

«هذه الآية فيها من التهديد والايعاد، والابراق والارعاد، أمر عظيم، وخطب غليظ»، ومن ثم روي عن ابن عباس ما روي من أن توبة قاتل المؤمن عمدا غير مقبولة، وعن سفيان: «كان أهل العلم إذا سئلوا قالوا لا توبة له، وذلك محمول منهم على سنة الله في التغليظ والتشديد وإلا فكل ذنب ممحو بالتوبة، وناهيك

بمحو الشرك دليلا، وفي الحديث: «**لزوال الدنيا أهون على الله من قتل امرىء مسلم**» وفيه: «**لو أن رجلا قتل بالمشرق، وآخر رضي بالمغرب، لأشرك في دمه**» وفيه: «**إن هذا الانسان بنيان الله، ملعون من هدم بنيانه**» وفيه: «**من أعان على قتل مؤمن ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه: آيس من رحمة الله**» والعجب من قوم يقرأون هذه الآية، أو يرون ما فيها، ويسمعون هذه الأحاديث العظيمة، وقول ابن عباس بمنع التوبة، ثم لا تدعهم أشعبيتهم[1] وطماعيتهم الفارغة واتباعهم هواهم، وما يخيل اليهم مناهم أن يطمعوا في العفو عن قاتل المؤمن بغير توبة: «**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**»[2].

وصاحب الكشاف يرد بذلك على الجمهور الذين يرون ان القاتل عمدا لا يخلد في النار.

وقد ثار في هذه المسألة عجاج، وطال فيها حجاج، وليست من المسائل العملية حتى نوليها اهتمامنا، وإنما يكفينا في الموضوع أن نتبين أن الاسلام يعتبر هذه الجريمة من أكبر الجرائم وأن هذا الاعتبار فيه للمجتمع ضمان أي ضمان للاستقرار.

٩ – ومن لواحق المبدأ السابق وما يترتب عليه، مبدأ آخر جاءت به الآيات حيث يقول الله عز وجل: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا، ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا، فعند الله مغانم كثيرة، كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا، إن الله كان بما تعملون خبيرا – ٩٤**﴾.

ومعنى ﴿**ضربتم في سبيل الله**﴾: سرتم مسيرا في غزوة أو نحوها من مصالح المسلمين.

ورووا في هذا الشأن: «ان رجلا من بني مرة بن عوف، يقال له «مرداس بن نهيك»، كان من أهل فدك مسلما، لم يسلم من قومه غيره، فسمعوا بسرية

---

(١) أي كونهم أشعبيين أي منسوبين إلى أشعب المعروف بشدة الطمع.

(٢) ص ٢٩٠ ج ١ من الكشاف الطبعة الأولى لمصطفى محمد ١٣٥٤ هـ.

لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تريدهم، وكان على السرية رجل يقال له «غالب بن فضالة الليثي» فهربوا وأقام الرجل ـ أي مرداس المذكور ـ لأنه كان على دين المسلمين، فلما رأى الخيل خاف أن يكونوا من غير أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم فألجأ غنمه الى عاقول من الجبل[١]، وصعد هو الى الجبل يراقب، فلما تلاحقت الخيل سمعهم يكبرون، فلما سمع التكبير عرف أنهم من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فكبر ونزل وهو يقول «لا إله إلا الله محمد رسول الله، السلام عليكم» فتغشاه أسامة بن زيد بسيفه فقتله واستاق غنمه، ثم رجعوا الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبروه، فوجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من ذلك وجدا شديدا.

وكان قد سبقهم قبل ذلك الخبر، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أقتلتموه إرادة ما معه**؟» ثم قرأ هذه الآية على أسامة بن زيد، فقال: يا رسول الله استغفر لي، فقال: «**فكيف بلا إله إلا الله**؟» قالها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث مرات، قال أسامة: فمازال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعيدها حتى وددت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم استغفر لي بعد ثلاث مرات وقال: «**أعتق رقبة**»[٢].

ويتبين من هذا أن هناك صلة بين ما جاء في الآيتين السابقتين من تحريم قتل المؤمن عمدا، ومن شرع الكفارة والدية في قتله خطأ، وبين ما جاء في هذه الآية، التي تقرر وجوب التبين والتثبت في أمر الناس.

ومن المعروف ان الغزاة الذين يسيرون في الأرض فاتحين قد يصادفهم أمثال هذا المؤمن الذي قتلوه ظنا أنه يتحرز عن القتل بدعوى الايمان ولفظ السلام، فالله تعالى ينهى عن ذلك، ويضع للمؤمنين خطة التبين قبل الاقدام، وألا يرفضوا من أعلن الاسلام والسلام، طمعا في تحقيق أي غرض دنيوي، فإن أغراض الدنيا لا ينبغي أن تحقق على حساب الدماء، والتعلل بالمعاذير.

---

(١) أي منعطف من الجبل.

(٢) تفسير البغوي (المطبوع مع تفسير ابن كثير) ص ٥٤٥ ج ٢.

فهـذا أيضـا مبـدأ من مبـادىء الرحمـة والتربية الانسانية والتهذيب الاجتماعي، يعلمه القرآن للمؤمنين.

١٠ – وقررت الآيات مبدأ الهجرة إذا كانت سبيلا الى العزة والتخلص من الاستضعاف والظلم، مع القدرة عليها، وذلك حيث تقول:

﴿ان الـذين توفـاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم؟ قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟ فأولئك مأواهم جهنم وسـاءت مصيرا. إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا. فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم، وكان الله عفوا غفورا. ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرة وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما﴾ ٩٧ – ١٠٠.

وليس من سبيلنا أن نتوسع هنا بشرح هاتين الآيتين الكريمتين تفصيلا، ولكن ننبه الى أنهما نزلتا في سياق نعي القرآن على المتخلفين عن الهجرة حين كانـت الهجـرة هي السبيـل الى عزة الاسـلام، وهي الوسيلة الى التقـوى والاستعداد لابطال كلمة الكفر، فقد وجد فريق ضنوا بأنفسهم وأموالهم وديارهم فلم يهاجروا، ولم يكن هذا الضن اعتزازا بأوطانهم، وثقة بأنهم سيبقون أقوياء فيهـا، لهم كرامتهم وعـزتهم، ولكنه كان خضوعا وتقبلا لما لا ينبغي أن يقبله المؤمن الحق من الاقامة على الضيم، والرضا بالذل، كان إيثارا للعيش الذليل المهين، على العيش الكريم، عيش الجهاد والنضال والتحول الى ديار ترسم فيها خطة العـودة الى الوطن، وتخليصـه من براثن المفسـدين والمبـطلين، ولذلك اعتبرهم القرآن ملومين ظالمين لأنفسهم، لأن الذي يقبل الذل ظالم لنفسه مبين، ومثلت لنا الآية الأولى من هاتين الآيتين صورتهم، وهم بين يدي الملائكة حين تحضرهم الوفاة، وقد عجلوا بلومهم وتعنيفهم قائلين لهم: فيم كنتم؟ استنكارا لمكانهم الذي كانوا فيه أذلة قابعين، فاذا اعتذروا بأنهم كانوا مستضعفين لم يقبلوا عذرهم، وزادوهم تأنيبا.

ثم نرى الآية بعد ذلك تستثني المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، فتفيدنا أنه لا ينبغي للمؤمن أن يسكت على ضيم، أو يقيم

على ذل الا اذا فقد كل حيلة، وانسد عليه كل سبيل، فانه حينئذ مرجو أن يعفى عنه ﴿**فأولئك عسى الله أن يتوب عليهم**﴾، وانظر الى هذا الاحتياط في العبارات التي عبرت بها الآية في هذا المجال، حيث تقول ﴿**لا يستطيعون حيلة**﴾ بهذا التعبير الدال على انتفاء أية حيلة، ﴿**ولا يهتدون سبيلا**﴾ بهذا التعبير الدال على انسداد كل سبيل، ثم باستعمال اسم الاشارة الخاص بالبعيد: ﴿**فأولئك**﴾ ثم باستعمال ﴿**عسى**﴾ الدالة على أن هذا أمر محتاج أن يقرب بالرجاء لبعده، ثم بالتعبير بقوله تعالى: ﴿**أن يعفو عنهم**﴾ وهو مؤذن بأنهم مع هذا أخطأوا، لأن الذي يعفى عنه هو الذي قارف الذنب، ولكن كان له عذر أو شبه عذر، ثم باثبات أن مرجع ذلك إلى أن الله ﴿**كان عفوا غفورا**﴾ أي كبير العفو، عظيم الغفران، كأنه يقول: لولا كبر عفوه، وعظم غفرانه، لما استطاعوا أن يتخلصوا من موقفهم الذي وقفوه.

فانظر - أيها القارىء الكريم - الى هذا الأسلوب، والى ما يوحي به من أهمية الهجرة في سبيل العزة والكرامة ونصرة الحق، ومن سوء مصير الذين يرضون بالذلة والاقامة على الضيم.

لا شك أن هذا بناء قوي لصرح العزة التي يريدها الله للمؤمن، ولا يحب أن يراه في غير مستواها الرفيع.

٥

الآيات المحذرة

أنواع المنافقين وأساليب نفاقهم:

كان للمجتمع الاسلامي بالمدينة اتصال بأنواع من المنافقين، كانوا يختلفون في أساليب حربهم للمؤمنين واقلاقهم، وان اتفقوا في الغرض وهو القضاء على الاسلام.

فكان بالمدينة جماعة يتظاهرون بالاسلام، ويبطنون الكفر، وكان لهم مهمة تدور حول اشاعة الشك في نفوس الناس، واشاعة الفوضى في المجتمع.

وكان بها اليهود، وناهيك بهم وبتاريخهم في الافساد والدس، وبما لهم من أخلاق السوء، وطبائع الخسة، وقد لقي منهم المسلمون بالمدينة كثيرا من ألوان الارجاف والصد عن دعوة الاسلام، والمؤازرة لأعدائها المشركين.

وأخيرا كان بمكة فريق من العرب يدعون الايمان وان لم يلحقوا بالمؤمنين الى دار الهجرة فكان لذلك اتصال بالمجتمع الاسلامي في المدينة من حيث المناقشة في أمرهم، وهل يعدون أخوانا للمسلمين، أو يعتبرون من المنافقين.

تحدثت سورة «النساء» عن كل هذه الأنواع، وبينت للمسلمين حقيقة كل

نوع، وأرشدتهم الى ما يجب عليهم أن يسلكوه معهم من الحذر والاعراض والتجنب.

المخذلون:

١ - تحدثت عن المنافقين الذين كانوا يهتمون بزلزلة أهل الايمان، ويثيرون أمامهم الشبه والأضاليل، ويوضعون خلالهم بالفتنة حين يخرجون الى ملاقاة أعدائهم، ويبطئون عنهم اذا عزموا الجهاد في سبيل الله.

فجاء في ذلك قوله تعالى:

﴿وان منكم لمن ليبطئن ، فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علي اذ لم أكن معهم شهيدا. ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن ـ كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ـ يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما﴾.

يختلف المفسرون في المقصودين بهذا، فمنهم من يقول انهم ضعفاء المسلمين وجبناؤهم، بدليل تحدثهم بنعمة الله عليهم اذ لم يصبهم ما نزل بغيرهم، ولأن الله تعالى يقول مخاطبا المؤمنين **﴿وان منكم﴾** فهم اذن من المؤمنين.

ومن المفسرين من يجزم بأن الحديث انما هو عن المنافقين، لأن ما ذكر عنهم لا يتفق وأخلاق أهل الايمان، ولو كان بهم ضعف أو جبن، فإن ما ذكره الله عنهم يرجع الى الشماتة بالمؤمنين اذا أصيبوا، والى حسدهم اذا فازوا، وقول القائل حين يراك قد وقعت في محظور «الحمد لله اذ لم أكن معك في هذا» فيه كثير من اللؤم، وفيه تعبير واضح عن معنى الشماتة والفرح بما أصابك، واللوم لك، والاشارة الى أنه كان محقا في موقفه حيث لم يصنع صنيعك، وهذا لا يليق أن يقابل به الأخوان من تصيبه منهم شدة، او تنزل به كارثة، وانما الذي يليق بالاخوان أن يواسي بعضهم بعضا، وان لا يذكر أحدهم للآخر ما يزيد في ألمه من اللوم وتسجيل الخطأ.

وأما ان الله تعالى يقول **﴿وان منكم﴾** فليس في الكلام إثبات أنهم من المؤمنين، وإنما يراد أنهم مواطنون لهم، مخالطون ممتزجون، يعيشون بينهم،

ويتظاهرون بالايمان، فمعنى ﴿وان منكم﴾ أي من بينكم، ومن المجتمع الذي تعيشون فيه.

وقوله تعالى ﴿ليبطئن﴾ وصف لهم بأنهم يخذلون الناس عن النهوض مع المؤمنين، وهو صالح أيضا لأن يكون وصفا لهم بأنهم يتباطأون، وذلك أن فعل «بطأ» يجيء لازما ومتعديا، فتقول: بطأ فلان في سعيه بمعنى بطؤ، وتقول: هو يبطيء الناس أي يدعوهم الى البطء، أو يحملهم عليه.

وذلك شأن المنافقين: يتباطأون في أنفسهم ويتثاقلون عن النهوض للجهاد، ويبطئون غيرهم عن ذلك، فشرهم لا يقف عند حدهم، ولكن يتعداهم الى الآخرين.

ثم يصفهم الله تعالى بأنهم «أنانيون» لا ينظرون في حالتي انتصار مواطنيهم أو انكسارهم إلا الى مصلحة أنفسهم التي فاتت فهم عليها يتحسرون، أو التي تحققت فهم بها مغتبطون.

الحرب بالشبه والأضاليل:

وجاء في هذا النوع من المنافقين أيضا قوله تعالى:

﴿ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية، وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا الى أجل قريب، قل متاع الدنيا قليل، والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا. أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة، وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك، قل كلٌّ من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا. ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك، وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا﴾[1].

وجاء في هذا النوع من المنافقين أيضا آيات من السورة هي قوله تعالى:

---

(١) الآيات من ٧٧ إلى ٧٩ من سورة النساء.

﴿إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا. بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما، الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة، فإن العزة لله جميعا. وقد نزل عليكم في الكتاب أن اذا سمعتم آيات الله يكفر ويستهزأ بها، فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره، إنكم إذا مثلهم، إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا. الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم، وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين، فالله يحكم بينكم يوم القيامة، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا. ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم، وإذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى، يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا. مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا. يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا. ان المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا. إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين، وسوف يؤتي الله المؤمنين أجرا عظيما. وما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما﴾(1).

وتتلخص الصفات التي وصفتهم بها هذه الآيات في ما يأتي:

تزلزل أهل النفاق:

١ - إن المنافقين دائما متزلزلون، فليس لهم ثبات على شيء، وذلك لأنه ليس في قلوبهم شيء حتى يستقروا عليه ويطمئنوا اليه، ويجاهدوا في سبيله، فهم متقلبون دائما بحسب الأحوال وما يعرض لهم من المطامع، ووصف الله تعالى إياهم بأنهم ﴿آمنوا ثم كفروا، ثم آمنوا ثم كفروا، ثم ازدادوا كفرا﴾ هو تصوير لما هم عليه من تقلب وتخبط، والمراد بكونهم «آمنوا» أنهم دخلوا مع

---

(١) الآيات من ١٣٧ الى ١٤٧ من سورة النساء.

المؤمنين في الظاهر، فلم يدخل الايمان في قلوبهم حقيقة، لأن من دخل الايمان قلبه، فقلما يخرج منه، لكن هؤلاء يترددون بين الكفر والايمان مرة بعد مرة، فلا يمكن أن يكون الايمان الحقيقي قد داخل قلوبهم وخالطها.

بواعث النفاق:

٢ - ان المنافقين مخلصون لأهل الكفر في الواقع بولائهم، ويؤثرون مصالحهم على مصالح أهل الايمان: ﴿**يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين**﴾.

وقد تساءلت الآية عن البواعث التي تبعث مثل هؤلاء الى هذا الالتواء عن الفطرة، وعن المنطق الطبيعي الذي يقتضي موالاة أهل الصلاح، لا أهل الفساد، تساءلت عن ذلك في عبارة واضحة فاضحة، تساؤلا كاشفا واصفا، علمنا منه انهم إنما يبتغون عندهم العزة، ويريدون أن يتخذوا لديهم أيادي تنفعهم وتشفع لهم ولو على حساب الحق والخير والصلاح وما دروا أن ذلك سعي غير حميد، وقصد لا يمكن أن يصل بصاحبه الى ما يريد، فإن العزة كلها إنما هي لله، وليس اتخاذ الأولياء ـ من المبطلين والمفسدين ـ من الله في شيء، فان الله هو الحق المبين، وإن الله لا يحب المفسدين.

ونحن ـ معاشر الشرقيين ـ قد ابتلينا بهذا النوع من الذين يبتغون العزة من غير سبيلها، ويرجون أن يقتنصوها من غير ميدانها، أو يستطلعوها من غير أفقها ـ بلينا بهذا النوع من المواطنين الذين لا يعيشون إلا على موالاة الأعداء ومصانعة الغاصبين لحقوقنا، العاملين على كل ما فيه ذلنا وموتنا، وإذا كان بعض المؤمنين منا قد عرف هؤلاء في بلد أو غيره من بلاد الاسلام، ونادوا في أقوامهم محذرين، فإن خطرهم مايزال ماثلا في الشعوب والدول، وإن علينا جميعا أن نفتح عيوننا لكي نراهم ونحذر منهم، كما حذر الله منهم سلفنا الأولين.

من مظاهر النفاق والاستهزاء بالدين:

٣ - من مظاهر النفاق اتخاذ آيات الله هزوا، وهؤلاء المنافقون من دأبهم أن يكفروا بآيات الله ويستهزئوا بها، وقد سبق للقرآن الكريم في غير هذه السورة

مما أنزله الله بمكة، أن حذر المؤمنين من مجالسة هؤلاء والاقبال على حديثهم، أو الرضا به، فإن ذلك مشاركة في المنكر والكفر، وتشجيعاً للذين يخوضون في آيات الله، وذلك قوله تعالى في سورة «الأنعام» المكية: ﴿**وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره، وأما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين**﴾[1]. وهذه الآية هي المقصودة في آية «النساء» التي معنا وهي قوله تعالى: ﴿**وقد نزل عليكم الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها، فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذن مثلهم**﴾، فالذي جاء هنا تذكير بما أنزل الله من قبل في آية «الأنعام».

وجوب مقاطعة المستهزئين بآيات الله:

وهذا تحذير نافع لأفراد المجتمع ولا سيما ذوي الشأن منهم فيه، فقد جرت العادة ألا يخلو مجتمع من المنافقين أو أهل العبث والمجون، فيحاول هؤلاء أو هؤلاء اتخاذ قضايا الايمان والحق والاصلاح هزءا وسخرية، إما بدافع الحقد على أصحابها، وإما كراهية لأن تستقر في المجتمع مثلها وأهدافها، وإما انسياقا مع رغبة اللهو والعبث والمجون التي تقوم عليها مجالس البطالين والفارغين، فإذا جالسهم على ذلك رجل أو رجال محترمون، كان ذلك تشجيعا لهم، وكان ذلك غير لائق به، فإن لصاحب الحق والمبدأ غيرة على حقه، وغضبا على من يريد انتهاكه أو السخرية منه، ولو ان كل صاحب حق مؤمن به، وقف لأمثال هؤلاء بالمرصاد، أو أعرض عنهم وهجرهم على الأقل، لوجدوا أنفسهم مسيئين، وأحسوا بأن الناس عنهم غير راضين، فكفوا عن خوضهم ولهوهم. والواقع أن إعراض الكريم هو من أفضل أساليب الانكار، لأنه ـ وإن كان سلبيا ـ يتضمن أن صاحبه محتقر لأهل الفساد، مستصغر شأنهم الى درجة أنه لا يحدثهم، أو أنه يائس من أن ينتصحوا فهو لا ينصحهم، بل يؤثر أن يتركهم ويبتعد عنهم، وهذا الانكار السلبي هو المعروف في المجتمعات الآن

---

(١) الآية ٦٨ من سورة الأنعام.

«بالانسحاب» من الجلسات ونحوها، وإنما يكون هذا «الانسحاب» حين يشعر عضو من الأعضاء بأن الأمر قد خرج الى حالة لا يجدي فيها الدليل والنصح والملاينة.

فهذا الأدب القرآني أصل في ذلك، وهو تربية للأمة، وسبيل الى تكوين رأي عام مهيب فيها، يخافه المبطلون، ويحسب حسابه المفسدون، والله تعالى يقول في شأن من يرضى بمثل ذلك، ولا يقاومه ولو بمجرد الاعراض عنه ﴿**انكم إذن مثلهم**﴾ أي انكم إذا شاركتموهم في هذه المجالس، مع هذا الخوض في الآيات والاستهزاء بها، تكونون مثلهم، فإن الساكت على الباطل شريك فيه ﴿**ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار**﴾.

وفي الحديث الشريف: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر**».

وفي رواية عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ان الرجل من بني اسرائيل كان اذا رأى أخاه على الذنب نهاه عنه تعذيرا، فإذا كان من الغد لم يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وخليطه وشريكه، فلما رأى الله منهم ذلك ضرب قلوب بعضهم على بعض ولعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى بن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون**».

تحقيق ان الآية ليست منسوخة:

بقي أن ننبه هنا على أمر يتعلق بهذه الآية، وهو ان مقاتل بن حيان يرى أن آية «الانعام» نسخت جزءا من آية «النساء»، وذلك ان الله تعالى يقول في سورة «الأنعام» بعد ما تقدم: ﴿**وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكرى لعلهم يتقون**﴾، وهذا يفيد ان المؤمنين لا يضرهم ما يفعله المنافقون من الخوض في آيات الله، وآية «النساء» تقول: ﴿**انكم اذن مثلهم**﴾

وهذا يفيد ان المؤمنين لا يضرهم فعل المنافقين، فقد وجد بين الآيتين تعارض، فخرج منه مقاتل بأن آية «الأنعام نسخت آية «النساء»[1].

وهذا غير مقبول لأمرين:

أولا: لأن آية «الأنعام» سابقة، وآية «النساء» لاحقة، وهذا واضح من أن الأولى مكية، والثانية مدنية، ومن أن آية «النساء» تشير الى آية «الأنعام» حيث تقول: ﴿**وقد نزل عليكم في الكتاب**﴾كما بينا، وإذن فلا يصح أن يحكم بأن المتقدم ينسخ المتأخر.

وثانيا: لأنه لا تعارض في المعنى بين قوله: ﴿**انكم إذن مثلهم**﴾ وقوله: ﴿**وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء**﴾ فإن كلا منهما قضية مقيدة بحال غير حال الأخرى، فالأولى تقول: ﴿**انكم إذن**﴾، أي في حال قعودكم معهم وعدم اعراضكم عنهم، والثانية تقول: ﴿**وما على الذين يتقون**﴾ والذين يتقون تمنعهم تقواهم من حضور مجالس الذين لا يتقون، فكل من الآيتين في ناحية مقابلة للأخرى، فلا تعارض.

وإذن فلا نسخ.

وقد روي أيضا عن الكلبي ان قوله تعالى في سورة «النساء» ﴿**فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره**﴾ نسخ بقوله تعالى: ﴿**وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء**﴾ لأن الأول يفيد النهي عن القعود معهم، والثاني يشير الى جواز القعود، لأنه لا شيء من حساب المنافقين الخائضين على الذين يتقون.

وهذا أيضا غير مقبول لما قدمنا في القول الذي قبله.

وينبغي التوثق والاحتياط في دعاوى نسخ القرآن، فإن ذلك باب دخل منه كثير من الخلط، بسبب التوسع في مفهوم النسخ، أو اختلاف الاصطلاح فيه.

المنافقون انتهازيون:

٤ – والمنافقون قوم انتهازيون، يقوم نشاطهم في الحياة على أساس

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ص ٦٠٧ ج ٢.

استغلال كل حادث يحدث في المجتمع، والتربص للفرص ومحاولة الانتفاع بكل ما يسنح منها، وترى لهم قدرة على تخريج مواقفهم، والتبجح في تفسيرها وتأويلها بما يتفق والحوادث، فهم يقولون للمؤمنين اذا نالهم من الله فتح ونصر: ﴿**ألم نكن معكم؟**﴾ ألم نشارككم الضراء، ألم نترك أهلينا وقومنا لنعيش بينكم، ونقوي جمعكم؟

فإذا دارت الدوائر على المسلمين وكان للكافرين نصيب من الغلبة والقوة قالوا لهم: ﴿**ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين**﴾ والاستحواذ على الشيء: الاستيلاء عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿**استحوذ عليهم الشيطان**﴾(١) أي ملك عليهم أمرهم، فهؤلاء يتوددون الى الكافرين ويقولون لهم: اننا كنا مستحوذين على أمركم، أي مالكين له، قادرين على التصرف فيه، فما تصرفنا إلا بما فيه مصلحتكم من تخذيل المؤمنين عنكم، ومن إفشاء أسرارهم اليكم، ومن ترويج الفتن فيهم، فأفدتم من ذلك هذه الغلبة وهذا الانتصار، فنحن شركاؤكم فيه، وهكذا يتعاملون على الفريقين، وينتهزون الفرصتين، ويتوقحون في هذا وذاك، دون حياء، ولا اعتداد بوفاء.

مخادعون ومراؤون:

والمنافقون لا يقفون في خلق المخادعة عند حد، حتى انهم ليرتكبون في جانب المؤمنين ما يرتكبون وكأنهم يظنون أن أمرهم يروج على الله كما يروج على الناس ﴿**والله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء**﴾ وهو يعلم السر وأخفى، ولكنهم قوم جاهلون مردوا على النفاق والخداع، والله خادعهم، أي غالبهم، وراد عليهم خداعهم ومجازيهم به، وهذا هو قوله تعالى: ﴿**إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم**﴾ وهو مثل قوله تعالى: ﴿**يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء إلا انهم هم الكاذبون**﴾(٢).

---

(١) الآية ١٩ من سورة المجادلة.

(٢) الآية ١٨ من سورة المجادلة.

تحقيق المراد بقوله تعالى: ﴿ولا يذكرون الله إلا قليلا﴾.

٦ – والمنافقون يتكلفون العبادة مراءاة للناس بها، ولكنهم مفضوحون في هذا التكلف، تبدو عليهم آثاره، وتكشف عن بواطنهم مظاهره **﴿وإذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى، يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا﴾**.

وقد اختلف المفسرون في المراد بأنهم لا يذكرون الله إلا قليلا، ففسره بعضهم بعدم الخشوع فيها، وفسره بعضهم بأنهم يسرعون في أدائها، وأيدوا ذلك بقوله صلى الله عليه وآله وسلم ـ في ما رواه الإمام مالك عن العلاء بن عبد الرحمن عن أنس بن مالك ـ : «**تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا**» وفسره بعضهم بغير ذلك.

وعندي ان المراد بقوله جل ذكره: **﴿ولا يذكرون الله الا قليلا﴾** الصلاة نفسها، فهو يصفهم بأنهم إذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى، وهم مع ذلك لا يأتون الصلاة إلا قليلا، لأنهم إنما يأتونها رياء، فإذا رآهم أحد صلوا، وإلا تركوها وضيعوها، وقد يسمي القرآن الصلاة ذكرا، كما جاء في قوله تعالى:

﴿ قد أفلح من تزكى، وذكر اسم ربه فصلى﴾(١). وقوله تعالى: **﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين. فإن خفتم فرجالا أو ركبانا، فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾**(٢) ففي الآية اشارة الى صلاة الخوف، وصلاة الأمن، وأصرح من هذا قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع﴾**(٣) فذكر الله هنا هو الصلاة كما هو واضح.

---

(١) الآيتان ١٤، ١٥ من سورة الأعلى.

(٢) الآيتان ٢٣٨، ٢٣٩ من سورة البقرة.

(٣) الآية ٩ من سورة الجمعة.

٧ ـ والمنافقون دائما متحيرون لا يستقرون على حال، تراهم «مذبذبين» والذبذبة: الاضطراب والحركة في جهتين متقابلتين، وهذا في الواقع عذاب لهم في الدنيا، قبل عذاب الآخرة، فهم في الدنيا لا يجدون لهم سبيلا، وسرعان ما ينكشف أمرهم ويفتضحون، فيتوقاهم جميع الناس، ويتواصون باجتنابهم والبعد عنهم، فيعيشون في أحط منزلة معنوية في الدنيا، وهم في الآخرة في الدرك الأسفل من النار.

تلك هي الصفات التي وصف بها هذا النوع من المنافقين الذين تحدثت عنهم سورة «النساء»، ولا شك ان تحديد هذه الصفات منسوبة الى اصحابها والمتصفين بها، مع بيان انهم ممقوتون عند الله والناس، وان الله أعد لهم أشد العذاب، وجعلهم والكافرين في جهنم، وجعلهم في الدرك الأسفل منها، كل ذلك من شأنه أن يحذر الناس من خلقهم، ومن شرهم، وأن يعطي المجتمع نوعا من الحصانة الخلقية، والتربية العالية المهذبة ظاهرا وباطنا.

والواقع انه ليس في المجتمعات ما هو أضر عليها من النفاق، وانه اذا شاع في أمة، وفشى في أفرادها وجماعاتها، كان لها نذير سوء، بل نذير فناء.

٢ – وكما تحدثت سورة «النساء» عن هذاالنوع من المنافقين بالمدينة، تحدثت عن نوع آخر هم المنافقون من اليهود.

ومن المعروف ان المدينة كانت تضم كثيرا من اليهود، وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه لاقوا منهم كثيراً من العنت وطاولوهم كثيرا لعلهم يفيئون الى ما هو أجدر بهم كأهل كتاب سماوي، من مؤازرة النبي، وتقبل دعوة الاسلام، ولكنهم ما كانوا يزدادون إلا تمردا وعصيانا، حتى حكم الله بحكمه فيهم، فأجلوا عن المدينة صاغرين.

ويحسن بنا أن نضع أمام القارىء صورة تاريخية تمثل تمرد هؤلاء وألوان نفاقهم وعتوهم، ومحاربتهم للدعوة الاسلامية، وارجافهم عليها وعلى رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بألوان باطلهم، كما تمثل جهاد المسلمين لهذا العدو المداخل لهم، المتغلغل في اعماقهم، وما كان القرآن يقابل به ترهاتهم وشبههم،

ويفضح به نواياهم السيئة، فإن هذه فترة من أشد الفترات التاريخية على الاسلام، ولولا ان الله تعالى أيد رسوله بنصره، وحمى دعوة الحق بفضله ورحمته، لكان من الجائز أن يتغير وجه التاريخ عما هو عليه الآن، ولكن الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿**يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون**﴾[1].

وإليك هذه الصورة من صور النضال العنيف الذي قوبلت به دعوة الاسلام في المدينة على أيدي اليهود.

---

(١) الآية ٣٢ من سورة التوبة.

موقف اليهود
من الدعوة الاسلامية(*)
وموقفها منهم

نضال الدعوة مع المشركين في مكة:

١ - هاجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنون، من مكة الى المدينة بعد نضال شاق مع المشركين، طال أمده ثلاث عشرة سنة، واحتملت فيه دعوة الحق ألوانا من المكاره والايذاء والاضطهاد، وهي الدعوة الواضحة البيضاء التي لا تدق على العقول، ولا تعزب عن الافهام، ولكن أحدا لم يكن يتوقع أن يلاقي المشركون الدعوة الاسلامية إلا بما لاقوها به من النضال المر، والمعارضة الشديدة، لأنهم وثنيون لا عهد لهم بكتاب من قبل رقت به قلوبهم، أو تهذبت نفوسهم، أو سمت عقولهم، ولأنهم أميون لا يقرأون ولا يكتبون، وقد انقطعوا في بقعة من الأرض بعيدة عن المدنية والحضارة، لا يكاد أحد منهم يتصل بأحد من أبناء الأمم الأخرى إلا قليلا ممن كانوا يرحلون للتجارة رحلات محدودة، ولأن سادتهم وكبراءهم الى جانب ذلك كانوا يدركون ما سيجره عليهم انتصار الدعوة الاسلامية من شر، وما ستحدثه فيهم مبادئها من انقلاب يسوي

(*) بعض هذا البحث مقتبس مما كتبناه في سورة المائدة ونشر بمجلة «رسالة الاسلام» المجلد السابع ص ١٢١.

بين السادة والعبيد، وبين الأقوياء والضعفاء وبين المسلطين والمسخرين، ويقيدهم في مجتمعهم الذي كان طلقا من كل قيد، إلا من تقاليد بالية موروثة، بعضها حسن وبعضها قبيح.

كل ذلك كان يوحي بأن القوم لا يمكن أن يذعنوا للدعوة الجديدة من قريب، ولا أن يتقبلوها بيسر فيفتحوا لها قلوبهم، ويوسعوا صدورهم.

فلسنا مبعدين إذا قلنا: ان موقفهم من الاسلام كان مفهوما، وإن كان منكرا، وكان طبيعيا في بيئة مثل بيئتهم، لأن الناس أعداء ما يجهلون، أصدقاء ما يألفون، أشحاء بما يملكون.

٢ - ولا ينبغي أن يفهم أن هذه المرحلة من مراحل الدعوة الاسلامية قد طالت أكثر مما يجب، أو ان الجهود فيها قد ذهبت ضياعا، فإن الصبر والمثابرة، هما أعظم سلاح يشهر في وجه المكابرة، ولا بد أن يوطن المصلحون أنفسهم على أن يسيروا في أول خطواتهم في بطء وتثاقل، حتى ليخيل للناس أحيانا أنهم واقفون، ولا بد لهم من أن ينظروا الى الزمن نظرة فيها كثير من التسامح، فإنهم يجرون من خلفهم أجيالا وأزمانا متطاولة مثقلة بالتقاليد العتيقة، والأخطاء المتركبة المتراكمة.

وقد أفادت الدعوة الاسلامية من هذا البطء - ومن أراد الدقة في التعبير فليقل: أفادت من الأناة والصبر - فقد تجلت مثل من البطولة، والثبات على المبدأ، والعزوف عن المغريات والمعوقات في سبيله، من ألوان الرغبة أو الرهبة، وشهدت هذه البيئة المتخلفة - إلا في نواحي الشر والفساد - نوعا من السمو الانساني لم تكن تعرفه، وأصبحت أنباؤها وأنباء الدعوة المنبثقة فيها، وأنباء نضالها وكفاحها، وتعثرها حينا وانطلاقها حينا، وهذا العذاب الذي يعذبه أصحابها وحملة لوائها - أصبح كل ذلك زادا جديدا من الأخبار، يصل الى البلاد التي لم تكن تسمع من قبل إلا أخبار الثأر والفتك، والسلب والنهب، والحروب الهمجية، والنزوات البهيمية، والعصبيات القبلية.

الأمل في التعاون مع اليهود باعتبارهم أهل كتاب:

٣ - كانت أخبار هذا النضال بين التوحيد والوثنية، وبين التحرير والاستعباد، وبين الأخذ بيد الانسان الى ما ينبغي له من سمو وكمال - بالايمان

والمعرفة والبر والعمل الصالح ـ وما تريده عليه التقاليد الموروثة من البقاء في ظلمات الجهل والخمول واستغلال الأقوياء والمسلطين ـ كانت أخبار هذا النضال تسري في العالم شيئا فشيئا، وكانت تصل الى كثير من الآذان، فتتفتح بعض القلوب الى دعوة الحق، متقبلة اياها على البعد، معجبة بما يبدو على أصحابها من البطولة المتمثلة في الصبر، والمثابرة، والاستمساك، وكانت هذه الأخبار تسري الى «يثرب» على وجه خاص، حيث اليهود هناك، وهم أهل كتاب يدعو الى التوحيد، وأتباع نبي مرسل كان يناضل الوثنية في عهد الفراعنة، وأصحاب شريعة ترسم للناس منهاجا معينا في الحياة، وتدعوهم الى الأخذ به في قوة، وقد كانوا يعرفون من كتبهم أمر هذا النبي الجديد، وأوصافه، وكانوا يستفتحون به على الذين كفروا، فهم يتلقون أنباءه، ويتمثلون صور النضال بينه وبين الوثنيين في مكة، ويستحضرون بها ذكريات نضال نبيهم موسى عليه السلام، فكان ذلك كله فائدة لدعوة الاسلام، وتمهيدا يتطلع معه الى يوم مقبل، هو يوم التعاون بين أصحاب الدعوة الجديدة، وأصحاب الدعوة القديمة، على تحقيق الغرض المشترك الذي هو توحيد الله وتقبل هدايته، والقضاء على العدو المشترك الذي هو الوثنية واتباع الأهواء.

٤ – وكان التطلع الى هذا التعاون يملأ قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكانت الآمال في هذا الشأن تراوده، فإن المطلع على سيرته يجده على كثير من الانس بهذا المعنى، ويرى كثيرا من تصرفاته ينظر اليه ويستهدفه، ولم يكن هذا المعنى في نفس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خاصا باليهودية، وإنما كان يراوده في شأن اليهودية والنصرانية جميعا، وله في كلتا الناحيتين شواهده وإماراته.

وكان التطلع الى التعاون يراود نفوس اليهود أيضا، ولكن على نحو آخر، وبنية أخرى.

تبادل المودة بين المسلمين واليهود أول العهد بيثرب:

٥ – رأى اليهود رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدخل المدينة حاملا راية الدعوة الجديدة، وقد سبقته اليها سيرة عطرة، وأخبار تدل على الصدق،

والرغبة الصحيحة في مبادىء الحق، ورأوه وقد استقبله أهل يثرب هذا الاستقبال التاريخي الرائع الذي اشترك فيه رجالهم ونساؤهم وأطفالهم، ففكروا في أمر، ولم يكن هذا الأمر الذي فكروا فيه أن يدخلوا في الاسلام، أو يؤازروه ابتغاء مرضاة الله، ولكنه كان أن يحاولوا استدراج هذا الرسول اليهم، واستمالته الى حلفهم ليستعينوا بذلك على تأليف قوة في جزيرة العرب يقاومون بها النصارى الذين أجلوهم عن «فلسطين» لذلك اشتركوا في الترحيب بالرسول، وإظهار المودة له، وقد قابل رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ هذه المودة منهم بمثلها، جريا على سجيته في تقبل الاحسان والجزاء به، ومجاراة لآماله التي كانت تراوده فيهم، فوثق الصلة بينه وبينهم، وتحدث الى رؤسائهم وتحدثوا اليه، وتقرب منهم وتقربوا منه، وهو لا ينظر اليهم إلا على أنهم موحدون أهل كتاب، وأتباع رسول، وقد بلغ من توثق الروابط بين الفريقين أن الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كان يصوم يوم صومهم، وكان يتواضع لهم، ويشملهم بكثير من ألوان البر، ثم كان أن عاهدهم وأمنهم على أنفسهم وأموالهم، واشترط عليهم، وشرط لهم.

انطواء اليهود على المخاتلة وبدء فتنهم:

٦ – ولقد كان هذا الود الذي نشأ بين المسلمين واليهود، وهذه الصلة التي كانت بين رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ورؤسائهم وعلمائهم، وهذا العهد الذي أعطى لهم فأمنوا به على أنفسهم وأموالهم ... لقد كان كل ذلك جديرا بأن يفضي الى لون من ألوان التفاهم أو التعاون، ولكن اليهود كانوا يبطنون في أنفسهم معنى غير هذا، ويستهدفون غرضا غير الغرض الشريف الذي كان يستهدفه النبي والمؤمنون، فما هو إلا أن بدأت تعاليم الاسلام تظهر، وآيات صدقه تداخل القلوب، وشعر اليهود بأن هذه التعاليم تستهوي كثيرا من علمائهم ورؤسائهم، وأن أصحابها جادون في نشرها وتأييدها والدفاع عنها بكل ما في استطاعتهم وانهم قد تركزوا في المدينة وأخذوا يعدون العدة للقضاء على الوثنية والشرك في مكة، ولأخذ ثأرهم من قريش التي أخرجتهم من ديارهم وأموالهم ـ ما هو إلا أن شعر اليهود بهذا كله، حتى داخلهم الحسد، وتحركت

فيهم طباع اللؤم والخيانة، وكرهوا أن يثبت أمر هذا الدين أكثر مما ثبت، وعز عليهم أن يعيشوا في ظلاله وتحت سلطانه في مرتبة ثانوية، وإن اكتسبوا الأمن والقرار، وأفادوا الرواج المادي في هذا الجوار، فأجمعوا أمرهم على أن يكيدوا للنبي والمؤمنين، وعلى أن يقفوا في وجه هذه الدعوة، يصدون عنها، ويبغونها عوجا، ويحشدون كل ما لهم من قوة وجهد في الارجاف عليها، وإثارة الشكوك فيها.

حرب الارجاف والجدل:

٧ – ويومئذ بدأت بينهم وبين الاسلام حرب أشبه بما نسميه في عصرنا الحاضر «حرب الاعصاب» كان قوامها الجدل والارجاف، وإذاعة قالة السوء، وإظهار الفرح بما يصيب المسلمين من شر، والحزن لما يصيبهم من خير، ودس المتظاهرين بالاسلام في صفوف المسلمين، ليعلموا أخبارهم، وليثيروا من الاسئلة والشكوك ما يزعزع ايمانهم، الى غير ذلك من ألوان الحرب والفتنة.

وفي ذلك يقول ابن اسحق صاحب السيرة:

ونصبت عند ذلك أحبار يهود لرسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ العداوة بغيا وحسدا وضغنا لما خص الله به العرب من أخذه رسوله منهم.

وانضاف اليهم رجال من الأوس والخزرج ممن ظهروا بالاسلام، واتخذوه جنة من القتل ونافقوا في السر، وكان هواهم مع يهود لتكذيبهم النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وجحودهم الاسلام، وكانت أحبار يهود هم الذين يسألون رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ويتعنتونه ويأتونه باللبس ليلبسوا الحق بالباطل، فكان القرآن ينزل فيهم في ما يسألون عنه إلا قليلا من المسائل في الحلال والحرام[1].

اهتمام القرآن بهذه الحرب:

٨ – هذا واهتم القرآن الكريم بهذه الحرب الجدلية الارجافية، فكان

---

(١) سيرة ابن هشام على هامش «الروض الأنف» طبع مصر سنة ١٣٣٢ هـ ـ ١٩١٤ م راجع صفحتي ٢٣، ٢٤ من الجزء الثاني، وقد روي عن ابن اسحاق في هذا الموضع بيانا بأسماء اليهود الذين كان لهم نشاط في مناصبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم العداء.

يتعقب مزاعم اليهـود وشبههم وما يلقون به الى النبي والمؤمنين، مفندا إياه، مبينا كذبهم وتعنتهم.

فمن ذلك ما روي من أن معاذ بن جبل، وبشر بن البراء قالا لفريق من اليهـود: يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك، وتخبروننا أنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته. فقال لهما سلام بن مشكم أحد اليهود من بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكـره لكم، فـأنزل الله في ذلك قوله: **﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنة الله على الكافرين﴾**(١).

وقـال رافـع بن خزيمـة يوما لرسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: يا محمد ان كنت رسولا من الله كما تقول، فقل لله فليكلمنا حتى نسمع كلامه. فأنزل الله تعالى في ذلك قوله: **﴿وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية، كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم، تشابهت قلوبهم، قد بينا الآيات لقوم يوقنون﴾**(٢).

ولما صرفت القبلة عن بيت المقدس الى الكعبة، أرجف اليهود الى النبي والمسلمين ارجافا شديدا، ووجدوا في ذلك فرصة لبث سمومهم، ودس فتنهم، ثم أرسلوا الى النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وفدا منهم مؤلفا من رفاعة بن قيس، وقردم بن عمرو، وكعب ابن الأشرف، ورافع بن أبي رافع، وغيرهم، فقالوا يا محمـد ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها وأنت تزعم أنك على ملة ابراهيم ودينه؟ ارجع الى قبلتك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك ـ وانما يريدون بذلك فتنته عن دينه، ففي هؤلاء نزل قوله تعالى: **﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانـوا عليهـا، قل لله المشرق والمغرب، يهدي من يشاء الى صراط مستقيم﴾**(٣).

---

(١) الآية ٨٩ من سورة البقرة.

(٢) الآية ١١٨ من سورة البقرة.

(٣) الآية ١٤٢ من سورة البقرة.

ومن ذلك أن عبد الله بن صيف، وعدي بن زيد، والحارث بن عوف، قال بعضهم لبعض: تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوة، ونكفر به عشية، حتى نلبس عليهم دينهم، لعلهم يصنعون كما نصنع، ويرجعون عن دينه، فأنزل الله تعالى فيهم:

﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون. وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون. ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم - قل ان الهدى هدى الله - أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم، قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم﴾[1].

ولما انتصر المسلمون ببدر وعلم اليهود بذلك حزنوا حزنا شديدا، وجعلوا يبدون الحسرة على قتلى قريش، وكان مما قاله كعب بن الأشرف حين علم بقتل سادات مكة: هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها. وكعب هذا هو الذي ذهب بعد بدر الى مكة يحرض على النبي وينشد الاشعار، ويبكي أصحاب القليب[2] ثم رجع الى المدينة وجعل يشبب بنساء المسلمين، وبلغ من غيظ المسلمين منهم أن أجمعوا على قتله، وأوفدوا له أحد الفدائيين فاحتال عليه حتى قتله.

وقد بلغ من تبجح اليهود وتجرئهم أن حاولوا فتنة الرسول نفسه، وذلك أن أحبارهم ورؤساءهم ذهبوا اليه ذات مرة وقالوا له:

«انك قد عرفت أمرنا ومنزلتنا وإنا إذا اتبعناك اتبعك اليهود ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين بعض قومنا خصومة فنحتكم اليك فتحكم لنا فنتبعك ونؤمن بك».

فنزل فيهم قوله تعالى: **﴿وان احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك، فإن تولوا فاعلم انما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم، وان كثيرا من الناس لفاسقون. أفحكم الجاهلية يبغون؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون﴾**[3].

---

(١) الآيات من ٧١ إلى ٧٣ من سورة آل عمران.

(٢) القليب: البئر، والمراد هنا البئر المعهودة التي ألقيت بها جثث قتلى المشركين يوم بدر.

(٣) الآيتان ٤٩، و ٥٠ من سورة المائدة.

٩ – هذه بعض مواقف اليهود في محاربة الدعوة الاسلامية، وقد تهيأ لهم بها أن يكونوا مركزا وعشا للدسائس في المدينة وما حولها، يأوي اليه كل معارض للاسلام، أو منافق يدعي الايمان، ويمد المشركين بالأخبار والمشورة، ويغريهم بالتجمع والتكتل لحرب الرسول وأصحابه، وهم الذين دبروا اجتماع العرب المعروف «بالأحزاب» ويومئذ تعرضت المدينة لخطر شديد، ولقي المسلمون من الكرب العظيم ما أوقع في قلوبهم الرعب وكاد يفتن بعضهم، ومشى المنافقون بالارجاف وإذاعة أنباء السوء، وبث الخوف حتى سمموا جو المدينة، ونقضت قريظة عهدها، واستهانوا بالمسلمين، وطلبوا اليهم أن يردوا اخوانهم بني النضير الى ديارهم كشرط لبقائهم على عهدهم، ووقعوا في النبي صلى الله عليه وآله وسلم، يسبونه ويذكرونه بالسوء، ويقولون متهكمين: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد.

وفي هذا الموقف يقول القرآن الكريم في سورة «الأحزاب»: ﴿**إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا. هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا، وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا، وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا، ويستأذن فريق منهم النبي يقولون ان بيوتنا عورة، وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا**﴾(١).

ولولا أن الله تعالى لطف بالمسلمين، وأنزل بالأحزاب عاصفة من الريح اقتلعت خيامهم، وأكفأت قدورهم، وأدخلت في قلوبهم الرعب، فولوا الأدبار، وردوا عن غايتهم خائبين، لولا ذلك، لكان من الجائز أن يقضى على دعوة الاسلام القضاء الأخير.

وفي ذلك، وفي وصف ثبات بعض المؤمنين ونعمة الله عليهم، تقول سورة «الأحزاب»: ﴿**ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، وما زادهم إلا ايمانا وتسليما. من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا،**

(١) الآيات من ١٠ الى ١٣ من سورة الأحزاب.

ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين ان شاء أو يتوب عليهم ان الله كان غفورا رحيما. ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قويا عزيزا. وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب، فريقا تقتلون، وتأسرون فريقا. وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديرا﴾[1].

١٠ – وفي هذه الفترة من تاريخ الدعوة الاسلامية كان ما ينزل من القرآن الكريم متجها ـ مع ما سبق ذكره من مناضلتهم، ومواجهة فتنتهم، والتعقيب على تمويهاتهم ـ الى تحذيرهم من الغضبة التي لا بد أن ينتهي اليها الأمر اذا استمروا على هذا العناد، وهذه الدسائس.

لذلك نرى في سورة «الأحزاب» ـ وقد نزلت قبل سورة «النساء» كما قدمنا ـ لونا من هذا الانذار في قوله تعالى: **﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة، لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا. ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا﴾**[2].

وجاء مثل هذا الانذار في سورة «النساء» إذ تقول:

﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا﴾[3].

١١ – وقد اشتركت سورة «النساء» في بيان موقف اليهود من الدعوة، وما لهم من أساليب النفاق، وتحذير المؤمنين منهم، وتذكيرهم بماضيهم الأسود في الخروج على أمر الله، وفي نقض المواثيق، وفي أكل الربا، وقتل الأنبياء، فأبرزت بهذا كله ذلك اللون من النفاق، الذي يجعل قوما ذوي كتاب منزل، ونبي مرسل، يقفون بالمرصاد لدعوة تصدق كتابهم، وتؤيد رسولهم، وتدعو الى الايمان

---

(١) الآيات من ٢٢ الى ٢٧ من سورة الأحزاب.

(٢) الآيتان ٦٠، ٦١ من سورة الأحزاب.

(٣) الآية ٤٧ من سورة النساء.

به، فيؤيدون الوثنية عليها، ﴿ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا﴾.

١) فأول ما تحدثت به سورة «النساء» في هذا هو قوله تعالى:

﴿ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة، ويريدون أن تضلوا السبيل، والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا. من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه، ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع، وراعنا - ليا بألسنتهم وطعنا في الدين - ولو انهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم، ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا﴾[1].

تحقيق المراد بكونهم «أوتوا نصيبا من الكتاب»:

وقد جاء التعبير عنهم في هذه الآية بقوله تعالى: **﴿الذين أوتوا نصيبا من الكتاب﴾**، فاختلف في فهم ذلك ...

فمن الناس من فسره بأن اليهود - وكذا النصارى - لم يصلهم من كتابهم إلا بعضه، وغاب عنهم بعضه، وذلك ان التوراة لم يكتب منها إلا النسخة التي كانت على عهد موسى، وقد كتبها هو عليه السلام، ثم ضاعت، وكتب اليهود غيرها. ولم يعرف تاريخيا ما هو الأصل الذي اعتمدوا عليه في ذلك، ومثل هذا قيل في شأن الانجيل، فإنه ليس له سند متصل عند أهله وهم مختلفون في تاريخ كتابته[2].

فهذا الانقطاع في تاريخ كل من التوراة والانجيل ضيع على اليهود والنصارى نصيبا مما جاءهم من العلم، وأنساهم إياه، ويدل على ذلك قوله تعالى في شأن اليهود والنصارى: **﴿فبما نقضهم ميثاقهم[3] لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ولا تزال تطلع على**

---

(١) راجع تفسير المنار: ١٥٧ ج ٣، ١٣٧ ج ٥.

(٢) الآية ٤٦ من سورة النساء.

(٣) الضمير لبني اسرائيل كما يدل على ذلك سياق الآيات في السورة.

خائنة منهم إلا قليلا منهم، فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين. ومن الـذين قالـوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة، وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾[1].

فهاتان الآيتان تقرران أن كلا من اليهود والنصارى نسوا حظا مما ذكروا به، وذلك هو ما ضاع منهم، أما ما بقي فهو الذي أريد من أنهم ﴿أوتوا نصيبا من الكتاب﴾.

وهذا التفسير في نظرنا ليس بسديد، لأنه لا يقال عن الذين ضاع منهم بعض ما أوتوه: انهم أوتوا نصيبا منه، وإنما يقال مثلا: لم يبق لهم إلا نصيب مما أوتوا، ثم ان قوله تعالى في شأن اليهود ﴿ونسوا حظا مما ذكروا به﴾ ليس ظاهرا في افادة أن المقصود بالحظ المنسي هو ما ضاع عن طريق ضياع نسخة التوراة كما ذكر.

ويرى الاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ـ في ما نقله عنه الشيخ رشيد ـ أن المراد بذلك هو كونهم عاملين ببعض أحكام التوراة تاركين بعضها، فالنصيب الذي أوتوه هو ما عملوا به، والحظ الذي نسوه هو ما أهملوه[2].

وهذا الرأي أيضا لا يتمشى مع التعبير الذي عبرت به الآية، فلا يقال ﴿أوتوا نصيبا من الكتاب﴾ لمن أوتوا الكتاب كله ثم تركوا بعضه، إنما يتمشى هذا في قوله تعالى: ﴿أتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض . . .﴾.

وعندي ان المقصود بالنصيب الذي أوتيه اليهود من الكتاب هو التوراة نفسها، فإن الله تعالى قد أنزل التوراة على موسى وأرسله الى بني اسرائيل فهي نصيبهم من الكتاب، أي من الكتب السماوية، والانجيل الذي أنزله الله على عيسى هو نصيب النصارى من الكتاب أي من الكتب السماوية، والمسلمون نصيبهم القرآن وهو مصدق لما بين يديه من الكتاب ومهيمن عليه أي حاكم، وقوله فاصل.

والمراد أن يقول: ان هؤلاء اليهود الذين أوتوا من الكتاب نصيبا، وعرفوا

---

(١) الآيتان ١٣، ١٤ من سورة المائدة.

(٢) ١٣٧ ج ٥ تفسير المنار.

الهداية الإلهية، وتلقوها عن رسول - ان هؤلاء يستبيحون لأنفسهم أن يشتروا الضلالة، ويقصدوا اضلال المؤمنين، وذلك منهم عجيب، لأن الذي أوتي نصيبا من هداية الله ووحيه المنزل لا يليق به إلا أن يكون هاديا مهديا، لا ضالا ولا مضلا، فالآية في مقام التعجيب من أن يكون هذا شأنهم، وهم أهل كتاب.

وقد جاء هذا التعبير أيضا في سورة «آل عمران»، حيث تقول: ﴿**ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون**﴾[1].

أي ان لهم اتصالا بكم وبالوحي الذي أنزل عليكم، من حيث انكم جميعا أهل كتاب سماوي: في مقابل أهل الوثنية الذين لا دين لهم، ولا يستند ما هم عليه من شرك الى كتاب منزل، فلو وقع الاعراض عن كتاب الله من وثني لكان غير عجيب، أما أن يقع ممن يشارككم في أنه صاحب كتاب تلقاه عن رسول من رسل الله: فذلك هو الأمر العجيب.

واشتراء اليهود للضلالة بالهدى هو تبديلهم ما يعرفون من العلم بالرسول، وكون رسالته حقا وصدقا، فهو من قبيل التمثيل بمن يشتري سلعة يبذل فيها ماله وهو يعرف أنها سلعة فاسدة لا يرغب أهل العقول فيها، والاشتراء في هذا التمثيل هو تلهفهم على الضلالة، ورغبتهم في الحصول عليها، كما يرغب المشتري في اقتناء سلعة فيبذل ثمنها.

وقد يكون المراد معنى حقيقيا أو قريبا من الحقيقة، وذلك ان اليهود قد جرت عادتهم في جميع أطوار تاريخهم أن يبذلوا من أموالهم قسطا في سبيل الدعوة الى الضلالة والفساد، فشراؤهم الضلالة هو بذلهم الأموال في محيط أهل الايمان ليفسدوا عليهم ايمانهم، وقد كانوا يصطنعون قوما من المنافقين، ويغرونهم على ذلك بالأموال وغيرها، كما ان عوام اليهود يعطون خواصهم وأحبارهم، كثيرا مما يجمعون من المال، ليكيدوا بذلك للاسلام، ويزلزلوا على أهله، ويرجفوا على مبادئه وأحكامه.

---

(١) الآية ٢٣ من سورة آل عمران.

ومازال هذا اللون من اشتراء الضلالة سبيلا من سبل اليهود في العالم، ومن درس أساليب الصهيونية العالمية يتجلى له ما يصنعون من ذلك، ففي أمريكا وفي أوروبا تجمع الأموال بالملايين من أفراد الشعوب ومن حكوماتهم وتوضع تحت تصرف الدولة التي خلقوها لكي تحارب الاسلام، وتقضي على شعوبه وحملة لوائه، كما كان سلفهم يضعون الأموال الطائلة في أيدي أحبارهم لمثل ذلك، فالتاريخ يعيد نفسه، وأخلاق السوء أصيلة في أصحابها تنتقل عبر القرون والأجيال، ثم نرى هذه الأموال المجمعة تحول الى جهود مادية، والى كتب تؤلف، والى اذاعات تذاع، والى صحف تدس، والى دراسات يقصد بها الضلال والاضلال حتى في معاهد العلم بأوروبا وأمريكا وغيرهما، بل لدينا أيضا معاشر الشرقيين، فإن الأموال تنفق هنا بسخاء على زلزلة المؤمنين، وفتنتهم عن دينهم ومثلهم، وان كثيرا من المعاهد والجامعات الأجنبية ما أنشىء الا لاشتراء الضلالة، وقصد الاضلال.

والآية الكريمة تقف بعد تقرير هذه الحقيقة، والتعجيب منها، موقف الناصح للمؤمنين المذكر لهم بأن الله تعالى هو أعلم بأعدائهم وبما يبيتون من كيد، وان عليهم أن يستنصروا به جل شأنه، باتباع هداه، وبالاخلاص له، وبالجهاد في سبيله: ﴿ولينصرن الله من ينصره﴾ **﴿وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا﴾**.

ثم ذكرت الآية لونا من ألوان استهزائهم ونفاقهم وحملت عليهم في شأنه حملة شديدة، فمن ذلك ما كانوا يفعلونه من تحريف الكلم عن مواضعه، فتارة يفسرون كلام الله بغير مراده افتراء عليه، أو يتأولونه على غير تأويله، وتارة يذهبون الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ يسألونه عن الأمر فيخبرهم به، فإذا انصرفوا من عنده حرفوا كلامه، وتارة ينكرون ما يعرفون من صفة النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ التي ذكرت في كتبهم ... الى غير ذلك من التحريف والكتمان وباطل التأويل.

ومن ذلك ما كانوا يرتكبونه من سوء الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ إذ يقولون له حينا: سمعنا وعصينا، يريدون بذلك أن يثيروه ويفتوا في عضده، ويهونوا أمره على أصحابه ومتبعيه، ويقولون له حينا آخر: اسمع غير

مسمع، كما يقال في السب والدعاء بالشر: «أسمع يا فلان لا سمعت» ـ لعنهم الله لعنا كبيرا ـ وحينا يقولون «راعنا» وهذا لفظ محتمل لمعنى قول القائل: «راعنا سمعك» أو «راعنا التفاتك» أي استمع الينا، والتفت، فإنا نريد أن نحدثك، وهو صالح أيضا لأن يراد به وصف من الرعونة بمعنى الطيش، فهي كلمة ذات وجهين اختاروها في مخاطبة الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ نفاقا واستهزاء و «ليا بألسنتهم» أي ارادة لجانب الالتواء باختيار التعبير باللفظ الملتوي المحتمل، وقد ورد انهم كانوا أحيانا يقولون للنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ «السام عليكم» ـ والسام هو الموت والهلاك ـ ويديرون ألسنتهم على نحو يجعل السامعين يظنون أنهم يقولون: السلام عليكم، فهذا نوع آخر من اللي باللسان نفاقا وطعنا في الدين، بالطعن في رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ، وقد تنبه رسول الله الى قصدهم في ذلك فكان يقول لهم «وعليكم» وتلك مقابلة مهذبة من النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لسفاهتهم وبذاءتهم، وليس لهم أن يشتكوا منها، لأنه انما رد عليهم بمثل ما قالوا، فإن كانوا قد قالوا خيرا فهو خير، وإن كانوا قد قالوا شرا فعاد اليهم الشر، وهي من الرسول ـ مع ذلك ـ كلمة حق في الواقع، فإن السام أي الموت، هو حق على البشر جميعا، لا فرق في ذلك بين الرسول وبينهم.

والآية تظهر هذا اللون من بذاءتهم كمظهر من مظاهر نفاقهم الذي استحوذوا به اللعن والطرد من رحمة الله ـ وفي ذلك ايذان بما سيكون من مصيرهم فيما بعد ـ وهو معنى قوله تعالى: **﴿ولو انهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا﴾** أي بالعبارات الصريحة المهذبة التي لا تحتمل التواء **﴿لكان خيرا لهم، ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا﴾** والقليل هو ايمان بعضهم من أمثال الذين أسلموا، أو القليل هو إيمانهم ببعض ما جاءهم إيمانا لا وزن له، ولا يعتد به في جانب ظلمهم وطعنهم في الرسول، وحربهم للاسلام.

وقد جاء في سورة «البقرة» التيئيس من ايمان هؤلاء، وقطع أمل الرسول والمؤمنين فيه، مع تعليل ذلك بخلقهم في تحريف كلام الله بعد فهمه، وفي النفاق والتبييت، إذ تقول **﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا،**

وإذا خلا بعضهم الى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون. أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾[1].

انذار لليهود:

(ب) ثم جاءت السورة بإنذار أصرح، وهو ما سبق أن تحدثنا عنه وعن نظيره في سورة «الأحزاب»، وذلك قوله تعالى في سورة «النساء»: **﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت، وكان أمر الله مفعولا﴾**[2] وقوله تعالى في سورة «الأحزاب»: **﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا، ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا، سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾**[3].

وقد اختلف المفسرون في فهم المراد مما هددوا به من الطمس على الوجوه، والرد على الأدبار، واللعن كما لعن أصحاب السبت، فمنهم من قال: الطمس الذي هددوا به هو المسخ، ومنهم من قال: هو تقبيح صورهم، ومنهم من قال: هو طمس مقاصدهم ووجوه مساعيهم في الكيد للاسلام.

وأحسن ما قيل في تفسير ذلك أن المراد به طمس آثارهم من الحجاز، وردهم على أدبارهم الى البلاد التي جاؤوا منها[4]، وإنما رجحت ذلك لأنه يتلاقى في المعنى مع ما تصرح به سورة «الأحزاب» في الآية التي ذكرناها من أنهم اذا لم ينتهوا عما درجوا عليه فسيكون جزاؤهم الطرد من المدينة والابعاد **﴿فلا يجاورونك فيها إلا قليلا﴾**.

وكذلك يقال في تفسير اللعن الذي هددوا في آية «النساء» بأن يحل بهم كما حل بأصحاب السبت، فمعناه الذل والاهلاك اللذان هما سنة الله في الطغاة

---

(١) الآيات من ٧٥ إلى ٧٧ من سورة البقرة.

(٢) الآيات ٤٧ من سورة النساء.

(٣) الآيات من ٦٠ الى ٦٢ من سورة الأحزاب.

(٤) نقله الشيخ رشيد عن بعضهم ـ أنظر ص ١٤٥ من الجزء الخامس من تفسير المنار.

والمجرمين. وذلك واضح في آيات «الأحزاب» حيث تقول: ﴿**ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا**﴾ وحيث تقرر أن هذه ﴿**سنة الله في الذين خلوا من قبل**﴾ ومنهم أصحاب السبت، وأن سنة الله لا تبديل لها ﴿**ولن تجد لسنة الله تبديلا**﴾.

جـ - ثم تبين سورة «النساء» أن اليهود قوم مغرورون بأنفسهم فتقول:

﴿**ألم تر الى الذين يزكون أنفسهم، بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلا، انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثما مبينا**﴾(١).

وقد عرف من تاريخ اليهود في ماضيهم وحاضرهم أنهم يعتقدون في جنسهم من المزايا الخلقية والتكوينية ما يجعلهم يزعمون أنهم «شعب الله المختار» وكان قدماؤهم يقولون كما حدثنا عنهم القرآن «**نحن أبناء الله وأحباؤه**» بل مازال محدثوهم يرددون ذلك ويموهون به على العالم، وقد عجبت سورة «النساء» من خلقهم هذا إذ يزكون أنفسهم، وقررت أن زكاة الناس وفضلهم الخلقي التكويني إنما هو لله وهو رهن بمشيئته، ويستوي أمام هذه المشيئة الإلهية جميع البشر، لا فرق بين يهودي وغير يهودي، وكذلك الشأن في الزكاة النفسية والخلقية، إنما تتبع المشيئة الإلهية وهي مرتبطة بالحكمة والعدل، فمن فعل الخير، ودعا الى الحق، وكان خيرا في مراميه وأفعاله، فهو الذي يزكيه الله ويوليه حبه، ولا يظلم الناس في ذلك فتيلا، بل يجني كلٌّ ثمرة فعله ونواياه بتزكية الله اياه حسب زكاة نفسه ومقاصده.

وقد جاءت الآية الثانية صريحة في أنهم يفترون على الله الكذب في ذلك، فإن الله لم يجعلهم شعبه المختار، ولم يميزهم بميزة في الخلق تقتضي ما يزعمونه من تزكية أنفسهم.

وقد جاء في سورة «المائدة» إسناد لون من تزكية النفس على غير أساس، الى اليهود والنصارى جميعا، إذ تقول: ﴿**وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه، قل فلم يعذبكم بذنوبكم، بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء، ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير**﴾(٢).

---

(٢) الأيتان ٤٩، ٥٠ من سورة النساء.

(٣) الآية ١٨ من سورة المائدة.

ولكن اليهود أكثر إسرافا في ذلك، وهم الذين قالوا: «لن تمسنا النار إلا أياما معدودات» وروي انهم كانوا يقولون «ما نعمله من الذنوب نهارا يكفره الليل» الى غير ذلك من مظاهر غرورهم، ومازال ذلك خلقهم في العصر الحاضر، فهم يذيعون أنهم أفضل الشعوب، وأن دماءهم أزكى الدماء، وأنهم أولى الناس بحكم العالم والسيطرة على مقاديره.

بيان المراد مما جاء في القرآن من تفضيل اليهود على العالمين(*):

ويجدر بنا أن نقف هنا وقفة يسيرة نبين بها ما يفهم من مثل قوله تعالى مخاطبا اليهود: ﴿**وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين**﴾ وقوله تعالى: ﴿**وإني فضلتكم على العالمين**﴾ فإن اليهود كثيرا ما يستدلون بذلك على ما يفخرون به، ويزكون أنفسهم، من أنهم شعب الله المختار، ويقولون للمسلمين: نحن بنص الكتاب الذي تؤمنون به أفضل العالمين بتفضيل الله، وقد أوتينا من فضل الله ما لم يؤت أحد من العالمين.

والحقيقة أنه لا متمسك لهم في ذلك، وإنما المراد ـ والله أعلم ـ أنه آثرهم بكثير من النعم على العالمين في عصرهم، حيث بعث فيهم كثيرا من الأنبياء، ولون لهم أنواع الهداية، وأنقذهم من كثير من المآزق وحلم عليهم فلم يأخذهم بذنوبهم، مع افتتانهم في ضروب العصيان والفسوق، ولو شاء لأهلكهم وأفناهم عن آخرهم، وهم في كل ذلك لا يضربون إلا أسوأ الأمثال في النكران والكفران، فتفضيل الله لهم هو إيثارهم بدعوة موسى وغيره من الدعوات التي ترادفت عليهم وتتابعت، وليس معناه تفضيلهم التكويني في خَلْق أو خُلُق أو علم أو ذكاء أو فراهة أجسام، أو نحو ذلك مما يزعمون، وبه على غيرهم يتطاولون، ولا يكاد يعرف شعب من الشعوب التي أرسل الله اليها أنبياءه قبل بني اسرائيل، صابرتهم

---

* مقتبس من بحث لنا عن «سورة المائدة» منشور بالمجلد السابع من مجلة «رسالة الاسلام» ص ٢٤٠.

السماء على تكذيبهم والتوائهم وعنادهم وتحريفهم ونفارهم عن الحق، وجماحهم عن الهدى، كشعب اسرائيل، فقد كان الذين يكذبون يستأصلون بقارعة سماوية كقارعة عاد وثمود وأصحاب مدين وقوم لوط، ولكن دعوة الرسل دخلت بعد ذلك في طور جديد غير طور الاستئصال والابادة، ولله في ذلك الحكمة البالغة، فهو تمهيد لعهد جديد يترك فيه الناس وما يختارون بعد أن وضحت الرسالات، وتعددت الآيات، **﴿ثم الى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون﴾**.

فهذا هو ما يمتن الله به على بني اسرائيل من التفضيل والايثار، ولو كان الأمر كما يزعمون من تفضيل تكويني في خُلُق أو خَلْق، لما كان القرآن إلا متعارضا بعضه مع بعض حيث يصفهم في كثير من المواضع باللؤم والنقض، ويلعنهم ويعبر عن طردهم من رحمة الله ورضوانه بأنه «جعل منهم القردة والخنازير»، وقال: **﴿كونوا قردة خاسئين﴾**، ويصف التواءهم العقلي بمثل قوله: **﴿أفلا تعقلون﴾** **﴿أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير﴾** ويصور قسوة قلوبهم بسورة بليغة إذ يقول: **﴿ثم قست قلوبهم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾** ويقول عنهم: **﴿أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون﴾**، **﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله﴾**. **﴿لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾**.

ولو ان باحثا جمع آيات القرآن الكريم عن اليهود، واستخلص منها ما تدل عليه من مثالبهم ومساوىء أخلاقهم وأفعالهم، والتواء طبيعتهم، لجمع - أو كاد - جميع خصال السوء، وأخلاق الرذيلة. فكيف يتبجحون مع هذا بأن القرآن يقصد امتيازهم على جميع من سواهم من الأمم وكيف يستمسكون بما يفهمون من ظاهر آية أو آيتين وقد تحالفت آيات القرآن التي نزلت فيهم على غير ما فهموا؟

والخلاصة ان القرآن حين قرر أنهم فضلوا على العالمين، وأنهم أوتوا ما لم يؤت أحد من العالمين، إنما ساق ذلك في معرض الامتنان عليهم بالنعم

وإثبـات أنهم يجحدونها ويكفرون بها، فهو إلزام منطقي بلؤمهم، حيث أوثروا وأوتوا النعم فكفروا وتولوا واستغنى الله !

الفضل والخيرية وخضوعها للسنن الكونية:

ألا وإنـه ليس أضـر على الأمم، ولا أبعث على غرورها، ولا أدنى الى تواكلهـا وتـراخيهـا عن العمل والجد، من أن يداعبها مثل هذا الخيال المنوم المثبط، وإن ظن أنه باعث منشط، وأقصد به أن تظن الأمة أنها مفضلة تفضيلا طبيعيا على غيرها، وأن لأبنائها من المزايا ما ليس للناس، فالواقع أنه ليس في خلق الرحمن من تفاوت، وإنما ترتفع الأمم وتفضل بالأخلاق والأعمال وانتشار الفضيلة وصـلاح البيئـة، وقـد خاطب الله تعالى المسلمين بأنهم: ﴿**خير أمة أخـرجت للنـاس**﴾ ولكنه أتبع ذلك بما يفيد أن هذه «الخيرية» ليست هبة في الخلق واختصاصا بالرحمة دون مبرر، ولكن لأنهم حملوا مبادىء هذه الخيرية، واضطلعوا بأسبابها: ﴿**تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**﴾ ثم اتبع ذلك بما يدل على أن أهل الكتاب يستطيعون بالايمان أن يكونوا كذلك، وأن يحصلوا لأنفسهم الخير، فقال: ﴿**ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم**﴾.

د ـ وتحدثت عنهم السورة بعد ذلك في قوله تعالى:

﴿**ألم تر الى الـذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا، أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا، أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا، أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما، فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه، وكفى بجهنم سعيرا**﴾(1).

وقـد قدمنـا بعض ما ورد من الروايات التي تدل على أن اليهود زعموا للمشركين أنهم أهدى من المؤمنين سبيلا.

---

(1) الآيات من ٥١ الى ٥٥ من سورة النساء.

ونورد هنا رواية أخرى في ذلك أوردها ابن كثير وغيره عن عكرمة قال: جاء حيي بن أخطب، وكعب بن الأشرف، الى أهل مكة فقالوا لهما أنتم أهل الكتاب وأهل العلم، فأخبرونا عنا وعن محمد، فقالا: ما أنتم وما محمد؟ فقالوا: نحن نصل الأرحام، وننحر الكوماء[1]، ونسقي الماء على اللبن، ونفك العاني[2]، ونسقي الحجيج، ومحمد صنبور[3] قطع أرحامنا، واتبعه سراق الحجيج من غفار[4]، فنحن خير أم هو؟ فقالا أنتم خير وأهدى سبيلا، فأنزل الله: **﴿ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا﴾**.

فالآية تسجل عليهم هذا الموقف المخزي، إذ انهم وهم أهل كتاب، قد آمنوا «بالجبت» وهو الرديء الذي لا قيمة له، ولذلك يطلق على السحر وعلى الصنم، وذلك أنهم حكموا بأن الذين يتبعون الأوثان، ويدينون بالخرافات والأوهام، على هدى، فقد صدقوهم أو تظاهروا بأنهم يصدقونهم ويؤمنون بما لهم من جبت، وكذلك هم يؤمنون بالطاغوت، وهو كل ما سوى الله ممن يؤثر على الله، من صنم أو شيطان، أو رئيس، أو غير ذلك، متى أدى الى طغيان من آثره وحكمه.

وتلك سبة في جبين اليهود، ومخزاة في تاريخهم الأسود، فكيف يسوغ لأهل كتاب سماوي أن يؤيدوا أو يباركوا أهل الوثنية والطواغيت، ولكنهم إنما فعلوا ذلك حسدا للمؤمنين، فانساقوا بإيحاء هذا الحسد ودفعه الى هذا الموقف، وكم يجر الحسد على أصحابه من مصائب، ويوقعهم في ورطات.

رأي أحد اليهود المعاصرين في هذا الموقف:

وقد نقل الدكتور محمد حسنين هيكل في كتابه «حياة محمد» تعليقا على هذا الموقف بقلم أحد كبار اليهود في العصر الحاضر، وهو الدكتور «اسرائيل ولفنسون» مؤلف كتاب «تاريخ اليهود في بلاد العرب» ونحن ننقل هذا التعليق

---

(١) الكوماء: الناقة الضخمة السنام.

(٢) العاني: الأسير.

(٣) الصنبور: الرجل الذليل الضعيف بلا أهل ولا عقب ولا ناصر.

(٤) غفار ـ على وزن حذام ـ اسم قبيلة.

بنصه لما فيه من الانصاف أو الاعتراف، على الرغم من أنه صادر من يهودي:

قال الدكتور اسرائيل: «كان من واجب هؤلاء اليهود ألا يتورطوا في مثل هذا الخطأ الفاحش، وألا يصرحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الاصنام أفضل من التوحيد الاسلامي، ولو أدى بهم الأمر الى عدم إجابة مطلبهم، لأن بني اسرائيل الذين كانوا مدة قرون حاملي راية التوحيد في العالم بين الأمم الوثنية باسم الآباء الأقدمين، والذين نكبوا بنكبات لا تحصى من تقتيل واضطهاد بسبب ايمانهم بإله واحد في عصور شتى من الأدوار التاريخية، كان من واجبهم أن يضحوا بحياتهم وكل عزيز لديهم، في سبيل أن يخذلوا المشركين، هذا فضلا عن أنهم بالتجائهم الى عبدة الاصنام إنما كانوا يحاربون أنفسهم، ويناقضون تعاليم التوراة التي توصيهم بالنفور من أصحاب الأصنام، والوقوف منهم موقف الخصومة»(١).

وقد عقبت الآيات على هذا الموقف بالاشارة اليهم والى أنهم ملعونون من الله، ثم أشارت الى أن هذا إنما صدر منهم عن خلق الضن بقولة الحق حسدا منهم لصاحب الحق، وأنهم لو كان لهم نصيب من الملك لما آتوا الناس نقيرا. والنقير: هو النكتة في ظهر النواة، والمراد أيسر الأشياء وأقلها، فهم يبخلون حتى بمثل ذلك ولو كان لهم نصيب من الملك، لما هم عليه من البخل والحسد والرغبة عن ايصال الحق الى أصحابه، ثم أفصحت الآيات عن الباعث الأصلي فيهم الى هذا كله، وهو الحسد: **﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾** والحقيقة أن اليهود وقفوا من الرسالة المحمدية هذا الموقف مدفوعين بعامل الحسد: لِمَ لَمْ يكونوا هم أصحاب هذا الفضل، ولم خص به محمد من دونهم، وقد كانوا يودون لو استطاعوا أن يؤثروا في الرسول فينحاز اليهم ويسير في فلكهم، وقد رد الله عليهم بأن تاريخهم يشهد أنهم يحسدون ويحقدون حتى على من أوتوا الملك والحكمة منهم، **﴿فإن الله قد جعل في أسباط بني اسرائيل - الذين هم من ذرية ابراهيم - النبوة، وأنزل عليهم الكتاب، وحكموا فيهم بالسنين وهي الحكمة، وجعل منهم الملوك ومع هذا فمنهم من آمن به ، أي**

---

(١) ص ٣٢٠ من كتاب «حياة محمد» للمرحوم الدكتور هيكل.

بهذا الايتاء وهذا الانعام، ومنهم من صد عنه أي كفر به، وأعرض عنه، وسعى في صد الناس عنه، وهو منهم ومن جنسهم، أي من بني اسرائيل، فقد اختلفوا عليهم فكيف بك يا محمد ولست من بني اسرائيل﴾[1].

هـ - لم يبق بعد ذلك مما يتعلق باليهود الا ماجاء عنهم في السورة حين سألوا الرسول أن ينزل عليهم كتابا من السماء، وهو موقف يتصل بتعنتهم لا بنفاقهم، وقد تحدثنا عنه من قبل في إجمال ونحن بصدد عرض آيات السورة وموضوعاتها، عند قوله تعالى: ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم﴾ الآيات[2].

النوع الثالث من المنافقين:

٣ - وكما تحدثت السورة عن النوعين السابق ذكرهما من المنافقين، تحدثت عن نوع ثالث، وجاء حديثها عن هذا النوع في قوله تعالى:

﴿فما لكم في المنافقين فئتين، والله أركسهم بما كسبوا، أتريدون أن تهدوا من أضل الله؟ ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا، ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء، فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله، فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا، إلا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم - ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم - فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا، ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا الى الفتنة أركسوا فيها، فإن لم يعتزلوكم ويلقوا اليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم، وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا﴾[3].

---

(١) ابن كثير في تفسيره ص ٤٨٨ ج ٢.

(٢) من ١٥٣ إلى ١٦٢ من سورة النساء - راجع ص ١٦ من هذا الكتاب.

(٣) الآيات من ٨٨ إلى ٩١ من سورة النساء.

١ - تختلف الروايات في تحديد من نزلت فيهم هذه الآيات، وأصح هذه الروايات من جهة المعنى، أن جماعة كانوا بمكة تخلفوا عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فلم يهاجروا معه مع إعلانهم الايمان في الظاهر، وقد بدا منهم ما يدل على مظاهرتهم للمشركين سرا.

وقد وقف المسلمون موقفين مختلفين في شأن هؤلاء، فكانت فئة منهم ترى أن يعاملوا معاملة المشركين، لأن حقيقتهم هي الشرك وإن تظاهروا بالايمان، وفي أخبارهم وتصرفاتهم ما يدل على ذلك، كما ان بقاءهم في دار الشرك امارة على أن قلوبهم غير ممتلئة بنور الايمان، وكانت فئة أخرى من المؤمنين ترى أنه ليس من الرأي أن يعامل هؤلاء معاملة المشركين مع اعلانهم أنهم مؤمنون وتكلمهم بكلمة الاسلام. وكان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ساكتا عن هذا الأمر ليس له انحياز الى هذا الفريق أو ذاك، كأنه كان يتأمل وينعم النظر، أو ينتظر ارشاد الله.

ففي هذا الشأن نزلت تلك الآيات، وكان حكم الله تعالى في هؤلاء أنه قسمهم أربعة أقسام:

القسم الأول:

أولئك الذين يدعون الاسلام ولم يهاجروا مع أنه ليس بهم عجز عن الهجرة، ولا يحول بينهم وبينها شيء.

فهؤلاء لا تقبل منهم دعوى الايمان، ولا يعاملون إلا معاملة المشركين: **﴿فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله، فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا﴾**.

فالآية تجعل عدم هجرتهم دليلا على عدم صدقهم في دعوى الايمان، فالهجرة كانت يومئذ هي الشعار فلا تنفك عن الايمان، ومفروض أن حكم القرآن على هؤلاء المتباطئين عن الهجرة مقيد بما ذكر في آية أخرى من أن المستضعفين الذين لا يجدون حيلة ولا يهتدون الى الهجرة سبيلا معفو عنهم،

وإذن فالمراد بهذا الصنف هم الذين يدعون الايمان، ولا يهاجرون دون ضعف فيهم وعجز عن الهجرة، فتلك امارتهم.

وقد قدمت الآية لهذا الحكم بما يعلمه الله فيهم، من أنهم مرتكسون في الشرك أي منقلبون اليه، مرتدون عن الايمان، يتظاهرون بأنهم معكم ثم يعودون منقلبين مرتكسين الى شركهم، وذلك هو إركاس الله لهم بما كسبوا من النفاق وعدم الاخلاص، فهو تصوير لحالهم بحال من يهم بالنهوض فيقع، أو بالتقدم فيتأخر ويرتد راجعا منقلبا. وإذا كان الله تعالى قد أضلهم بما كسبوا، فهل تريدون أن تهدوا من أضله الله **﴿ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا﴾**.

وقدمت الآية أيضا بما يعلمه الله فيهم من أنهم يودون للمسلمين الكفر ليكونوا هم وإياهم سواء فيه.

وإذن فقد رتب الحكم في شأن هذا الصنف على أمرين، أحدهما هو علم الله بحالهم وبنواياهم الخبيثة، والغرض من ذكره هو إيناس المؤمنين واستلال عوامل التردد من نفوس المترددين منهم في شأنهم، والأمر الثاني ـ وهو الذي عليه مدار الحكم في الواقع، وبحسب الظاهر ـ هو عدم هجرتهم مع تمكنهم من الهجرة، فتلك هي الامارة الظاهرة التي يستند اليها الحكم.

القسم الثاني:

فريق استثنتهم الآيات من هؤلاء الذين لم يهاجروا الى المدينة مع المؤمنين، وهم الذين لم يبقوا في مكة مع المشركين، ولكن انحازوا الى قوم بينهم وبين المسلمين عهد، فأصبحوا بذلك بعيدين عن أن يشتركوا في إيذاء المسلمين والتدبير لكيدهم، لأنهم من قوم ليسوا أعداء للمسلمين، يمنعهم العهد والميثاق من أن يؤوا اليهم أعداء المسلمين.

وهذا شبيه بما يعرف في عصرنا الحاضر من الالتجاء الى بلد صديق، لا يمكن أن تسمح حكومته بنشاط معاد يضر أصدقاءها.

وإذن فهم مأمونو الجانب، لا تخشى غوائلهم ومن هذا يتبين أن الاسلام لا يتحكم وإنما ينشد الأمن، فمتى وجده اكتفى به، دون تعنت.

وذلك هو قوله تعالى: ﴿**إلا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق**﴾.

القسم الثالث:

فريق عطفوا على هؤلاء الذين استثنوا، وهم قوم جاءوا المسلمين ولكنهم آثروا أن يقفوا موقف الحياد بينهم وبين المشركين بسبب أنهم محرجون، حصرت صدورهم - أي ضاقت - بأن يقاتلوا المسلمين - وهم لا يستحقون في نظرهم قتالا - أو يقاتلوا قومهم - وفيهم أقرباؤهم وأزواجهم وأولادهم ومصالحهم - فالآيات تستثني هؤلاء أيضا من حكم الأخذ والقتل الذي حكمت به على الأولين، وتأمر بقبول حيادهم وعدم التعرض لهم كالقسم الثاني.

وهذا أيضا مظهر كريم من انصاف الاسلام وعدله، حيث يفسح في بلاده ومجتمعه مكانا لمن ليسوا من أنصاره، اكتفاء بأنهم ليسوا أيضا من أعدائه، وفيه كذلك دلالة واضحة على انه لا يبغي التحكم، وإنما يكتفي بما يكفل له الطمأنينة والأمن.

وذلك هو قوله تعالى: ﴿**أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم**﴾.

ولما كان هذا الحكم فيه كثير من التسامح، وفيه إلزام للمجتمع بأن يتقبل قوما يشاركونه الحياة، ويقاسمونه الموطن، ولا يشاركون في تحمل أعبائه، ومجاهدة أعدائه - لما كان هذا الحكم كذلك، عقب الله عليه بما يخفف وقعه على المؤمنين، ويومىء الى حكمته التشريعية، فقال: ﴿**ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم**﴾، أي فمن رحمته تعالى بكم صرفهم عن الاشتراك الايجابي في حربكم، ومن الحكمة أن تقبلوا منهم هذا الموقف السلبي بينكم وبين أعدائكم، فذلك كسب لكم في الواقع، إذ هو تقليل لعدد خصومكم، وربما خطوا بعد ذلك خطوة ايجابية لمصلحتكم كما هو الشأن فيمن يعاشر قوما ويواطنهم ويعاملهم، فمرور الزمن كفيل بأن يجعلهم لكم.

وقد جعلت الآية على هؤلاء وأولئك - وهم الذين استثنوا من الأولين - شرطين: أن يعتزلوا المسلمين فلا يقاتلوهم، وأن يلقوا اليهم السلم، أي يخضعوا لحكمهم مسالمين غير مناهضين ولا متسببين في إحداث أي قلق، وهذان شرطان عادلان، ولا ضرر على هؤلاء إذا كانوا صادقين في موقفهم الحيادي.

وذلك قوله تعالى: ﴿**فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا**﴾.

وشرط عدم المقاتلة مفهوم من الكلام من قبل، ولكن الآية عادت اليه لأنه هو الأساس في قبولهم، ولترتب عليه ما جاء بعده من القاء السلم، أي الجنوح الى المسالمة والطاعة.

القسم الرابع:

فريق يريدون أن يجمعوا بين إرضاء المؤمنين ليأمنوهم، وإرضاء الكافرين ليأمنوهم، وأولئك هم الذين يقول الله فيهم: ﴿**ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم، كلما ردوا الى الفتنة أركسوا فيها**﴾.

قال ابن كثير في تفسيره: «هؤلاء في الصورة الظاهرة كمن تقدمهم، ولكن نية هؤلاء غير نية أولئك، فإن هؤلاء قوم منافقون، يظهرون للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ولأصحابه الاسلام ليأمنوا بذلك عندهم على دمائهم وأموالهم وذراريهم، ويصانعون الكفار في الباطن فيعبدون معهم ما يعبدون ليأمنوا بذلك عندهم، وهم في الباطن مع أولئك، كما قال تعالى: ﴿**وإذا خلوا الى شياطينهم قالوا إنا معكم**﴾ الآية، وقال ههنا: ﴿**كلما ردوا الى الفتنة أركسوا فيها**﴾ أي انهمكوا فيها»[1].

وابن كثير في هذا يريد أن يبين الفرق بين هذا الفريق والفريق الذي قبله، فإنهما في الظاهر سواء، فكيف عدتهما الآيات فريقين.

---

(١) ٥٣٢ من الجزء الثاني من تفسير ابن كثير.

والفـرق الذي ذكره يتلخص في أن الفريق المتقدم هم الواقفون موقف حياد سلبي، لا يصدر منهم شيء فعلي يسيء الى المؤمنين أو الى الكافرين، أمـا الفـريق الأخيـر فلهم موقف إيجابي عند المسلمين، وموقف إيجابي عند أعدائهم، فهم ليسوا حياديين، بل هم منافقون يأتون هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه.

لكن ابن كثير لم يوضح لنا كيف يؤخذ هذا الفرق من الآية، ولعل ذلك يؤخذ من أن التعبيـر الذي عبر به في شأن الفريق المتقدم هو: ﴿**جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم**﴾ فهو وصف يفيد الحيرة والتحرج من فعل هذا أو ذاك، فليس لهم ارادة يبطنونها وتوجههم الى عمل مسيء يخرجون به عن حيادهم، أما التعبير في شأن الآخرين فقد جاء بقوله تعالى: ﴿**يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم**﴾ فلهم إرادة وهدف، والمريد يفعل ويقدم ويحاول، بخلاف المحرج الذي يؤثر أن يقف مما أحرج به موقف الحياد، وفي قوله تعالى عنهم بعـد ذلك: ﴿**كلما ردوا الى الفتنة أركسوا فيها**﴾ ما يدل على معنى الاستجابة والمطاوعة لمن يدعونهم الى الفتنة، ويردونهم اليها، بل معنى الانهماك فيها، وهذا الأخير، قد يفهم من كلام ابن كثير.

والحكم الذي حكم الله تعـالى به في شأن هؤلاء هو عدم القبول منهم، ورفض موالاتهم، وأنهم إذا لم يعتـزلوا المسلمين ويلقوا اليهم السلم، فيكونوا خاضعين لهم، تنالهم أحكامهم، كان عليهم أن يأخذوهم أخذ الأعداء، ويقتلوهم حيث ثقفوهم أي وجدوهم كما يقتل الأعداء.

وحكمـة ذلك واضحـة، فهم في الحقيقة أعداء، وإن حاولوا أن يظهروا بمظهر الأصدقاء.

وهنا سؤال: ما هي العلامة التي جعلت على هؤلاء؟ وماداموا يتظاهرون أمامنا بأنهم معنا، فكيف نعاقبهم بهذه العقوبة دون أن نعرف بواطنهم؟

والجواب: ان الآية تقول في شأن هؤلاء: ﴿**ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم**﴾ ... الخ، وليس المراد من قوله ﴿**ستجدون**﴾ أنهم سيلتقون بهم أو يصادفونهم، ولكن المراد به وجدانهم كذلك، على معنى وجدته يفعل كذا، فلا بد أن يكون هناك دليل قائم على أنهم يريدون ذلك، حتى يصح أن يقال: وجدناهم يريدون ذلك، أي علمناهم وتحقق لدينا أمرهم.

هؤلاء هم الأقسام الأربعة الذين قسمتهم الآيات لهذا الصنف من المنافقين، وبينت للمسلمين حكم كل قسم منهم، وقدمت لذلك حكما عاما يشملهم، وتساؤلا انكاريا عن سر تردد المؤمنين فيهم، إذ تقول: ﴿**فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا**﴾.

بذلك استوفت سورة «النساء» الكلام عن جميع المنافقين الذين كان لهم اتصال بالمجتمع المدني - وهم في كل مجتمع آفته ومصادر القلق والارجاف والاختلال فيه - وبينت للمسلمين صفاتهم، وتصرفاتهم، ووجوه كيدهم، وخفايا سعيهم، وأساليب فتنهم، وأعطتهم في كل ذلك سلاحا يدرأون به عن أنفسهم، وعن مجتمعهم، وعن دينهم، وعن نظام حياتهم.

ولا شك أن في هذا كله صيانة للمجتمع الاسلامي، وتوطيدا لأركانه وتبصيرا لأهله، وتثبيتا لدعائم الايمان والمثل الطيبة فيه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

٦

الآيات الموجهة

تمهيد:

القرآن الكريم كتاب هداية وتوجيه الى الصراط المستقيم، أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض، والذي وضع السنن والنواميس لهذا العالم، وما نعرفه منه وما لم نزل نجهله، والذي خلق الانسان ويعلم ما توسوس به نفسه وهو أقرب اليه من حبل الوريد.

والقرآن في عظمته، كالكون في عظمته، كلاهما آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم، فكل من فكر في الكون ممن أوتوا العلم تجلت له عظمة الكون، وزاد علمه بقوانينه المطردة الثابتة الدالة على قدرة مبدعه، ومازال الذين أوتوا العلم يصلون كل يوم الى جديد منه يملأ القلوب إيمانا، ويضرب في وجوه الملحدين وأقفيتهم، حتى لقد أصبح الإلحاد في عصرنا الحاضر ضربا من هوس الجهلاء وما نظن أن عاقلا يرضاه لنفسه، ولقد يأتي على الناس يوم يقال فيه: كان الناس قديما يلحدون ويشكون في وجود إله قادر حكيم عليم. فيكون هذا القول عجبا كما نخبر نحن الآن عن أعاجيب معتقدات أهل الجاهلية الأولى.

والقرآن الكريم ـ في بابه أيضا، وفي غرضه الذي يرمي اليه ـ له مثل هذه

العظمة الكونية، ومثل هذه الدلالة على قدرة الله، وعلم الله، ورحمة الله، فكل من فكر فيه وتأمله ودرس نواحيه، تجلت له عظمته، وتكشفت له بعض أسراره، ولأمر ما حفظه الله من الضياع والتحريف والتبديل وضمن له البقاء والخلود، فهو صنو هذا الكون في عظمته، وهو نظيره في دلالته، وهو قرينه الذي يبقى معه أبد الدهر، وإن حاول بعض المساكين من الكارهين والحاقدين أن يزيلوه أو يحرفوه أو يصرفوا عنه أو يشككوا فيه، وإنما هو نور الله وبرهانه: **﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا﴾ ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾**.

وإني لأعتقد أنه سيأتي على الناس يوم يقولون فيه: لقد كان بعض من قبلنا، يشكون في القرآن، ويعرضون عن هدى القرآن، ويتخذون هذا القرآن مهجورا، فيعجب السامعون من هذا القول، كما نعجب نحن الآن ممن كانوا ينكرون «كروية الأرض».

ولقد وصف الله تعالى كتابه في جملة منه مؤلفة من سبع كلمات، ولكنها جامعة كافية شافية، تلك هي قوله تعالى: **﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾**[1].

ومن مظاهر تلك الهداية للتي هي أقوم ما نراه فيه من آيات لها قوة توجيهية دافعة، تحسب كل آية منها في بابها وغرضها الذي سيقت له ـ وكل جملة من آية ـ قانونا لا يحتاج معه الى قانون، ودستورا ثابتا لا يمكن أن يدركه البطلان أو التعديل، كأنه ناموس من نواميس هذا الكون.

ولما كنا بصدد البحث في سورة «النساء»، وكانت هذه السورة غنية بهذه الآيات التوجيهية القوية التي ترمي الى طبع المجتمع بطابع معين من الأخلاق والسلوك وقواعد التعامل، فإننا نجعل من آياتها موضوعات ومثلا لهذا اللون من التوجيه القرآني، فتحقق بذلك غرضين: غرض الدرس لناحية من السورة، وغرض التمثيل لهذه الظاهرة القرآنية.

---

(١) الآية ٩ من سورة الاسراء.

وقـد أحصينـا الآيـات التوجيهية في هذه السورة فوجدناها تزيد على الستين، وذلك غير الآيات التي سنتحدث عنها في غير هذا الصدد، مما يراد به بعث الأمل والاطمئنان النفسي في أفراد المجتمع.

وتشترك هذه الآيات كلها في أن لها رسالة في المجتمع واحدة، وفي أن لهـا أسلوبـا معينا من شأنه أن يؤثر تأثيرا قويا، متجددا، منطبقا، على آلاف الحالات في كل مجتمع.

فأما الرسالة الواحدة المشتركة بين هذه الآيات، فهي وضع دوائر ومناهج كلية يرجع اليها الناس في أهم النواحي التي يدور حولها نشاط المجتمع، وإن شئت فقل: ان هذه الآيات بمثابة «منارات» تنبعث منها أضواء كاشفة متجددة متحركة تهدي كل من توجه اليها.

وأما أسلوبها الواحد المعين، فهو أنها أخرجت كلها مخرج الأمثال التي تعتمد اللفظ الوجيز، والمعنى الوسيع، والصلاحية للانطباق على كثير من الصور.

ونورد هنا بعض هذه الآيات مرتبة بحسب ورودها في سورة «النساء»، مشفوعا كل منها بما يبين غايتها وأهميتها التوجيهية في المجتمع.

١ - ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، ان الله كان عليكم رقيبا - ١﴾.

هذا هو ختام الآية الأولى من السورة، وقد سبق بتقرير مبدأ «المساواة» المترتب على أن الناس جميعا ناشئون من أب واحد، وأم واحدة، ولهم رب واحد، والناحية التوجيهية في هذا الختام ذات شعبتين:

أحـداهما: راجعة الى العقل، وهي الأمر بتقوى الله الذي خلق الناس، والذي هو ربهم أي مربيهم بفضله ونعمه، والذي له بحكم الفطرة في نفوس خلقه كل مهابة وإجلال، حتى أنهم ليتساءلون به، أي يسأل بعضهم بعضا باسمه جل شأنه، فالعقل السليم، والتفكير المستقيم، يؤديان الى هذه التقوى، ويحملان الانسان على التمسك بها.

والشعبة الأخرى: راجعة الى العاطفة، فإن الانسان إذا عرف أن بينه وبين اخوانه في الانسانية رحما، وأن هذه الرحم تناديه أن يصلها، ويعرف لها

حقها، وأنه هو أيضا كثيرا ما يسأل اخوانه بها، ويناشدهم حقها، فإن عاطفته تتحرك وتشب، فتكون الرحمة، ويكون الحنان، ويكون التعاون.

فالله ـ جلت حكمته ـ لا يكتفي بأن يقيم المجتمع على مبدأ المساواة، فإن المساواة لا تستلزم المراقبة، ولا تستلزم الرفق والحنان، ولكنه ـ سبحانه ـ يوجه الى أن يكون لهذه المساواة جناحان من مراقبة الله، ومن عاطفة الرحم، فالأول يحول بين المتساويين وأن يظلم أحدهما الآخر، والثاني يحث كلا منهما على معاملة الآخر بما هو إحسان وفضل يناسبان الأخوة والرحم.

وبهذه الثلاثة: القلب ـ وهو المساواة ـ والجناحان ـ وهما التقوى، والرحم ـ يشق المجتمع طريقه في الحياة قويا عادلا متعاونا متراحما.

ثم ان التعبير بكلمة «الأرحام» مجموعة هكذا، قد يساعد على أن نتوسع في المعنى المراد منها، فإن المجتمع ذو وشائج، ليست فقط من الرحم المادية ـ رحم الأمهات والآباء ـ ولكنها أيضا من الصلات التي تفرضها ظروف الحياة، وتدعو اليها طبيعة الانسان باعتباره مخلوقا اجتماعيا مدنيا، لا يستطيع أن يعيش وحده، ولا يمكن أن يستغني عن صنفه.

وهنا تتسع دائرة الارحام، فالزملاء في علم بينهم رحم من هذه الزمالة يجب أن ترعى، ويعرف لها حقها، والزملاء في صناعة كذلك، وفي وطن كذلك، وفي جوار كذلك، وهكذا تتعدد الأرحام بتعدد الصلات والزمالات، فتتكون منها روابط عاطفية من شأنها أن تيسر أمر المجتمع، وأن تشيع فيه الرفق والاحسان والبر، وأن تنفي عنه العسر والحرج والأثرة.

وكل هذا في ظل رقابة الله التي توحي الآية بما يجب على المؤمنين من استشعارها دائما: ﴿ان الله كان عليكم رقيبا﴾.

* * *

٢ - ﴿ومن كان غنيا فليستعفف، ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف﴾ - ٦ .

جاءت هاتان الجملتان في سياق ارشاد الأوصياء الى ما يسلكونه في شأن اليتامى:

والمعنى التوجيهي هنا يرجع الى الايحاء باتباع هذا المبدأ في كل حالة

اجتماعية حسبية يسند فيها عمل اصلاحي لمن يختار له، كعضوية الجمعيات الخيرية، أو جمعيات التربية والتعليم، أو المجالس النيابية، أو مجالس المصالحات، أو نحو ذلك.

فالقاعدة التي وجهتنا اليها الآية هي: أن يؤدي القادرون الأغنياء ما يختارون له من أمثال هذه الأعمال حسبة لله تعالى دون مقابل، أما من كان فقيرا محتاجا فليأخذ الأجر على ذلك، أو المكافأة بالمعروف، والمعروف في مثل هذا أن يكون هناك جانب من التبرع بالجهد، وجانب من المكافأة عليه، ولهذا لا تقدر المكافأة في مثل ذلك تقديرا سخيا، وإنما تقدر في شيء من التحفظ والرعاية للصالح العام.

***

٣ - ﴿تلك حدود الله - ١٣﴾.

جملة على إيجازها لها قوة إيحائية توجيهية، فإذا استقر معناها في مجتمع ما، وقى كثيرا من السيئات والمنكرات والجرائم والصعاب، لأنه ليس هناك ما يثير في المجتمعات الفتن، أو يصيبها بالقلق، أو يفسد عليها جو الهدوء والأمن والقرار، إلا تعدي حدود الله، وحدود الله هي الخطوط التي رسمها للناس في كل ناحية من نواحي الحياة، ولم تأت الشريعة إلا لترسم هذه الخطوط وتأمر الناس بالوقوف عندها، وتنهاهم أن يتخطوها أو يقربوها.

فلو ان هذا المعنى التوجيهي كان شعارا لكل فرد في مجتمعه، وفي ما بينه وبين نفسه، وفي ما بينه وبين أعضاء أسرته، وفي ما بينه وبين ربه، لكان عليه أن يسائل نفسه: هل أفرط أو فرط؟ هل خرج عما ينبغي لمثله؟ هل حكم حدوده هو ومقاييسه هو، أو حدود الله ومقاييس شريعته؟.

ولا ينبغي أن يفهم أن حدود الله هي خطوط تحكمية أمر الناس أن يلتزموها ويقفوا عندها، دون أن يكون لها داع من صلاحهم وخيرهم، لا ينبغي أن يفهم ذلك، فإن الاسلام لا ينافر أي اصلاح، ولا يدعو إلا الى ما هو خير وبر، ولا ينهى إلا عما هو فساد وشر، وحيثما تكون المصلحة فثم أمر الله، وحيثما تكون المفسدة فثم نهي الله، غير ان الله تعالى لم يترك للناس تقدير المصالح

والمفاسد على حسب الأهواء، واختلاف النزعات والآراء، ولكنه بين وهدى الى جنس ما يعتبر، وجنس ما لا يعتبر، مما يحفظ على الشريعة طابعها وقواعدها ومثلها العليا، ويجعلها ثابتة أمام الأهواء، متأبية عن مجاراة الذين يريدون أن يطوعوها لمقاييسهم ومثلهم وما تسيغه أذواقهم ونظراتهم، فإن هذه الشريعة قائدة وليست مقودة، وإن الله تعالى قد شرعها على علم وحكمة، ولم يضعها موضع التجارب كالقوانين البشرية، والتقاليد المتقلبة.

وإذن فالمبدأ الذي يجب أن يسري في المجتمع، وأن يعتنقه جميع أفراده وجماعاته وتشكيلاته هو: ﴿**تلك حدود الله**﴾.

***

٤ - ﴿وعاشروهن بالمعروف، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا - ١٩﴾.

مبدأ توجيهي في صميم الحياة الزوجية له شقان:

أحدهما: أمر حاسم للرجال بأن يحسنوا معاشرة النساء، ومقياس هذا الاحسان هو المعروف، والمعروف لفظ جامع لكل صورة من صور السلوك القويم، والمعاملة العادلة: الرفق بالزوجة معروف، وتمكينها من العيش المناسب لمستواها الاجتماعي معروف، وإشعارها بالاحترام والحب معروف، ولقاء أهلها بالبشر والاكرام معروف، ومشاورتها في شؤون بيتها وأطفالها معروف، وهكذا ... أما إلقاء حبل الزوجة على غاربها فليس بمعروف، وأما تمكينها من الاسراف والبذخ في ما لا ينفع، فليس بمعروف، وأما الاذن لها بأن تقابل في بيتها أصدقاء زوجها في غيبته فليس بمعروف، وأما تركها تحول مال زوجها وما في بيته الى أهلها وبيت أقاربها فليس بمعروف، وأما الاغضاء عنها حين تخرج من بيتها في صحبة قريب من أبناء خالها، أو من أبناء عمها، لتتنزه أو لتشهد تمثيلية، أو لتزور أسرة، فذلك كله ليس من المعروف.

والآخر: أن البيوت والزوجيات لا يلزم أن تبنى دائما على الحب، فقليل من الأزواج والزوجات من يتبادلان من الحب كأسه المترعة، فلو توقف بقاء الزوجية على عامل الحب فقط لخرب كثير من البيوت، ولانفصمت آلاف

الـزوجيات، ولكن هنـاك ما يعوض نقص هذا الجانب إذا نقص، وضياعه إذا ضاع. فالزوجية شركة فيها مصاحبة، وفيها ملاطفة، وفيها أولاد، وفيها تعاون على تذليل صعاب الحياة، وفيها مع هذا كله أمل في المستقبل، فلعل شيئا من ذلك يوطد ويقوي، ويحيي العاطفة، ويفتح القلوب، ويؤدم بين الزوجين، وتلك هي المعـاني التي يوحي بهـا قوله تعالى: **﴿فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا، ويجعل الله فيه خيرا كثيرا﴾**.

* * *

٥ - ﴿ولا تتمنـوا ما فضـل الله به بعضكم على بعض، للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن - ٣٢ ﴾.

يمكن أن تحمـل هذه الآية على النهي عن التلهف الذي يقع فيه بعض الناس إذا رأوا انسانا يفضلهم بشيء من نعمة الله فهم يتحسرون ويتوجعون ويقولون صراحة أو في أنفسهم: ألسنا نحن أولى بهذاالفضل، ولكن هذا حظنا. فمثل هذا التمني والتهلف والتحسر من شأنه أن يفسد قلوب أصحابه، وأن ينشر الحسد والضغينة بين أفراد المجتمع، وربما جر أصحابه الى الاعتداء والظلم وكتمان الحق وإيذاء الناس شفاء للنفس، وكلها سيئات يريد الله أن يقي المجتمع شرها.

وذلك - طبعا - غير الغبطة، فلا يجوز لك أن تتمنى مال غيرك حسدا، ولكن يجوز لك أن تقول: اللهم ارزقني مثله. والدليل على ذلك قوله تعالى في آخر الآية: **﴿واسألوا الله من فضله﴾**.

وهذا معنى حسن في ذاته، ولكن قوله تعالى بعد هذا النهي عن التمني: **﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا، وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾** يجعلنا نرجح أن الكلام إنما هو في شأن يرجع الى الرجال والنساء على وجه المقابلة، فهو توجيه للرجـال والنســاء أساسه لفت الأنظار الى طبيعة كل منهما، وما فضل الله به بعضهم على بعض، فالرجـال مخلوقـون لغـرض، ولهم وظيفتهم الطبيعية في الحياة، وقد هيئوا على وضع خَلْقي وخُلُقي يلائمها ويساعد على أدائها، والنساء كذلك خلقن على وضـع جسمي ونفسي يلائم ما قصد منهن، وكل في ناحيته

مفضل بمزايا اكتسبها بحكم الطبيعة، أي بحكم السنن الإلهية العادلة الحكيمة، فلا ينبغي أن يتطلب الرجال ما هو من خصائص النساء، ومما فضلن به وميزن، ولا ينبغي أن تتطلب النساء ما هو من خصائص الرجال ومما فضلوا به وميزوا، فإن ذلك تمن، والتمني هو طلب ما لا يكون، وهو خروج على الطبيعة، ومحاولة للخلط في نتائج لا تبررها المقدمات الواقعية.

فإذا ساد هذا التوجيه في المجتمع، كان له إيحاء في كثير من جوانبه، وكان جديرا بأن يحل كثيرا من المشكلات المعقدة، وأن يصلح كثيرا من الأوضاع الفاسدة، وأن يحفظ على المجتمع طبيعته وفطريته.

* * *

٦ - ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم - ٣٤﴾.

وهذا توجيه آخر له صلة بالتوجيه السابق، وهو نتيجة من نتائجه.

ان الاسرة مجتمع صغير يتألف منه ومن أمثاله المجتمع الكبير، ولا بد لكل مجتمع من رياسة وسلطة اليها يرجع، وبها يحسم، وإلا تعرض المجتمع للفوضى وتصادم الآراء والرغبات، فالأسرة بحاجة الى أن تسند هذه السلطة الى أحد أعضائها، والرجل أولى الزوجين بأن يعهد اليه بذلك:

أولا: لأن هذا حكم الطبيعة، إذ هو الأقوى على تحمل الأعباء، وتقبل التبعات، والأقوى هو الأجدر بالتقديم.

وثانيا: لأنه هو المكلف بالانفاق، وباذل المال من حقه أن يكون صاحب القول الفصل فيما يستند الى ماله وبذله.

وفي التعبير بقوله: **﴿بما فضل الله بعضهم على بعض﴾** هنا، وبقوله: **﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾** في الآية السابقة، إيحاء بأن الزوج والزوجة يكونان شيئا واحدا هو كل، الزوج بعضه، والزوجة بعضه، وتفضيل بعض أعضاء الجسم الواحد على بعض ليس معناه الأفضلية بمعنى أنه أعز وأغلى، ولكن معناه فضل الاختصاص بشيء، فجسم الانسان مثلا كل له أجزاء: العين جزء، واليد جزء، والأنف جزء، والرأس جزء، وهكذا ... ولكل جزء

مزيتـه ووظيفته الخاصة التي لا يغني عنه فيها جزء آخر، فالفضل هنا بمعنى المزية، والتفضيل بمعنى التمييز والتخصيص، فالأنف من حيث وظيفته ومزيته له قيمته وفضله وحاجة الانسان اليه، والعين من حيث وظيفتها ومزيتها لها مثل ذلك، وفضـل هذا لا يعارض فضل ذاك، ولكن إذا أراد الانسان أن ينظر فإنه لا يوجه أنفه للنظر، وإنما يوجه عينه، وإذا أراد أن يشم، فإنه لا يوجه الى الشم أذنه، ولكن يوجه أنفه، وإذا أراد أن يسعى سعى برجليه لا بيديه ... وهكذا.

فإذا عرف المجتمع للرجل والمرأة وضعهما الطبيعي وأذعن لهذا الوضع، استراح: فاستراح الرجال من النساء، والنساء من الرجال، على سنة الاذعان لتوزيع الاختصاص.

***

٧ - ﴿إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما - ٣٥﴾.

توجيـه عقيـدي عملي، فالله تعالى يربط توفيقه بين الزوجين بإرادتهما الاصلاح، فيقول لهما: اتجها الى إصلاح ذات بينكما أولا، فإذا اتجهتما الى ذلك منحتكما توفيقي برحمتي وعنايتي، وتلك سنة من سنن الله في الخلق، لا بد من الاتجاه والارادة من العباد، كسبب كسبي عملي، فإذا فعلوا ذلك كان التوفيق الإلهي رائدهم وحليفهم.

وفي هذا توجيه للأزواج والزوجات الى محاولة الاصلاح، وإلى إرادته، وإلى التماس توفيق الله اليه، وفيه إيحاء عام للمجتمع بأن لكل شيء أسبابه ومقـدمـاتـه الطبيعية، وليس الأمر بمجرد الدعاء والتماس التوفيق دون سعي للوصول اليه، والحصول عليه.

***

٨ - ﴿ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا - ٣٦﴾.

الاختيـال والفخر والتشدق بالأحساب والأنساب وبما فعل الانسان من أفعال، وبما قال من أقوال، باب يدخل منه على المجتمع كثير من الفساد.

فالمختـال يغتـر، ويجـره غروره الى اعتقـاد أنه فرد ممتاز، ويجره هذا

الاعتقاد الى الترفع عن الناس، ويجره هذا الترفع الى القسوة والجمود والضن والعزلة، فيصبح في المجتمع كارها مكروها، منقطعا مقاطعا.

والاختيال هو منشأ ما يسمونه الآن «بالارستقراطية» وهي ضد «الشعبية» التي تقوم على الاندماج في الناس، والتواضع لهم، ومشاركتهم عواطفهم في سرائهم وضرائهم. فالقرآن يوجه المجتمع الى هذا الخلق، ويكره اليه خلق الترفع والاختيال، ويعبر عن ذلك بنفيه حبه عمن كان مختالا فخورا، والله لم ينف حبه إلا عن المقترفين كبائر الإثم، ونتيجة نفي حبه عنهم هي مقتهم، وعدم توفيقهم في ما يعملون، ومضاعفة العذاب عليهم يوم يحاسبون.

ومن الأمثلة التي توضح هذا المعنى قوله تعالى: **﴿إن الله لا يحب المفسدين﴾**.

فالفساد إجرام فوق العادة، والمفسدون أعداء المجتمع، العاملون على تقويض بنيانه، وزعزعة أمنه واطمئنانه، لذلك يمقت الله الفساد والمفسدين ويقول: **﴿ان الله لا يصلح عمل المفسدين﴾ ﴿زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾ ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾**.

ومثل هذا يقال في بقية المواضع التي نفى الله فيها حبه عن المقترفين كبائر الذنوب: **﴿ان الله لا يحب الكافرين﴾** و **﴿لا يحب الفرحين﴾** و **﴿لا يحب من كان خوانا أثيما﴾** ... الخ.

والفخور ـ وهو الذي تعود أن يملأ ماضغيه فخرا وتحدثا بمزاياه أو مزايا آبائه وأجداده ـ إنما هو انسان يحس بضعف ونقص فيحاول أن يخفيهما، ونراه عادة ثقيلا على الناس، يتحامونه، ولا يحبون الجلوس اليه، ويضنون بأوقاتهم أن يضيعوها معه هباء، فهو في الحقيقة يسقط نفسه، ويعطي الناس دليلا على ضعف همته، وعلى ما يشعر به من نقص، وهذا ينتهي به وبالمجتمع الى أن يتبادلا الكره والضغينة وسوء الظن.

وبهذا كانت هذه الجملة التي ختمت بها إحدى آيات سورة «النساء»،

منبهة الى خلق ذميم يجب أن ينبذ، وإلى خلق حميد يجب أن يؤخذ، وفي هذا وذاك صلاح للمجتمع.

* * *

٩ - ﴿ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا - ٣٨﴾.

هناك أفراد في كل مجتمع يحالفون الشيطان، فتراهم كأنهم يحتضونه ويحتضنهم، أفكارهم دائما سوداء أو حمراء، وأعمالهم دائما سوداء أو حمراء، ونعني بالسواد تلك الأفكار أو الأعمال الافسادية أو الايذائية: أعمال الشر والتحطيم والتخريب، وأفكار الحقد والحسد والضغينة على الناجحين والمثمرين والعاملين، كما نعني بالحمراء تلك الأفكار أو الأعمال التي ترجع الى الشهوات الجامحة الفاسقة البهيمية التي تستبيح كل حمى، وتجترىء على كل منكر، والتي تعربد، وتعيث، وتفسد، ولا تعرف الفضيلة، ولا تؤمن بأن في الدنيا رذيلة.

هؤلاء هم حلفاء الشيطان، وهؤلاء هم أشد ما يبتلى به مجتمع من المجتمعات.

وقد عبرت عنهم بحلفاء الشيطان، على شيء من التسامح في تفسير اللفظ القرآني، ولفظ القرآن أعمق معنى وأدق تصويرا لأنه جعلهم «قرناء الشيطان»، والقرين وزين قرينه، فهم لا يقلون عن الشيطان منزلة في الافساد والشر، وقد جاء مثل ذلك في قوله تعالى: ﴿**ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين**﴾.

ولا شك ان هذه الجملة الموجزة فيها توجيه الى الخير، بالتحذير من مصادر الشر، وإن هذا توجيه له أثره العظيم في صلاح المجتمع، واستقامته على سبل الرشاد.

ولهذه الجملة أيضا إيحاء جانبي باختيار القرين، فإن المرء على دين خليله، وكل قرين بالمقارن يقتدي.

وقد جاء في القرآن الكريم تحذير كثير من قرناء السوء، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين. وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون. حتى إذا جاءنا قال ياليت بيني**

وبينك بعد المشرقين، فبئس القرين﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس، إنهم كانوا خاسرين﴾[2] وقوله تعالى في قرين كاد يضل قرينه، ولكن الله نجاه منه بنعمته، وأدخله الجنة: ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون. قال قائل منهم إني كان لي قرين. يقول أئنك لمن المصدقين. أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون. قال هل أنتم مطلعون. فاطلع فرآه في سواء الجحيم. قال تالله ان كدت لتردين. ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين﴾[3].

***

١٠ - ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل - ٥٨﴾.

والنواحي التوجيهية التي يفيدها هذا الأمر الجامع المحيط، أوضح من أن ننبه اليها، وقد تقدم في هذا الكتاب بعض الحديث عن «الأمانات» وعن «العدل» في فصل سابق، فمن شاء فليرجع اليه[4].

***

١١ - ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم - ٥٩﴾.

***

١٢ - ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت، ويسلموا تسليما - ٦٥﴾.

---

(١) الآيات ٣١، ٣٧، ٣٨ من سورة الصافات.

(٢) الآية ٢٥ من سورة فصلت.

(٣) الآيات من ٥٥ إلى ٥٧ من سورة الصافات.

(٤) انظر من ٨٤ وما بعدها من هذا الكتاب.

١٣ - ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله. ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا - ٨٠﴾.

***

١٤ - ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا - ٨٢﴾.

وفي هذه الآيات الأربع توجيهات الى الحكم الاسلامي، ومصدريه الرئيسيين، وهما الكتاب والسنة، ومصدره المتجدد، وهو الاجتهاد الذي يقوم به «أولو الأمر» أي أهل الشأن والذكر.

وموضوع الكلام عن ذلك مستوفى هو قسم ما جاءت به السورة من الأحكام.

***

١٥ - ﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها، ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها - ٨٥﴾.

الشفاعة مأخوذة من الشفع ضد الوتر، ومعناها أن يشفع انسان غيره أي ينضم اليه ويؤازره.

وهي أمر جرت به عادة المجتمعات، فإن الناس تتفاوت في الجاه وفي القدرة على السعي، ومنهم من يضعف عن الحصول على الحق فيستعين بمن يشفعه ويقويه، ويسلك السبيل التي تؤدي اليه.

فليس من الطبيعي أن يطلب الى الناس أن يكفوا عن هذا اللون من ألوان التعاون والتآزر، ولذلك لم يمنعه القرآن بل حث عليه على شرط أن تكون الشفاعة حسنة، ونهى عن الشفاعات السيئة، وقد جاءت السنة بمثل ذلك أيضا.

فقد روي أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قال: «**إن هذا الخير خزائن، ولتلك الخزائن مفاتيح، فطوبى لعبد جعله الله مفتاحا للخير، مغلاقا للشر، وويل لعبد جعله الله مفتاحا للشر، مغلاقا للخير**».

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : «**ان لله عبادا اختصهم بحوائج الناس، يفزع الناس اليهم في حوائجهم، أولئك الآمنون من عذاب الله**».

وعن علي كرم الله وجهه قال: قال لي رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : «**يا علي، إن الله تعالى خلق المعروف، وخلق له أهلا، فحببه اليهم، وحبب اليهم فعاله، ووجه اليهم طلابه، كما وجه الماء في الأرض الجدبة لتحيا به، ويحيا به أهلها، إن أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة**».

ولكن الاسلام يمنع التآزر على الباطل، والتعاون على تلبيس الأمور، وعلى أن يشتبه الأمر فلا يعلم حقه من باطله، ولذلك يكره القرآن الشفاعة السيئة، وينهى عنها.

وقد جاءت الآية في كلا الجانبين بقاعدة عامة، فقررت أن من آزر بالشفاعة الحسنة كان له نصيب من هذه المؤازرة، أي ثواب عليها، وفضل فيها، ومن آزر بالشفاعة السيئة كان له كفل، أي حظ ونصيب منها مكفول لا بد منه.

والشفاعات الحسنة كثيرة، وكل انسان يستطيع أن يرسم صورة من صورها: بالمال يفعل ذلك من آتاه الله المال، فيشفع جهد المجاهدين والعاملين على تنوير العقول أو اصلاح اليتامى أو إيواء اللاجئين، وبالرأي يفعل ذلك من آتاه الله الرأي، فيشير على أهل الاصلاح، ويخلص النصيحة لهم، ويؤازرهم بذلك ويشفعهم أي يضم نفسه اليهم، وسعيه الى سعيهم، ورأيه الى رأيهم.

وبالقلم يفعل ذلك من علمه الله بالقلم، به يبين الحقائق، ويدفع في صدور المفسدين والمبطلين. ويدعو الى الخير، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيكون بذلك شفيع الحق والاصلاح ومؤيد دعوتهما.

وبالجاه يفعل ذلك من آتاه الجاه، فيوصل الى أصحاب الحقوق حقوقهم بسعيه الخير، وبشفاعته الحسنة.

وهكذا توجه الآية أفراد المجتمع الى فرص الخير، وصور التعاون، لكي

ينتهزوها مخلصين مصلحين محسنين، وتصرفهم عن وجوه الشر، فتحذرهم منها، وتخوفهم عواقبها، وتؤكد أن لهم كفلا محققا من شرها وسوئها.

ونعم التوجيه، ونعم التحذير.

***

١٦ - ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها - ٨٦﴾.

وهذا أدب عال يؤدب الله به عباده، ومن شأنه أن ينشر بين الناس المحبة والسلام، فإن الذي يبدأ صاحبه بالتحية قد صار متفضلا على صاحبه، متقدما لخطب وده، فإذا لم يقابل هذا الفضل بالشكر، فإنه يكون قد جافى واجب الأدب، وحق الأخوة، أما إذا أدى لصاحبه مثل تحيته، فقد أدى اليه حقه عدلا، ولكن الذي يحييه بأحسن من تحيته يشعره بأنه يقدره ويعرف له جميله، وما كان له من فضل البدء، وأنه لذلك لا يكتفي برد تحيته، ولكن يحييه بأحسن منها.

والقرآن يبدأ بأحسن الصورتين، وهي التحية بما هو أحسن، ليشعرنا بأن ذلك هو الأولى.

ولهذا الأدب إيحاء وتوجيه ربما كان اللفظ في الآية ناطقا بهما، فإن التحية ليست هي خصوص القول ولفظ السلام وما اليه من العبارات التي جرت عادة الناس أن يتبادلوها فحسب، ولكنها أوسع من ذلك، فهي تشمل أي معروف يقدمه انسان لآخر، فإذا زارني أخ مجاملا إياي، كان علي أن أعرف له تلك الزيارة، وأن أعدها تحية منه لي، يجب علي أن أحييه بأحسن منها أو أردها على الأقل، وإذا أهدى إلي صديق هدية تكريم ومودة عرفت له ذلك، وإذا تحدث عني بالخير عرفت له ذلك ... وهكذا نجد هنا أساسا لأدب التعامل في المجتمع، ومظهرا من مظاهر الشكر والعرفان، والعدل والاحسان.

***

١٧ - ﴿ودوا لو تكفرون كما كفروا، فتكونون سواء - ٨٩﴾.

تلك طبيعة الكافرين، وليس ذلك في الكافرين بالله فقط، وإنما ذلك شأن كل كافر بأي شيء، فإنه يود لو كان الناس كلهم مثله. حتى لا يكون لهم عليه فضل

الايمان بذلك الشيء، وفي هذا توجيه لأهل الايمان يقضي بأن يكونوا دائما على حذر ممن يكفرون بما آمنوا هم به، وألا ينتظروا منهم مسالمة لهم وتخلية بينهم وبين إيمانهم، حتى لو تظاهروا بأنهم لا يهمهم ذلك، أو بأنهم لا يعرفون التعصب، ولا يصادرون حرية العقيدة أو الرأي، فإن طبيعتهم تأبى عليهم ذلك.

وهذا أيضا توجيه لأهل الاصلاح، فإن بعضهم قد يغتر بما يبديه الكافرون بإصلاحه من مظاهر المودة، ومن معسول القول، وكاذب التأييد، فيتقبلهم ويتقبل منهم، ويمكن لهم وإنما مكن في الواقع لأعدائه على نفسه، وقد علمتنا حوادث التاريخ أن الكافر بفكرة ما، لا يمكن أن ينبعث في تأييدها ويخلص لها، فإن الانبعاث فرع الايمان، والاخلاص للشيء فرع الاقتناع به وإدراك أنه حق وخير، فإذا التمست من غير المقتنع أن يخلص لك، فأنت كالمتطلب في الماء جذوة نار، بل يجب أن تتوقع منه دائما أن يحاول إفساد أمرك، وإحباط سعيك.

ثم لا ينبغي أن يفهم من تعبير الآية أن الأمر قاصر على إفادة أن الكافر يود للمؤمن الكفر مثله، ويقتصر في هذا على المعنى النفسي الذي يدور بخلده، فهي مودة قلبية فقط. لا ينبغي أن يفهم ذلك، فإن مودة الشيء وحبه يبعثان على محاولة تحقيقه وإبرازه في الوجود فعلا، فكذلك نرى أن أهل الباطل الذين يحبون زلزلة أهل الحق، لا يكتفون بإبطان ذلك في أنفسهم، ولكن يعملون، ويجدون، ويفتنون في خلق أسباب الفتنة والارجاف واجتلاب السوء والشر، وما جاء بعد هذه الجملة في الآية يدل على أن المراد اجتنابهم والحذر منهم ومعاملتهم معاملة العدو المبين، إذ تقول: ﴿**فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله**﴾ أي حتى يقيموا الدليل بهجرتهم اليكم ودخولهم في ما دخلتم فيه على أنهم قد آمنوا بمثل ما آمنتم به حقا.

والواقع أن الحق والباطل عدوان، والخير والشر عدوان، والصلاح والفساد عدوان، والايمان والكفر عدوان، والعداوة في ذلك كله عداوة أصلية وبالذات، وليست لأمر عارض يمكن أن يزول أو يغض عنه، فكيف يكون بين النقيضين معاونة أو مهادنة؟

والمصلحون، وأصحاب المبادىء والمثل أولى الناس بأن يعرفوا ذلك،

وبألا يعرضوا أفكارهم القويمة ودعواتهم الاصلاحية، إلى أن تصاب بالشلل أو الخلل بالتماس نصرتها ممن لا يستطيعون نصرها، ولا يصلحون جندا ـ فضلا عن أن يكونوا قادة ـ لها.

***

١٨ - ﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة - ١٠٠﴾.

المراغم: السعة والمضطرب، أو المذهب والمهرب في الأرض.

والمراغمة: الهجران والتباعد، يقال راغم أهله، إذا هجرهم ونبذهم.

ومن شأن الانسان أن يكره الخروج عما ألف، وأن يستكين ويستنيم إذا وجد أنه يعيش عيشا رتيبا، ولو لم يكن خصيبا، فهو لذلك يكره الهجرة ولا يكاد يلجأ اليها إلا مضطرا، فالقرآن الكريم يريد أن يخلع الناس من هذه الاستكانة، وأن يبعث فيهم خلق النشاط والتحرك والتماس فضل الله بالسعي والتنقل، ولا سيما الذين يكونون في ضيق، فيجب عليهم أن يتطلبوا الخروج من ضيقتهم الى السعة، والذين يكونون في ضعف وذلة فيجب عليهم أن يلتمسوا مكانا يكون بالنسبة لهم مراغما، أي موضعا يراغمون به الذين استضعفوهم واستذلوهم، ويبتعدون فيه عنهم.

والشعوب تتفاوت في هذا الجانب، فترى شعوبا يميل أفرادها الى الهجرة والسعي في الأرض، والذهاب كل مذهب، ولذلك يفيدون سعة في الرزق وفي العلم، وفي آفاق التفكير، وفي الاشادة بأوطانهم، والدعاوة لأفكارهم، وتجد شعوبا أخرى لا يحب أفرادها الهجرة، بل يكرهونها ويخافونها ولا يجرمون عليها، فهؤلاء قد أخلدوا الى ما هم فيه، فلا يحبون أن يحيدوا عنه، وربما كره الواحد منهم أن ينتقل ولو في دائرة اقليمه الى بلد آخر يبعد عن بلده عدة أميال، ومن هنا نجد الموظف إذا نقل من بلد الى بلد قريب منه أو بعيد كره ذلك واشتكى منه، وعد ذلك إيذاء له، وملأ الدنيا صياحا وجلبة حتى يعود.

والهجرة مادمت تقصد بها الخير والصلاح لنفسك أو لوطنك أو لدينك، فهي في سبيل الله، ولا بد أن يعينك الله عليها، ويفرج ضائقتك فيها.

وهناك لون من الهجرة ـ هو الهجرة المؤقتة ـ أو هو بتعبير آخر، الرحلة والتنقل من بلدك الى بلاد أخرى لغرض شريف، ولهذا اللون قيمته العملية في شأن الأفراد والأمم، وقد وجدنا كثيرا من الرجال والنساء في شعوب أوروبا وأمريكا يتركون بلادهم، حيث الخير الكثير، والمال الوفير، والحضارة والنعيم، الى بلاد أفريقيا وآسيا وغيرهما من القارات التي يغلب عليها الخشونة والتقشف، وما حملهم على ذلك إلا رغبتهم في أن يؤدوا لبلادهم أو لأفكارهم أو لمطامعهم، خدمات كبرى، ونراهم يعيشون بين أهل الصحراء، أو في القرى الريفية، ويقلدون أهلها في مطعمهم ومشربهم وملبسهم ولغتهم وتقاليدهم، ليصبحوا مثلهم ويقدروا على التأثير فيهم، وكم قدم أمثال هؤلاء لشعوبهم من فوائد، وكم حولوا مجرى الحوادث لمصلحتهم، وكم أثروا في البلاد التي عاشوا فيها لمصلحة قومهم.

ولذلك يجب على المسلمين أن يتحولوا عن مواقفهم السلبية ولو بالنسبة الى اخوانهم في مشارق الأرض ومغاربها، وأن يكثروا من الرحلة والهجرة الى بلاد المسلمين، فإنهم بذلك يحيون روابط الأخوة الاسلامية، ويتعارفون ويلقي بعضهم الى بعض بما عنده، ويرسمون لبلادهم وشعوبهم خطط التعاون والمحبة.

إن الشعب المصري مثلا يستطيع أن يبعث بكثير من أبنائه الى باكستان وإيران وأفغانستان والملايو وأندونيسيا والصومال وغرب أفريقيا وغيرها، يبعث بهم الى هذه البلاد ليبينوا لهم موقف مصر وما الذي تقوم به لخدمة العروبة والاسلام ولحرية الشعوب، وما الذي تلاقيه من الاستعمار في سبيل تعويقها والحيلولة بين الشعوب الاسلامية وبينها، ونحو ذلك ولكن على شريطة أن يذهب هؤلاء الى تلك البلاد ليعيشوا بينهم مواطنين لهم، أو ليمكثوا فيهم سنوات طويلة، وأن يختاروا من الأقوياء في علمهم، وعقولهم، وإخلاصهم، وصبرهم، ومثابرتهم، ليستطيعوا أن يعطوا عن مصر صورة كريمة.

ويقال مثل هذا في شأن الشعوب الاسلامية الاخرى بينها وبين مصر، وبينها وبين غير مصر من البلاد، وبذلك تقوى الروابط العلمية، والدينية، والتجارية، والثقافية، والسياسية، ويشعر الذين لا يحبون للشرق أن ينهض

ويقوى بأننا جادون، وبأننا نسير في الاتجاه السليم، والخط المستقيم للوصول الى غاياتنا الشريفة، فيكفون عن حربنا ويلتمسون صداقتنا، ويلقون الينا بالسلم.

***

١٩ - ﴿ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا - ١٠٣﴾.

جاءت هذه الجملة ختـامـا مشعرا بالتعليل لما تقدم من تشريع صلاة الخوف، ولا شك أن الفريضة التي لا تسقط حتى في ميدان القتال، وعند ترقب المعمعة، فريضة مؤكدة ذات منزلة خاصة في الدين، وهذا شأن الصلاة، فإنها هي روح الايمان وشعاره، وأساس الدين وعماده، «**فمن أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين**» و «**بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة**».

والآية الكريمة موجهة الى هذه المنزلة، وقد صيغت بأسلوب مشتمل على عدة توكيدات:

فجاءت كما قلنا تذييلا وتعليلا لايجاب ادائها حتى في وقت الخوف، وذلك مؤذن بمكانتها من الدين.

وجاء الكلام عنها مؤكدا بلفظ: «**ان**».

وعبر فيه بقوله تعالى «**كانت**» ومعناها ثبت لها ذلك واستقر شأنا لها، ولفظ «**كان**» بهذا المعنى هو الذي جرى التعبير القرآني في مئات المواضع على أن يقرر به صفات الله من العلم المحيط، والقدرة التامة، والخبرة بما يفعله خلقه، الى غير ذلك، من مثل: **﴿وكان الله عليما حكيما﴾ ﴿ان الله كان غفورا رحيما﴾ ﴿وكان الله بما يعملون محيطا﴾ ﴿وكان الله على ذلك قديرا﴾**.

وفي سورة «النساء» نفسها من هذا الاسلوب في جانب الله جل جلاله، آيات كثيرة ذيلت مثل هذا التذييل، وقد تقدم الكلام في هذا الكتاب عن سر من أسرار ذلك[1].

---

(١) راجع ص ٣٦ من هذا الكتاب.

والغرض أن الصلاة قيل في تأكيدها أيضا «**كانت**» لإفادة أن ثبوتها وتقررها أمر لازم لا ينفك عنها.

ثم جاء التعبير بقوله تعالى «**كتابا**» أي فرضا مؤكدا مقررا كالكتاب المكتوب، واللوح المحفوظ، والقرآن الكريم يعبر بهذا التعبير عادة في شأن الأحكام التي لها طابع خاص يستدعي لونا من ألوان الطاعة والتقبل فوق المألوف، كقوله تعالى في شأن فريضة الصيام: ﴿**يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم**﴾[1]. وفي فرض القتال: ﴿**كتب عليكم القتال وهو كره لكم**﴾[2] **وفي الوصية للوالدين والأقربين**: ﴿**كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت، ان ترك خيرا، الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين**﴾[3].

ولما كانت إقامة الصلاة والمحافظة على أدائها متكررة بشروطها وفي أوقاتها أمرا لا يحتمله إلا أقوياء الايمان، أشداء العزم، عبر عن فرضيتها بالكتابة كما هو شأن القرآن، ولذلك يقول الله عز وجل في آية أخرى تقريرا لعظم أمر الصلاة، وأنها تكليف يقتضي تقبله تمام الايمان والخضوع: ﴿**واستعينوا بالصبر والصلاة، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين**﴾[4].

وقد عرضنا لهذا الاسلوب من أساليب القرآن الكريم في كتابنا «دعائم الاستقرار في التشريع القرآني»[5].

وجاء بعد ذلك وصفها بقوله تعالى: «**موقوتا**» أي ان لها أوقاتا محددة لا بد من فعلها فيها، وعدم تأجيلها وتأخيرها عنها، فلذلك نظم لها هيئة خاصة في حالة الحرب والخوف، تجعل من المستطاع أداءها وقتئذ، حتى لا تؤخر عن وقتها، وقد قررت الشريعة تمشيا مع هذا الروح، روح المحافظة على الصلاة: ان الصلاة تؤدى في كل حال، فمن لم يستطع أداءها قائما، أداها قاعدا، ومن لم يستطع

---

(١) الآية ١٨٣ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٢١٦ من سورة البقرة.

(٣) الآية ١٨٠ من سورة البقرة.

(٤) الآية ٤٥ من سورة البقرة.

(٥) راجع ص ٢١ من الكتاب المذكور.

أداءها قاعدا، أداها موميا برأسه، فمن لم يستطع أداها في قلبه، وهكذا مما يدل على بالغ العناية بها. وتشريع ألوان التخفيف حرصا عليها، وقطعا للأعذار من نفوس المتلكئين عنها، والمفرطين فيها.

وهـذا كله توجيـه لأفـراد المجتمع، بل دفع لهم بقوة الى الحرص، كل الحرص، والعناية كل العناية بشأن هذا الركن الأساسي من أركان الاسلام.

***

٢٠ - ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم - ١٨٠﴾.

من شر ما تبتلى به المجتمعات خلق الرياء والمصانعة، وذلك لأن المرائي غير مؤمن بما يرائي، ولكنه يفعله تظاهرا واجتلابا لغرض عند الناس، وذلك يؤدي الى ألوان من الفساد والخلل في المجتمع، فإن الأعمال التي تعمل رياء لا يمكن أن تكون أعمالا قوية ثابتة، فالمؤمن بجدوى عمل من الأعمال وصلاحه لذاته، يعمله في إخلاص وقوة وإتقان، والمرائي يكتفي بالمظهر دون المخبر، ولا يهمه أن يتقن العمل بمقدار ما يهمه أن يظهره، ثم ان المرائي يضرب للناس مثلا سيئا ربما احتذاه بعضهم وقلده، فيشيع في المجتمع هذا الخلق، ويكثر في الأمة تنـاول الأعمال تناولا سطحيا، يعتمد الظواهر، ويهمل الحقائق، فتضعف وتقل ثمراتها، وتتخلف في ميادين الحياة.

ونستطيع أن نلمس هذا المعنى إذا راقبنا الانتاج مثلا في مصنع من المصـانع، فإذا كان هذا المصنع قائما على الاخلاص، وكان عماله وموظفوه ومديروه مؤمنين بفكرته، حرصاء على أن تنجح وتؤدي الغرض المقصود منها، فإننا نراهم متعاونين في جد ومثابرة وحسن تفاهم، ونرى لذلك آثاره السريعة المنظمة في تقدم مصنعهم ونجاح فكرتهم، أما إذا كانوا غير مؤمنين بفكرتهم، بل يأخذونها أخذا صوريا، ويرائي بعضهم بعضا في شأنها، ويراؤون الناس كذلك مظهـرين أنهم يعملون ويجـدون، فإنهم لا يكـادون يصلون الى شيء، ولا يكادون يتقدمون الى الأمام خطوة، وإذا فعلوا شيئا فإنه يكون شيئا هزيلا ضئيلا، لا يصلح عليه شأن، ولا ينهض بمثله مجتمع.

وقل مثل هذا موازنا بين الزوجة المخلصة في بيت زوجها، والزوجة التي

تعيش في المظاهر وأساليب الرياء وليس لديها الايمان والاخلاص في الواقع.

وقل مثل هذا في الموظفين والفرق بين مصلحة من المصالح يتعاون رئيسها ومرؤسوها في اخلاص، ومصلحة أخرى كل من فيها يتظاهر ويرائي الناس أو الرؤساء أو المفتشين، ليخدعهم عن حقيقته، ويصرفهم عن إفساده أو إهماله أو عبثه.

وهكذا نجد أن الاخلاص هو أساس النجاح، وهو الباعث المنشط، والقائد المطاع، أما الرياء فهو مبعث التخاذل والضعف والتضييع.

وبذلك يظهر ما للآية من توجيه للمجتمع، وحث لأفراده على الاخلاص والايمان بأن الله معهم يراهم ويعلم ما يفعلون، وما فيها من إنكار على الذين يكون قصاراهم في أعمالهم وأقوالهم مراقبة الناس ومراءاتهم دون أن يستشعروا مراقبة الله، ويخافوا حسابه.

* * *

وهذه عشرون آية من الآيات الموجهة في سورة النساء، تحدثنا عن كل منها حديثا مختصرا نريد به أن نلفت الى ما فيها من توجيه اصلاحي للمجتمع، وتقويم لسلوك أفراده، كما نريد به التمثيل لفكرتنا في هذا النوع من آيات القرآن المنبثة في جميع سوره والتي لا تكاد تخلو منها بضع آيات متتابعة في أي موضوع من الموضوعات، مما هو خاصة من خواص القرآن الكريم، ومظهر من مظاهر قوله تعالى في شأنه: ﴿**ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم**﴾.

وحسبنا أن نورد هنا بعض ما بقي من الآيات الموجهة دون تعليق، فلسنا بعد ذلك بحاجة الى التعليق.

وها هي ذي:

٢١ - ﴿ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب - ٢﴾.

٢٢ - ﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾.

٢٣ - ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم، فليتقوا الله، وليقولوا قولا سديدا - ٩﴾

٢٤ - ﴿ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا

وسيصلون سعيرا - ١٠﴾.

٢٥ - ﴿آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا - ١١﴾.

٢٦ - ﴿وإن تصبروا خير لكم - ٢٥﴾.

٢٧ - ﴿يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا - ٢٨﴾.

٢٨ - ﴿ألم تر الى الذين يزكون أنفسهم، بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلا - ٤٩﴾.

٢٩ - ﴿أم لهم نصيب من الملك، فإذن لا يؤتون الناس نقيرا - ٥٣﴾.

٣٠ - ﴿ذلك الفضل من الله - ٧٠﴾.

٣١ - ﴿قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى - ٧٧﴾.

٣٢ - ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة - ٧٨﴾.

٣٣ - ﴿ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا، تبتغون عرض الحياة الدنيا - ٩٤﴾.

٣٤ - ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم - ٩٥﴾.

٣٥ - ﴿ولا تهنوا في ابتغاء القوم، ان تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون، وترجون من الله ما لا يرجون - ١٠٤﴾.

٣٦ - ﴿ها أنتم هؤلاء جادلتم عنها في الحياة الدنيا، فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة - ١٠٩﴾.

٣٧ - ﴿ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه - ١١١﴾.

٣٨ - ﴿لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس - ١١٤﴾.

٣٩ - ﴿يعدهم ويمنيهم، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا - ١٢٠﴾.

٤٠ - ﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب، من يعمل سوءا يجز به - ١٢٣﴾.

٤١ - ﴿ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن، واتبع ملة ابراهيم حنيفا - ١٢٥﴾.

٤٢ - ﴿وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما - ١٢٧﴾.

٤٣ - ﴿والصلح خير - ١٢٨﴾ .

٤٤ - ﴿وأحضرت الأنفس الشح - ١٢٨﴾ .

٤٥ - ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة - ١٢٩﴾ .

٤٦ - ﴿وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته - ١٣٠﴾ .

٤٧ - ﴿إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأتِ بآخرين، وكان الله على ذلك قديرا - ١٣٣﴾ .

٤٨ - ﴿فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا - ١٣٥﴾ .

٤٩ - ﴿فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره، إنكم إذن مثلهم - ١٤٠﴾ .

٥٠ - ﴿ان الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا - ١٤٠﴾ .

٥١ - ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا - ١٤١﴾ .

٥٢ - ﴿مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء - ١٤٣﴾ .

٥٣ - ﴿ان المنافقين في الدرك الأسفل من النار - ١٤٥﴾ .

٥٤ - ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم، وكان الله شاكرا عليما - ١٤٧﴾ .

٥٥ - ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم - ١٤٨﴾ .

٥٦ - ﴿وما لهم به من علم إلا اتباع الظن - ١٥٧﴾ .

٥٧ - ﴿رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل - ١٦٥﴾ .

٥٨ - ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق - ١٧١﴾ .

٥٩ - ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون - ١٧٢﴾ .

٦٠ - ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطا مستقيما - ١٧٤ - ١٧٥﴾ .

٧

الآيات المبشّرة

تمهيد:

١ – قديما تصور أحد الفلاسفة ما سماه «المدينة الفاضلة» أو «المجتمع المثالي» وفهم بعض الذين انساقوا مع الخيال أن تلك المدينة، وهذا المجتمع، هما أمل الانسان الذي يصبو اليه، وأن الحياة البشرية على هذا الكوكب ربما وصلت الى تحقيقه يوما ما، فيصبح الناس بلا أخطاء ولا ذنوب ولا جرائم ولا عقوبات ولا حدود، لأن كل فرد يعمل ما يجب عليه دون موجب إلا من ضميره، وينتهي عما ليس من شأنه وعما يضر غيره، أو يفسد شأنا من شؤون الحياة، ولا وازع له إلا من نفسه، وحينئذ تكون الحياة متعة صافية خالية من كل ما يكدرها أو يجعل الناس على حبهم إياها يتألمون منها، ويود بعضهم لو استطاع التخلي عنها.

الحقيقة أن هذا خيال فيه تسلية للنفوس، وأمل حلو قد يراود بعض الناس فيستريحون اليه من لأواء الحياة حينا، كما يستريح المرء عادة الى الآمال التي لا تكون، فشأن الانسان وطبيعة تكوينه أنه إنسان، ركبت فيه عوامل الاساءة والاحسان، والخطأ والصواب، والشر والخير، والفساد والصلاح، وهكذا من

المتقابلات والأضداد، ولولا ذلك ما صلح للحياة على الأرض، ولا استحق أن يكون هو الخليفة فيها، المخلوق لعمارتها بإذن الله، دون غيره من الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ودون الجان الذين خلقوا من مارج من نار ليمثلوا قوى العصيان والشر والتمرد.

إن الاسلام قد صور الانسان على هذه الطبيعة الجامعة بين الصلاح والفساد فيما جاء به القرآن من قصة آدم حين أراد الله أن يخلقه وأن يجعله خليفة في الأرض من دون الملائكة، فتساءل هؤلاء قائلين: ﴿**أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ قال إني أعلم ما لا تعلمون**﴾(1).

فقولهم ﴿«**من يفسد فيها ويسفك الدماء**﴾ معناه من يقع منه ذلك أحيانا، وفي ذلك دلالة على أن أمر هذا الانسان وطبيعة تكوينه ووظائف جسمه وأعضائه كانت منبئة بحاله، مفصحة عما سيكون من أمره في عمل الشر والفساد أحيانا، أما الخلق الآخر - الذين هم الملائكة - فإن طبيعة خلقهم ووظائفهم التي هيئوا لها، تجعلهم على حالة لا يقع معها الخطأ، ولا يقترف معها الإثم ولا العصيان والتمرد، وإذن، فبمقتضى علمهم وتفكيرهم، قالوا انهم أصلح لعمارة الأرض، والخلافة فيها، ولكن الله تعالى رد عليهم بأنه يعلم ما لا يعلمون، وأجرى أمامهم من مقدرات هذا المخلوق وإمكانياته ما دلهم على أنه أليق منهم بعمارة الأرض على حاله التي خلق عليها، ومع ما وصفوه به من أنه يأتي الفساد، ويسفك الدماء: ﴿**وعلم آدم الأسماء كلها، ثم عرضهم على الملائكة، فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم، قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون**﴾ (2).

فتعليم آدم الأسماء كلها هو عبارة عما ركب فيه من غرائز وقوى يستطيع بها أن يعرف الخواص ويفحص الأشياء ويتتبع بالتجارب دخائلها ومنافعها

---

(1) الآية ٣٠ من سورة البقرة.

(2) الآيات من ٣١ الى ٣٢ من سورة البقرة.

وما فيها من قوى ظاهرة وباطنة، فالانسان بطبيعته طلعة، ولذلك نرى الطفل إذا أمسك بيده لعبة أو شيئا من الأشياء يقلبه ويديره ويتأمله ويحاول أن يحطمه ليعلم ما فيه، أو ما ينتهي اليه، ولا يستريح حتى يصل في ذلك الى حد يرضي شهوته الطبيعية في التطلع والتعرف. وبذلك كان الانسان مخترعا مبتدعا، وكان خراجا ولاجا طموحا مجازفا في سبيل إرضاء نفسه التواقة الى الاستطلاع والكشف والمعرفة.

وما كان تعبير ابن عباس وغيره في هذا المقام ـ بأن الله علم آدم أسماء كل شيء حتى القصعة وحتى كذا وكذا الخ ـ إلا تمثيلا على ما يتصورون، وإلا تقريبا لما خلق عليه الانسان من إمكانه تصور الأشياء وتمثلها تمثل من يعرفها بأسمائها وأعلام أشخاصها.

وقد اختلف الناس قديما وحديثا في أن هذه الآيات تصور واقعا قد كان حسا بين الله والملائكة، أو تصور حقيقة الأمر ومعناه في صورة أخذ ورد على النحو القولي، وسواء أكان الأمر هذا أم ذاك، فإن الذي يهمنا هو أن القرآن الذي هو كتاب الاسلام، يصور الانسان من أول عهده بالأرض على صورته التي تؤذن بأنه مخلوق يصيب ويخطىء، ويصلح ويفسد، وبأن خلقه على هذه الطبيعة مقصود، وملائم لوظيفته التي ندب لها. وأوثر بها على غيره، وأن هذا كله إنما وقع من الله تعالى بمقتضى علمه وحكمته وتمام مشيئته.

٢ – وهذا التصوير القرآني لمبدأ الخلق ولطبيعة الانسان الأول هو جزء من بيان الحقيقة الكونية الكبرى، وهناك أجزاء أخرى في بيان هذه الحقيقة، منها ما ورد في سورة «الحجر»، وفيه تصوير جانب العداوة بين الانسان والشيطان، وأن هذا الأخير يتوعد غريمه الأبدي فيقول: ﴿**رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين، إلا عبادك منهم المخلصين. قال هذا صراط علي مستقيم. ان عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين**﴾[1].

وقد جاء هذا الحوار على الأسلوب نفسه الذي جاء عليه الحوار في سورة

---

(١) الآيات من ٣٩ إلى ٤٢ من سورة الحجر.

«البقـرة»، وفسـر بالتفسيـرين السـابقين، والذي يعنينا من ذلك هو أن هناك بمقتضى الخلق ومشيئة الله تعالى الصادرة عن الحكمة والعلم، عوامل إغواء بجانب هذا المخلوق المعهود اليه بالخلافة في الأرض.

وقد جاء مثل ذلك أيضا في سورة «الاسراء» حيث يقول الله عز وجل: ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا. قال أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن**[1] **ذريته إلا قليلا. قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا. واستفزز من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا. ان عبادي ليس لك عليهم سلطان، وكفى بربك وكيلا**﴾[2].

وقد عرضت سورة «النساء» نفسها الى هذا الشأن حين تحدثت عن بعض الصور التي كانت تمثل ضلال المشركين، وذلك حيث تقول: ﴿**إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا. لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا، ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام، ولآمرنهم فليغيرن خلق الله، ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا، يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا. أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصا**﴾[3].

والغرض من هذا هو أن نعرف أن هذا الانسان:

مخلوق على طبيعة تجعله مستعدا للخير والشر جميعا.

وانه محاط بعوامل الاغراء والاغواء من الشيطان الذي يمثل قوة الشر والافساد، وقد أبقاه الله وخلده الى يوم القيامة قائما بهذا الدور، مع التحذير منه وتحصين الانسان من دعوته بالهداية والإرشاد.

---

(١) احتنكه: استولى عليه.

(٢) الآيات من ٦١ الى ٦٥ من سورة الاسراء.

(٣) الآيات من ١١٧ الى ١٢١ من سورة النساء.

وإن هذا الخلق على هذا النحو، وعلى إحاطته بتلك العوامل، هو ما أراده الله عن علم وحكمة، لأنه هو المناسب لمقدرات الخلافة والمستخلف وما استخلف عليه.

٣ – وليس من سبيلنا أن نتوسع في البحث لنصل الى بيان تلك المناسبة، أو بعبارة أخرى كيف يناسب الأرض وعمارتها وإقامة الحياة ووجوه النشاط فيها، أن يكون ساكنها والخليفة فيها على هذا الطراز الجامع بين الخير والشر، والصلاح والفساد ـ ليس من سبيلنا أن نتوسع ببيان ذلك، وإنما نريد أن نصل الى أن الاسلام ـ كما ينطق كتابه ـ يعرف وضع الانسان حق المعرفة، ولا يكلف الناس أن ينسوا هذا الوضع الطبيعي، وانه لذلك يسلك في معاملته والتشريع له وتنظيم مجتمعه ما يتفق وهذه الحقيقة الواقعية من السبل.

فالاسلام لا يفرض أن الانسان يمكن أن يكون مجتمعا ملائكيا لا تقع فيه معصية ما، ولا مجتمعا مبرأ من كل عيب أو اثم فلا يقع فيه إلا الخير والصلاح والاستقامة وأداء الحقوق، ونحو ذلك، ولكنه فرض المجتمع الانساني مجتمعا انسانيا، فعامل الفرد فيه على انه قد يخطىء، وقد يميل عن الصراط المستقيم، وقد يأتي بالشر، ويقع في الفساد، ولم يضق بهذا، ولم ينظر اليه على أنه أمر يثير اليأس، ويبعث على القنوط والابلاس، وإنما نظر اليه في كثير من السماحة والرفق والايناس والتبشير والمعالجة التي تعتمد الاعتراف بحقوق الفطرة، وتتقبل المعذرة عما لا يمكن أن يجتنب دائما بحكم الطبيعة.

رسالة الاسلام في المجتمع
رسالة رحمة وتبشير وتيسير:

لهذا كله كانت رسالة الاسلام في بناء المجتمع رسالة رحمة وتبشير وتخفيف وتيسير، لا رسالة قسوة ولا تيئيس ولا تشديد ولا تحجير ولا تزمت، ونستطيع أن نجد ذلك في آيات من سورة «النساء» تصور أهداف التشريع الاسلامي للمجتمع تصويرا واضحا رائعا، وهي قوله تعالى:

﴿يريد الله ليبين لكم، ويهديكم سنن الذين من قبلكم، ويتوب عليكم،

والله عليم حكيم. والله يريد أن يتوب عليكم، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما. يريد الله أن يخفف عنكم، وخلق الانسان ضعيفا﴾(١).

وكأني بهذه الآيات الثلاث تصور لنا دعوة إلهية توجه الى الناس يقول الله فيها:

يا عبادي: إنما أريد مما أشرعه لكم من الأحكام، ومما أوجهكم اليه من المبادىء والمثل والارشاد، أن أبين لكم، فإن رحمتي تأبى أن أكلكم الى مجرد تفكيركم، فإن الانسان قد يلتوي به التفكير، وقد يرى حسنا ما ليس بالحسن، وقبيحا ما ليس بالقبيح، وللعقول خداعها، كما للحواس خداعها، وللنفوس شهواتها واملاءاتها دون أن يشعر أصحابها في كثير من الأحيان أنهم متأثرون بهوى أو نازعون عن شهوة، فأنا أريد معاونتكم بالبيان والتوجيه لآخذ بأيديكم الى الطريق القويم، والحق المبين.

يا عبادي: ان رحمتي تأبى أن تترككم وتخلي بينكم وبين المرور بعصور من التجارب واستكشاف ما مر به الذين من قبلكم من سنن الحياة، فأنا أقربها لكم، وأهديكم اليها، وأوفر عليكم أحقابا طوالا تقضونها في تتبعها ودراستها وإعادة تجربتها، فخذوها مني مصفاة مهيأة في صورة تشريع وتنظيم وإرشاد وتوجيه.

يا عبادي: إنما أريد أن أتوب عليكم وأطهركم من كل ما عسى أن يدنسكم أو يلوث أعمالكم، وأنا أعلم بأنكم مخلوقون على وضع يجعلكم تذنبون أحيانا، وتخطئون أحيانا، ومن رحمتي وحكمتي أن أطهركم من الذنوب، ولا أترككم تسترسلون فيها، وتغوصون في حمأتها، وأن أفتح لكم باب التخلص من الأخطاء، والتنقي من الأدناس والأرجاس، فأريد أن أتوب عليكم، أي أرجع لكم بالتطهير والتنقية والتنظيف، بما أشرعه لكم من الشريعة، فتطهروا بذلك أطهركم، وتوبوا أتب عليكم.

يا عبادي: إن لي دعوة، ولأعدائكم دعوة: ان دعوتي هي تطهيركم، وافساح المجال أمامكم لتعودوا إلي فأعود اليكم، وذلك لا يكون إلا بأن تتوجهوا إلي، وأن

---

(١) من ٢٦ إلى ٢٨ من سورة النساء.

تأخذوا عني، وأن تقبلوا مني، وأن تستمعوا الى ندائي وتوجيهي، وان هناك دعوة أخرى تصدر عن إرادة أخرى هي إرادة أعدائكم الذين يتبعون الشهوات، ويؤثرونها تلبية لدعوة الشيطان المتربص بكم، الذي آلى على نفسه ليغوينكم، ان هذه الدعوة تقابل دائما في كل مجتمع دعوتي - أنا ربكم - فما من مجتمع إلا وفيه صوتان يناديان: صوت الفضيلة والحق، وصوت الرذيلة والباطل. صوت الاصلاح والخير، وصوت الافساد والشر. صوت التماسك والاعتصام، وصوت الانهيار والانحلال، فأنا ربكم ومصدر كل خير وكل دعوة الى الحق والصلاح فإلي إلي، وهؤلاء أعداؤكم ومصدر كل دعوة الى الباطل والفساد فعنهم عنهم.

يا عبادي: إنني أنا ربكم أريد لكم التوبة والتطهر، ولا تكون التوبة والتطهر إلا من ذنب ومن خطأ تقعون فيه، وأنا لم أفرض أنكم ملائكة أبرار لا تعصون ولا تذنبون، فأنا الذي خلقتكم وأنا الذي ركبت فيكم طبائعكم، فإذا أذنبتم أو أخطأتم فذلك هو الشأن فيكم، وكل ما أريده منكم هو أن تعودوا إلي، وأن تستغفروني وتتوبوا، وعندئذ أقبلكم مرحبا بكم، ولا أترككم تستمرئون العصيان، وتغوصون في أعماق الرذيلة والكبيرة، أما أعدائي وأعداؤكم فيريدون لكم بدعوة التحلل والتفريط أن تميلوا ميلا عظيما، فإذا ملتم هذا الميل العظيم، فسد مجتمعكم واضطرب وعمتكم الفتن وخالطتكم عوامل الشقاء، وتغلغلت فيكم مظاهر السوء، فتحق عليكم كلمتي وسنتي في الأمم: **﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا﴾**[1].

يا عبادي: انكم ضعفاء، خلقتكم محاطين بالشهوات والرغبات والحاجات، وطبعتكم على طابع التلبية لهذه الملكات البشرية الحيوانية، ولذلك لم أشرع لكم من الأحكام ما يتنافى وتلك الطبيعة التي خلقتها بيدي، وسويتها ونفخت فيها من روحي، لحكمة أعلمها، ومصلحة أقدرها وما أريد بتشريعي إلا تنظيم هذه الطبيعة، والاشراف على اعطائها حظوظها في نسق منظم يعينها ولا يصادرها، ويهذبها ولا يحرمها، ويجذبها دائما الى الوسط فلا تفريط ولا افراط.

---

(١) الآية ١٦ من سورة الاسراء.

تلك هي دعوة الله: ﴿والله يدعو الى دار السلام ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم﴾[1].

حق الانسان في أن يخطىء، وفي أن يعفى عن خطئه:

٤ – يتجلى مما ذكرناه في هذا التمهيد أن القرآن يريد للمجتمع أن يكون متمسكا بأهداب الأمل دائما، لا ييأس من روح الله، ولا يشعر أفراده بأنهم مكبلون مترصدة عليهم الهفوات، محاسبون على الصغيرة والكبيرة حسابا عسيرا فيه كثير من القسوة، وكثير من الصرامة.

كما يتجلى مما ذكرناه ان القرآن يريد المجتمع في الوقت نفسه متماسكا غير متحلل ولا منساق مع الغرائز دون أن يعدلها، ولا مع الدعوات المنحرفة دون أن يقاومها.

لذلك نجد دعوة القرآن دائما، في سورة «النساء» وفي غيرها، دعوة وسطا، فلا هي بالدعوة التي تعتمد التخويف الى درجة التيئيس والاقناط اللذين يفضيان بالمرء الى الابلاس والتحير والبلبلة، ولا هي بالدعوة التي تطلق للانسان عنان شهواته وآماله ورغباته، الى حد الانبعاث والاندفاع اللذين يفضيان به الى الارتطام والتردي والعجز عن مكابدة ما لا بد منه الى الصواب.

فالانسان في نظر الاسلام مخلوق له قيمته وله كرامته، وله حق الاعتراف بميوله، وحق الاعتراف بغرائزه، وحق الصفح عن أخطائه، والتقبل منه، ولكنه مع هذا ليس بالمدلل المرفه المتروك سدى، وإنما هو مسؤول مخاطب مكلف في حدود ما يطيق، وما يتلاءم مع طبيعته ومكوناته الخُلقية والخَلْقية.

وسورة «النساء» تأخذ قسطا عظيما من تركيز المجتمع على هذين المبدأين، وقد تقدم في الفصل السابق: «الآيات الموجهة» وفي ما قبله: «الآيات المحذرة» بيان هذا القسط في ناحية المسؤولية والتوجيه، وهنا نبين قسطها من

---

(١) الآية ٢٥ من سورة يونس.

الناحية الأخرى، ناحية التبشير وبث روح الأمل في المجتمع، والقضاء على عوامل القنوط والخوف المفسدين.

* * *

الآيات المبشرات خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس أو غربت:

٥ - نجد في كتب التفسير روايات متعددة تشير الى اشتمال سورة «النساء» على آيات مبشرات، من شأنها أن تملأ قلوب الناس بمحبة الله، وأن تحيي فيهم الآمال، وأن تنفي عنهم عوامل اليأس والانقطاع عن الله.

فمن ذلك ما روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه انه قال: ان في سورة «النساء» خمس آيات ما يسرني أن لي بها الدنيا وما فيها:

١ - ﴿ان الله لا يظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما - ٤٠﴾.

٢ - ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما - ٣١﴾.

٣ - ﴿ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء - ٤٨، ١١٦﴾.

٤ - ﴿ولو انهم اذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما - ٦٤﴾.

٥ - ﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما - ١٠٠﴾.

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ثمان آيات نزلت في سورة «النساء» خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس أو غربت، أولهن: **﴿يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم﴾**

والثانية: ﴿والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما﴾ والثالثة: ﴿يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا﴾ ثم ذكر قول ابن مسعود سواء في الخمس الباقية.

دراسة للآيات المبشرة:

وقد قدمنا ما نكتفي به من الحديث عن الآيات الثلاث الأولى التي جاءت بها رواية ابن عباس، أما الخمس الباقية التي جاءت بها رواية ابن مسعود، فنتكلم عنها هنا حسب ترتيب السورة.

الآية الأولى:

﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما - ٣١﴾.

١ - ان الصلاح والفساد مرتبطان بالأعمال والنوايا وما لأفراد المجتمع من اتجاهات. فاذا استقام أهل المجتمع، وعملوا الصالحات وكفوا عن السيئات، وكانت لهم نوايا طيبة واتجاهات طيبة، استقام المجتمع على الطريقة، وكان مجتمعا صالحا راشدا سعيدا.

والعكس بالعكس: فإذا كان المجتمع يغلب على أفراده عمل السيئات، وفساد النيات والاتجاهات، وعدم الرغبة في الأعمال الصالحة، فإن هذا المجتمع لا بد أن يضطرب، ولا بد أن يصبح العيش فيه ضنكا وشقاء، وأن يكون من المجتمعات الفاسدة التي لا يستطيع الفرد الوسط أن يطمئن اليها أو ينال القرار والرضى النفسي فيها.

اجتناب الكبائر يكفر الصغائر ويدخل الناس مدخلا كريما:

غير ان هذا الارتباط بين الحالة الخلقية والعملية والنفسية للأفراد وبين سعادة المجتمع أو شقائه، لا يمكن أن يتجاهل معه ما لا بد منه من الأخطاء الجزئية، أو المؤقتة، أو الصغيرة، أو ما يعبر عنه بالهفوات، فلا يمكن أن نتصور مجتمعا خاليا من الهفوات، ومن الهنات الهينات، ولا يمكن أن يكون أفراد

المجتمع كلهم على الطريقة المثلى في كل شيء، لذلك لم يكن هدف القرآن الكريم أن يقيم مجتمعا لا يخطىء أفراده، ولم يكن من شروط التقوى في المؤمن ألا يقع منه الذنب أصلا، ولو كان الأمر كذلك لما كان المجتمع صورة ممكنة واقعية متمشية مع طبيعة الخلق، وغرائز البشر، وإنما يرمي القرآن الى تخفيف ذلك، ووضع الضوابط والقيود التي تهذب من هذه الغرائز وتحول بينها وبين الاندفاع الثائر المشتط المؤذي، وهو في سبيل ذلك ينظر الى الصغائر والهفوات نظرة فيها كثير من التسامح والرحمة والعطف على الانسان الذي خلق ضعيفا، والذي هو محل لتأثيرات داخلية نفسية ـ وهي الشهوات والمطامع ـ وخارجية شيطانية ـ ومنها المغريات الحسية أو الأدبية ـ ولذلك يعلن في صراحة ووضوح انه يغفر الصغائر لمن انتهى عن الكبائر، بل لا يقف عند هذا الحد، ولكنه يعد بجزاء إيجابي لمن ترك الكبائر، أي تعفف عن مواقف الاثم الكبرى، وذلك أن يدخله مدخلا كريما، وليس في الكلام ما يدل على أن هذا المدخل الكريم هو الآخرة فحسب، حيث الجنة وما أعده الله للصالحين من نعيم، ولكن الوعد صالح لأن يراد به أيضا المدخل الكريم في الدنيا، حيث النجاح في الحياة، وأن يتبوأ الفرد فيها منزلة كريمة، ومركزا محترما.

عمر بن الخطاب وجماعة من المصريين المتزمتين:

وقد أدرك ذلك عمر بن الخطاب على ما كان يعرف عنه من الشدة والحفاظ والتمسك، فقد روي أن ناسا سألوا عبد الله بن عمرو بمصر فقالوا: نرى أشياء من كتاب الله عز وجل أمر أن يعمل بها فلا يعمل بها، فأردنا أن نلقى أمير المؤمنين في ذلك، فقدم وقدموا معه، فلقي عمر رضي الله عنه فقال له عمر: متى قدمت؟

فقال: منذ كذا وكذا ...

قال: أبإذن قدمت؟...

فقال: يا أمير المؤمنين، إن ناسا لقوني بمصر فقالوا: إنا نرى أشياء في كتاب الله أمر أن يعمل بها فلا يعمل بها، فأحبوا أن يلقوك في ذلك.

قال: فاجمعهم لي، قال: فجمعتهم له ... فأخذ أدناهم رجلا فقال: أنشدك بالله وحق الاسلام عليك، أقرأت القرآن كله؟

قال: نعم. قال: فهل أحصيته في نفسك؟ فقال: اللهم لا.

قال: فهل أحصيته في بصرك، فهل أحصيته في لفظك، فهل أحصيته في أثرك؟ ... ثم تتبعهم حتى أتى على آخرهم فقال: ثكلت عمر أمه، أتكلفونه أن يقيم الناس على كتاب الله؟ قد علم ربنا أن ستكون لنا سيئات، وتلا: ﴿**إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما**﴾.

ثم قال: هل علم أهل المدينة، أو قال: هل علم أحد بما قدمتم؟ قالوا: لا، قال: لو علموا لوعظت بكم[1] ـ أي لعاقبتكم على هذا التزمت والتشدد عقوبة تكون عظة لغيركم ـ.

وهذا انصاف عظيم من الاسلام، وحكمة ولباقة في السياسة والتوجيه.

أما انه انصاف، فذلك لما فيه من ملاحظة الطبائع والفطر والمؤثرات التي لا ينفك عنها انسان ولا مجتمع مؤلف من أفراد الانسان.

وأما انه حكمة ولباقة في السياسة والتوجيه، فذلك لأنه يرمي الى عدم فصل الرابطة التي تربط الانسان بالدين وقيادته وتأثيره، فالله تعالى يقول بهذا لعباده: إذا كنتم أخطأتم باقتراف بعض الصغائر فلا تيأسوا ولا تقنطوا، فإن ترككم للكبائر هو في ذاته عمل صالح من شأنه أن يطهر مجتمعكم، وأن يدرأ عنكم كثيرا من ألوان الفساد، بل من شأنه أن يجعلكم صالحين لأن تتلقوا فضل الله وتكريمه بإدخالكم في الدنيا والآخرة مدخلا كريما.

ولا شك أن هذا يبعث في الأفراد وفي المجتمع لونا من الطمأنينة والاستبشار، ويحول بين النفوس وما قد يعتريها من القنوط والهم والحزن وغير ذلك مما يفضي الى الاسترسال في فعل السيئات، وارتكاب الموبقات، وفيه من ناحية أخرى تقوية للانسان على محاربة الرذيلة في أقوى صروحها، حيث تتوفر على هذه الحرب كرائم الجهود، وتتجه الى ميادينها العزمات في قوتها، دون أن

---

(١) رواه ابن كثير في تفسيره وصحح اسناده ومتنه ـ انظر ص ٤٧٤ ج ٨٢

تشعـر بأنهـا إذ خسـرت المعركة في ميدان الصغائر، قد خسرت كل شيء، فلا تستطيع أن تنهض من بعد.

إن القائد الحكيم لا يجزع، ولا يترك لجنوده أن يجزعوا، لأنهم خسروا معـركة جزئية، بل يوجههم الى كسب المعارك الكبرى، ولا يدع روح الهزيمة يتمكن من قلوبهم فيشغلهم ويضعفهم ...

فهي إذن سياسة حكيمة، وطريقة لبقة، يسلكها المشرع الاسلامي على بصيرة، ويدرك علماء التربية ما لها من تأثير اصلاحي نفسي وعملي، وما لها من إيحاء بترك عظائم الذنوب التي من شأنها إفساد النفوس، وإفساد البيئات والمجتمعات.

***

ما هي الكبائر:

٢ – والكبائر التي أشير اليها في هذه الآية قد مر كثير منها في ما تقدم قبل ذلك من سورة «النساء».

فأكل أموال اليتامى من الكبائر. وتعدد الزوجات مع عدم العدل بينهن من الكبـائـر. والتفـريط في شؤون الضعفاء والمحجور عليهم من الكبائر، وتغيير ما فرضـه الله في المواريث من الكبائر. وارتكاب الفاحشة بين الرجال أو بين النساء من الكبائر. والاصرار على الذنوب وعدم التوبة منها من الكبائر. وإساءة الرجـال الى النساء أو النساء الى الرجال في العشرة من الكبائر، وظلم أحد الجنسين للآخر واهتضام حقه من الكبائر. وتعدي حدود الله في المحرمات من النسب أو من الرضاع، أو من غيرهما من الكبائر ... وهكذا.

ولذلك جاءت هذه الآية الكريمة: ﴿**ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه**﴾، بعد ثلاثين آية من سورة «النساء» ذكر فيها حكم الله تعالى في كثير من المسائل التي تتصل اتصالا وثيقا بصلاح المجتمع، ودرء المفاسد والموبقات العملية عنه.

ولهذا ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: ﴿**الكبائر من أول سورة**

«النساء» الى ثلاثين آية منها. ثم تلا: **﴿ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه، نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما﴾**.

والواقع أن الكبائر لا تقف عند ما ذكر في هذه السورة قبل هذه الآية، وان ابن مسعود لا يقصد هذا، وإنما يقول ابن مسعود ما يقول بيانا لأن هذه الآية جاءت في ترتيب السورة بعد ذكر جملة من الكبائر، مجيء القاعدة العامة التي تطبق على جزئيات كثيرة، منها هذه الجزئيات التي مرت في آيات السورة.

وقد ورد في بيان الكبائر كثير من الروايات، ونذكر منها ـ بحسب ما يؤخذ من الروايات ـ :

الاشراك بالله، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم ظلما، والفرار من الزحف، ورمي المحصنات، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور، والزنا، وشرب الخمر، واليمين الغموس ـ وهي التي يحلفها صاحبها عالما بكذبه ـ وأن يعرض الانسان أبويه للعن بلعن الناس ـ قال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : «**من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه**» قالوا: وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «**يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه**».

ومن الكبائر الخوض في أعراض المسلمين، والسبتان بالسبة ـ أي إذا سب رجل آخر سبة، فردها الى سبتين.

ومن الكبائر اليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، وسوء الظن بالله، وتفضيل بعض الأولاد على بعض في الوصية، والوصية التي يقصد بها الضرر، والغلول ـ وهو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها، وفي حكمه أكل أموال الدولة والأمة ظلما ـ وغير ذلك.

والقاعدة أن كل ذنب من شأنه أن يترتب عليه فساد كبير، أو أن يخرج بالمؤمن الى دائرة الفسق والفجور، أو الظلم والطغيان، أو الجحود بنعمة الله تعالى، فهو كبيرة من الكبائر التي يجب على المؤمن أن يكون قويا في مقاومتها والتحفظ منها.

ولا ينبغي أن يفهم من هذا أن الصغائر لا تقاوم، ولا يعتد بها، كأنها مباحات، فإن الذنب ذنب، والاصرار على الصغائر ربما كان من الكبائر أصلا، وربما جر اليها فعلا، وغاية ما نريده من هذا الفصل، هو أن نبين ما في الاسلام

من سماحة، وما للقرآن من تبشير وتيسير وإدراك لطبيعة البشر، وتوجيه الى عدم اليأس والابلاس[1]، وأن هذا من شأنه أن يجعل الانسان قريب الرجوع الى ربه، سريع الاقلاع عن ذنبه، وأن يحول بينه وبين أن يفقد ثقته بنفسه.

***

الآية الثانية ـ من الآيات المبشرة:

﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنة يضاعفها، ويؤت من لدنه أجرا عظيما - ٤٠﴾.

هذه مرتبة أخرى من مراتب الفضل الإلهي غير السابقة، وفيها تبشير بأمرين عظيمين:

أحدهما: ما يدل عليه قوله تعالى: **﴿ان الله لا يظلم مثقال ذرة﴾**.

والذرة واحد الذر، وهو صغار النمل، أو الهباء المنتشر في الهواء، والمراد أصغر ما يتصور من الأشياء، فالله تعالى لا يظلم الناس شيئا ولو كان قليلا في وزنه كالذرة، وذلك العدل الإلهي واقع في الدنيا، وفي الآخرة.

لكل درجات مما عملوا:

أما في الدنيا فإن لكل عامل جزاء ما عمل، وقد وضع الله تعالى من السنن الكونية ما يجعل النجاح والصلاح والفوز، وأضدادها، مرتبطة بعمل العامل وجودا وعدما، وإتقانا وإهمالا، **﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾**.

فلا يمكن أبدا في سنة الله وعدله الكوني أن يعمل انسان عملا صالحا إلا كان لهذا العمل الصالح نتائجه وثمراته الموازنة له بالقسطاس المستقيم، فمن زرع أرضا فبمقدار ما يعطيها من العناية وما يوفر لها من أسباب الصلاحية، تعطيه من ثمراتها، كثرة، وجودة، ومن أهملها فلم يعطها قسطها من العناية أو من

---

(١) أبلس الرجل ابلاسا: قل خيره، وحزن وانكسر، وأبلس من رحمة الله: يئس، وأبلس في أمره: تحير فهو مبلس.

البذر أو من العمل، أو أهمل أسباب الصلاحية التي يجب أن توفر لمثلها، تجاوبه على ذلك بالنسبة نفسها، قلة في الثمرات وضعفا.

وقل مثل هذا في الذي يخلص في نواياه، وفي الذي يسلك الطريق المستقيم في الحياة، وفي الذي يحفظ أماناته التي ائتمنه الله أو الناس عليها، وفي الذي يأخذ ويؤدي ما أسند اليه من عمل أخذا قويا، وأداء قويا: يأخذ الأعمال بقوة، ويؤديها بقوة ـ والقوة في ذلك هي الصدق والثبات والعناية الواجبة التي هي حق كل عمل، وسناد كل عمل وما به قوام[1] كل عمل ـ ان لذلك العدل الإلهي الكوني نتائجه بالضرورة، لا يمكن أن تنفك عنه، أو يختل ميزان تقديرها.

وإذا كنا نرى صورا غير ذلك في الحياة بين الحين والحين، فننسب بعضها الى الحظ الحسن، وبعضها الى الحظ السيء، فإن علمنا هو القاصر، ولو علمنا كل الظروف، وتتبعناه في حيدة ونصفة، لآمنا بأن سنة الحكيم العليم مطردة لا تتخلف ولا تظلم: **﴿ان الله لا يظلم الناس شيئا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾**.

والخلاصة أن الله تعالى لا يمكن أبدا أن ينقص العاملين أو يبخسهم أعمالهم، وأن الأعمال نفسها لها ثمراتها الطبيعية، كالمقدمات والنتائج، فكما أن الانسان لا يمكن أن يزرع عنبا، فيجني رمانا، كذلك لا يمكن أن يعمل ويسعى على أصول صحيحة سليمة، ثم يضيع عمله سدى، ويذهب سعيه هباء.

هذا في الدنيا بحسب النواميس التي هيأ الله عليها الكون والناس والأعمال والثمرات.

أما في الآخرة فقد ورد من الآثار والأخبار ما يدل على مثل ذلك، فالله سبحانه وتعالى لا يمكن أن ينقص عبدا من عباده في دار الجزاء خيرا فعله، غير انه قد يرد على الفاعل فعله فلا يقبله لأنه لم يفعله ابتغاء وجهه، أو لم يأت به على الصورة التي رسمها له، وحينئذ لا يكون هذا الرد نقصا للعبد، وظلما لحقه، فإن العبد في الحقيقة لم يعمل الخير، ولكن عمل ما صورته صورة الخير، أو ما اعتبره هو خيرا وإن لم يكن خيرا.

---

(١) قوام الشيء ـ بكسر القاف ـ: نظامه وعماده وما يقوم به.

ومما ورد في السنة من التبشير بإيفاء العاملين أجر أعمالهم يوم القيامة، ما روي في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الذي جاء فيه: «**فيقول الله عز وجل: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة خردل**[1] **من إيمان فأخرجوه من النار، فيخرجون خلقا كثيرا**». ثم يقول أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: اقرأوا ان شئتم: ﴿**ان الله لا يظلم مثقال ذرة . . .**﴾ الآية.

لا حظ للكافرين من ثواب الآخرة:

وهنا يرد سؤال كثيرا ما يراود القلوب: هل الحكم في عدم الظلم والنقص من جزاء الأعمال في الدنيا والآخرة عام يشمل المؤمنين والكافرين جميعا، فالكافر أيضا لا يظلم مثقال ذرة؟ أو هذا شيء خاص بالمؤمنين؟

والجواب: ان الآية تقول: ﴿**ان الله لا يظلم مثقال ذرة**﴾ فقد حذف المفعول الأول للفعل، فأفاد العموم، ودل على ذلك تصريح الآية الأخرى التي تقول: ﴿**ان الله لا يظلم الناس شيئا**﴾ فقد ذكرت المفعولين، وكان المفعول الأول هو الناس، والناس لفظ يعم المؤمن والكافر.

وهذه الدلالة - بالنسبة للجزاء الدنيوي - لا معارض لها نقلا ولا عقلا، فقوانين الحياة وسننها الطبيعية لا تفريق فيها بين مؤمن وكافر، فمن استقام لشيء وأعطاه حقه، استقام له ذلك الشيء وتجاوب معه على قدر استقامته له، وما وفى اليه من حقه، لا فرق في تلك السنة الكونية بين مؤمن وكافر.

أما في الآخرة فالقرآن الكريم صريح في أن أعمال الكافرين هباء، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف**﴾[2] و ﴿**أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجد شيئا**﴾[3].

وقد اختلف المروي من السنة في هذا الشأن، فجاء في بعض الأحاديث أن المشرك الذي فعل الخير يخفف عنه العذاب يوم القيامة، ولكن لا يخرج من

---

(١) الخردل: نبات له حب صغير جدا أسود، والواحدة من حباته (خردلة).

(٢) الآية ١٨ من سورة ابراهيم.

(٣) الآية ٣٩ من سورة النور.

النـار، فيكون التخفيف عنه هو جزاء حسناته، وجاء في حديث آخر: «**ان الله لا يظلم مؤمنا حسنة يثاب عليها الرزق في الدنيا، ويجازى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا، حتى إذا أفضى الى الآخرة لم يكن له حسنة يعطى بها خيرا**»[1].

وإذن فهنـاك قدر متفق عليه بين الحديثين، وهو ان الكافر لا ينال في الآخرة ثوابا على عمل عمله في الدنيا، وإن جاز انه سيخفف عنه من العذاب.

سر التفرقة في ذلك بين المؤمن والكافر:

والتفرقة بين المؤمن والكافر على هذا النحو أو ذاك، قد تثير سؤالا آخر: هل الله تعالى يحابي المؤمنين على الكافرين؟

والجواب: عن هذا السؤال: ان الأمر في ذلك جاء على تمام العدل، وان التفرقة بينهما مما يقتضيه العدل نفسه، وذلك ان المؤمن يعمل الخير والصلاح مبتغيـا جزاءين: جزاء الدنيا ـ الذي هو نتيجة احسان الأعمال وإقامتها على سنن الصلاح ـ وجزاء الآخرة الذي هو الثواب في الجنة، فهو مؤمن بأن هناك إلها يجازي، وأن هناك دارا أخرى، وأن بها جنة ونارا، الجنة للمتقين، والنار للعاصين، أما الكافر فإنما يعمل ما يعمل ابتغاء الدنيا فقط، وليس مؤمنا بالله ربا، ولا بالآخرة دارا للجزاء، حتى يتوجه في عمله الى قصد ذلك.

فالله يعطي كل انسان الجزاء الذي تطلبه وابتغاه دون أن ينقصه منه شيئا.

ومثل ذلك كمثل رجلين: أحدهما باع سلعة بثمن بعضه معجل، وبعضه مؤجل، فإذا لم يعط المؤجل كالمعجل، كان قد بخس حقه، والثاني باع سلعته بثمن معجل فقط فليس له حق في أن يأخذ شيئا بعد هذا المعجل، ولا يقال انه بخس، ولا ان صاحبه حوبي، فكل منهما نال حقه، وحصل على ثمن سلعته كاملا.

---

(١) راجع تفسير الامام البغوي ص ٤٤٩ ج ٢.

هذا تقريب للأمر، وبيان للسر، يتضح منه أنه لا محاباة لمؤمن، ولا ظلم لكافر.

ثم ان الكافر الجاحد بربه وبدار الجزاء، قد ارتكب بهذا الكفر أشنع الجرائم التي تنافي العقول وتكابر الدلائل الواضحة في الكون، ومثل هذا في الواقع لا يرجى منه خير ولا نفع ولا عمل صالح في شؤون الحياة، ولو أنا أحصينا عدد الذين ينكرون الله ولا يؤمنون برسله، ولا بالدار الآخرة، لوجدناهم على حالة من الاضطراب في حياتهم العملية، وعلى نحو من الفسادُ النفسي الذي لا يكاد يصلح معه عمل، فافتراض نجاح الملحد في الحياة افتراض لصور قليلة، ومع ذلك فان للحياة قوانينها وقد طبقت عليه، أما افتراض أن يعمل الملحد الجاحد بربه عملا من أعمال الخير والبر والصلاح يستحق به ثواب الآخرة، فهو افتراض لما لا يكاد يكون، ولو أنه حدث لكان دليلا على اتجاه الى الايمان بدأ يراود نفس صاحبه، وحينئذ يكون من عدل الله معه أن يحببه فيما اتجه إليه، ولذلك ورد أن أعمال الخير تختم لصاحبها بخاتمة الخير، فلو علم الله من انسان صدقا وبرا واتجاها الى فعل الخير، وكان كافرا، فانه كثيرا ما يوفقه الى الايمان، وهذا على السنة المستفادة من قوله تعالى: ﴿**قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا**﴾ [1] ﴿**والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم**﴾[2].

الاحسان فوق العدل:

الأمر الثاني: من الأمرين المبشر بهما في هذه الآية، هو ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿**وان تك حسنة يضاعفها، ويؤت من لدنه أجرا عظيما**﴾.

وهذا احسان فوق العدل، ولا تنافي بينه وبين العدل، فالعدل يقتضي ألا يظلم العامل مثقال ذرة من جزاء عمله، وهذا ما قرره الجزء الأول من الآية وسبق بيانه، ولكن العدل لا يقتضي منع الزيادة في جزاء الخير على سبيل الاحسان،

---

(١) الآية ٧٥ من سورة طه.

(٢) الآية ١٧ من سورة محمد.

كما لا يقتضي منع العفو عن السيئة على سبيل الغفران، واذن فمقتضى «**لا يظلم**»، غير مناف لمقتضى «**يضاعف**».

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على أن الله تعالى يعامل عباده بمقتضى الاحسان حين يجزي بالحسنة، ولا يزيدهم عما يستحقون حين يجزي بالسيئة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها، وهم لا يظلمون**﴾[1] ﴿**مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل، في كل سنبلة مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء، والله واسع عليم**﴾[2].

وقوله تعالى في هذه الآية الأخيرة: ﴿**والله يضاعف لمن يشاء**﴾ مثل قوله في آية «النساء»، ﴿**ويؤت من لدنه أجرا عظيما**﴾ وذلك أن عطاءه تعالى واسع غامر من جهتين، فهو أولا يضاعف الحسنة فيجعلها حسنات عشرا ليعطي الجزاء على عشر، ثم هو يمنح بعد ذلك أضعافا كثيرة من لدنه لمن يشاء، فآية «البقرة» تقرر ذلك حيث تقول: ﴿**يضاعف لمن يشاء**﴾ فلا تذكر مفعول «**يضاعف**» كما قالت سورة «النساء» «**يضاعفها**» ولكن سورة النساء تكمل هذا المعنى فتقول: ﴿**ويؤت من لدنه أجرا عظيما**﴾ فيدل قوله تعالى ﴿**من لدنه**﴾ على أنه يضاعف غير مضاعفة الحسنة، وأما تسمية ذلك أجرا فلأنه ملحق بأجر الحسنة تابع لها، وان كان «**من لدنه**» أي زيادة بدون مقابل.

معنى مضاعفة العذاب للمجرمين، وتبديل السيئات حسنات للمؤمنين:

ويرد هنا سؤال: اذا كان الله لا يضاعف السيئات، ويضاعف الحسنات، فما معنى قوله تعالى: ﴿**والذين لا يدعون مع الله الها آخر، ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق، ولا يزنون، ومن يفعل ذلك يلق آثاما. يضاعف له**

(١) الآية ١٦٠ من سورة الأنعام.
(٢) الآية ٢٦١ من سورة البقرة.

العذاب يوم القيامة، ويخلد فيه مهانا، الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات، وكان الله غفورا رحيما»[1].

فإن في هذه الآيات: ﴿**يضاعف له العذاب**﴾، ومضاعفة العذاب تتنافى مع قاعدة: ﴿**ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون**﴾ وفي هذه الآيات أيضا: ﴿**فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات**﴾ وتبديل السيئات حسنات شي غير مضاعفة الحسنات المفهوم من قاعدة «**من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها**» «**وان تك حسنة يضاعفها**».

والجواب ـ كالسؤال ـ يتألف من نقطتين:

الأولى: ان «**مضاعفة العذاب**» لم ترد فقط في هذه الآيات من سورة الفرقان، وانما وردت في عدة مواضع من القرآن الكريم، ونحن نجمعها هنا لنعرف مواقعها المعنوية فيساعدنا ذلك على ادراك مراميها وتبين السر في تلك المضاعفة على الذنوب فيها:

ففي سورة هود: ﴿**الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون. أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء، يضاعف لهم العذاب، وما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون»**[2].

وفي سورة الأحزاب: ﴿**يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين، وكان ذلك على الله يسيرا**﴾[3].

وفيها أيضا: ﴿**وقالوا ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا**﴾[4].

وفي سورة الأعراف: ﴿**قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والأنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها، حتى اذا اداركوا فيها جميعا قالت**

---

(١) الآيات من ٦٨ إلى ٧٠ من سورة العرفان.

(٢) الآيتان ١٩، ٢٠ من سورة هود.

(٣) الآية ٣٠ من سورة الأحزاب.

(٤) الآيتان ٧٧، ٧٨ من سورة الأحزاب.

أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار، قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾[1].

وفي سورة الاسراء خطاب للرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: **﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا. اذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات، ثم لا تجد لك علينا نصيرا﴾**[2].

وفي سورة (ص): **﴿قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا في النار﴾**[3].

وهذه المواضع كلها تتحدث عن نوع خاص من الذنوب، هي الذنوب التي ليس ضررها قاصرا على المذنب في نفسه، ولكنه يتعداه إلى غيره، لأنه قدوة أو متبوع أو متصد لاضلال غيره، فعليه اثمان: اثم كسبه لنفسه، واثم احتمله بافساد غيره.

وهذا هو شأن الصادين عن سبيل الله الذين تذكرهم سورة هود، وشأن نساء النبي اللواتي هن في مركز القدوة، وشأن السادة الكبراء الذين ضلوا وأضلوا، كما حدثتنا عن هؤلاء وأولئك سورة الأحزاب، وسورة الأعراف وسورة (ص)، أما الرسول صلوات الله وسلامه عليه وآله، فهو القدوة العظمى، وركونه إلى المشركين لو وقع فعلا ـ وحاشاه، فقد صانه الله وعصمه ـ لكان أكبر كارثة تحق على الدعوة، وتصيب صميم الاسلام، فماذا يحدث لو ضعف حامل لواء الدعوة، وسقط صريعا أمام الشرك؟

واذن فالمضاعفة، في هذا كله انما هي جزاء وفاق لذنب له صفة التكرر والتعدد وتجاوز النفس إلى الغير، وهذا على ما جاء في قوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «**من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة**» «**وما من جريمة قتل نفس بغير حق الا كان على ابن آدم الأول وزر**

---

(١) الآية ٣٨ من سورة الأعراف.

(٢) الآيتان ٧٤، ٧٥ من سورة الاسراء.

(٣) الآية ٦١ من سورة «ص».

منها» ـ يريد ابن آدم الذي قتل أخاه بغير الحق فكان أول من سن هذه السنة السيئة.

وآية الفرقان تتحدث عن ذوي جرائم مزدوجة فتقول: «**ومن يفعل ذلك**» والاشارة إلى ما تقدم من دعوة اله آخر مع الله، وقتل النفس بغير الحق، والزنا، وذلك أن الشرك ظلم للنفس، بما فيه من أضلالها، وسوء أدب في حق الألوهية، وقتل النفس فيه هدم لبناء أقامه الله، وفيه اعتداء على حق المقتول في الحياة، والزنا فيه تلويث لشرف الزاني، وتلويث لشرف من زنى بها، فالمضاعفة جزاء وفاق في هذا كله، وليس فيها ظلم، ولا تجاوز عن سنة المجازاة بالمثل.

النقطة الثانية من نقطتي الجواب عن السؤال: ان تبديل السيئات حسنات جاء في آية الفرقان جزاء على ثلاثة أشياء: التوبة، والايمان، وعمل الصالحات، وذلك قوله تعالى «**الا من تاب، وآمن، وعمل عملا صالحا، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات**» فالتوبة تمحو الذنب، والايمان يمحو الشرك ويجبه، وعمل الصالحات حسنات منشأة تحل مكان السيئات الممحوة، فبعد ان كان الشخص مشركا داعيا مع الله الها آخر مرتكبا للفواحش، تاب من شركه فآمن، وتاب من عمله، واستأنف أعمالا صالحة جديدة، فحلت هذه مكان السابقة، فهذا هو تبديل سيئاتهم حسنات، وليس معناه أن الله يقلب السيئة نفسها وبغير حقيقتها الى العكس، فإن الحقائق لا تغير، وليس معناه كذلك أن الله يجزيهم عن السيئة جزاء الحسنة فإن الجزاء من جنس العمل، ولكن المعنى كما أوضحنا أن التوبة تمحو السيئات، والعمل الصالح الجديد يأتي مكان العمل السيء السابق، وقد جاء بعد آية الفرقان هذه ما يشبه أن يكون اشارة الى هذا وذلك قوله تعالى:

﴿**ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا**﴾ فمعنى «**ومن تاب**»: ومن توبته وتطهره، ومعنى ﴿**فانه يتوب الى الله متابا**﴾ فانه يرجع بهذا الى ربه رجوعا قويا مخلصا، فيكون أهلا لأن يقبل ويتحول بذلك من حال الى حال.

وفي مواضع أخرى من القرآن الكريم: ﴿**ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة**﴾ ﴿**واذا بدلنا آية مكان آية**﴾ ﴿**ولنبدلنهم من بعد خوفهم أمنا**﴾ وفي ذلك تصريح

بمعنى التبديل الذي ذكرناه، من أنه وضع شيء مكان شيء، لا قلب الحقائق، ولا قلب الجزاء على الأعمال.

* * *

الآية الثالثة ـ من الآيات المبشرة:

﴿ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ـ ٤٨، ١١٦﴾.

تقدم طرف من الكلام على هذه الآية، وأنها جاءت في سورة النساء مرتين في موضعين:

وقد كان مجيئها في الموضع الأول بين الكلام عن اليهود وما كانوا يرتكبونه من الأعمال في سبيل مقاومة النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ومحاربة دعوة الاسلام بتحريف الكلم عن مواضعه، وبليّ ألسنتهم سبا للرسول وطعنا في الدين، وبتفضيل الوثنية على الاسلام حينما استشهدت بهم قريش.

هذا هو الموضع الأول الذي جاءت فيه هذه الجملة، فهي تفيد في موضعها هذا أمرين:

الأمر الأول: تهديدي انذاري لليهود، ويرشح له ما جاء قبلها مباشرة من دعوتهم الى الايمان بما أنزل الله، قبل أن ينزل الله بهم لعنته كما لعن أسلافهم من أصحاب السبت، وذلك ما جاء في قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها، أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت، وكان أمر الله مفعولا﴾**.

ويؤيده ما جاء بعد ذلك في السياق نفسه من قوله عز وجل: **﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا، أولئك الذين لعنهم الله، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا﴾**.

فالآية تضع هذه الحقيقة، وهي أن الله قد يغفر الذنوب ما لم تصل الى الاشراك به، وتفضيل أهل الجبت والطاغوت عليه.

والأمر الثاني: تبشيري توجيهي، فإن الله تعالى طلب منهم الايمان في الآية السابقة قبل أن تحل بهم اللعنة، ولما كانوا قد ارتكبوا ذنوبا خطيرة منها

اللي والطعن والتحـريف والاضـلال، كان الشأن فيهم ـ وقد أوتوا نصيبا من الكتاب، وعرفوا عاقبة اقتراف السيئات ومحاربة دعوة الحق ـ كان الشأن فيهم أن يظنوا في دخيلة أنفسهم أنه لا توبة لهم، ولا يمكن أن يقبلهم الاسلام ولا رسـول الاسلام بعد ما فعلوا، فالله يغريهم بالرجوع والتوبة، ويمهد لهم سبيل التراجع، ويطمئنهم على أنهم اذا رجعوا فهو خير لهم، فان كل ذنب سوى الشرك قد يغفـر، وفي ذلك ايحاء لهم بأن يكفوا عن محاربة الدعوة، ومقاومة الرسول فيجعلوا أنفسهم بذلك صالحين لأن يغفر لهم ما قد سلف من الايذاء والمقاومة.

الشرك حجاب:

أما الموضـع الثاني الذي جاءت فيه هذه الجملة، فهو موضـع الكلام عن مشاقة الرسول والخروج على سبيل المؤمنين بعد تبين الهدى، وقد كان ذلك بعد ايـراد قصة طعمة بن أبيرق، ذلك الذي سرق الدرع واتهم بها اليهودي، فلما افتضح أمره فر إلى المشركين، ورضي بهم بدلا من النبي والمؤمنين، وكانت آيات القصة قد ذكرت أن هذا المذنب «طعمة»، والذين أيدوه وتآمروا على كتمان حقيقتـه عن الرسول، أو أنهم استغفروا الله وتابوا من هذا الاثم، لوجدوا الله غفورا رحيما، فكيف يفرون من ذلك، ويذهب مقترفهم إلى المشركين، ويرضى بهم بديلا من المؤمنين، مع أن الله يغفر الذنوب جميعا سوى الشرك، فقد فر من موقف يرجى له فيـه الغفـران، الى موقف لا يرجى له فيه، وهو الشرك وايثار المشركين، فالجملة ذكرت في هذا الموضع كقاعدة تنطبق على كل من يفر من ذنب فيقع فيما هو أعظم منه، وفيها لون من التبشير بغفران كل ذنب لا يصل إلى حد الشرك.

وقد وردت في ذلك أحاديث كثيرة مبشرة أي تبشير، ومنها ما روي عن جابر أن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال: «**لا تزال المغفرة على العبد ما لم يقع الحجاب**» قيل: يا نبي الله: وما الحجاب؟ قال: «**الاشراك بالله**».

وفي الصحيحين عن ابن مسعود أنه قال: قلت «يا رسول الله، أي الذنب أعظم» قال: «**أن تجعل لله ندا وهو خلقك**»، ومصداق ذلك قوله تعالى: **﴿ومن يشرك بالله فقد افترى اثما عظيما﴾ ﴿ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا﴾ ﴿ان**

الشرك لظلم عظيم﴾[1] **﴿انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة، ومأواه النار، وما للظالمين من أنصار﴾**[2].

وروى الامام أحمد عن أبي ذر أن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: «**ان الله يقول: يا عبدي، ما عبدتني ورجوتني فاني غافر لك على ما كان منك، يا عبدي انك ان لقيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لقيتك بقرابها مغفرة**».

وفي القرآن الكريم: **﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، ان الله يغفر الذنوب جميعا، انه هو الغفور الرحيم﴾**[3].

وينبغي أن يلتفت إلى أن غفران الذنوب الذي أوجبه الله على نفسه انما يكون بالتوبة، أما من لم يتب ومات على الذنب، وكان مؤمنا، فأن أمره إلى الله، أن شاء غفر له وان شاء عذبه.

وفي هذا يقول صاحب الجوهرة:

ومن يمت لم يتب من ذنبه فأمره مفوض لربه

وبذلك يتبين أن الاسلام يملأ الناس رجاء، ويحيي فيهم الآمال التي من شأنها أن تبسط إلى الأعمال، وأن تدفع إلى النشاط، وأن تربط بين العبد وربه برباط وثيق، لا ينحل من قريب.

* * *

الآية الرابعة

﴿ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما - ٦٤﴾.

١- هذه الآية جاءت في سياق الحديث عن الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل على الرسول وما أنزل من قبله، ومع ذلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت،

---

(١) الآية ١٢ من سورة لقمان.

(٢) الآية ٧٢ من سورة المائدة.

(٣) الآية ٥٣ من سورة الزمر.

فهؤلاء ينساقون مع الدوافع الشيطانية التي يزينها لهم أرباب الأغراض الخبيثة، وأصحاب الدعوات المعارضة لحكم الله، ﴿**ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا**﴾.

تمويه المتحاكمين الى الطاغوت:

ومن شأن هؤلاء أن يزعموا أنهم ما أرادوا بالتحاكم الى الطاغوت - أي بالخروج عن حكم الله الى ما سواه - الا الاحسان والتوفيق، فهم يعتذرون بذلك تمويها به على المؤمنين، وتظاهرا بقصد السوء، ولكنهم بهذا يظلمون أنفسهم، ويتعرضون لما تأذن الله أن يصيب به الذين يخرجون على حكمه من مصائب الفساد والبؤس والشر، ومن الفقر والآفات والأزمات، وهذا ما أجملته السورة قبل الآية التي نحن بصددها اذ تقول:

﴿**ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك، يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا. فكيف اذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله أن أردنا الا احسانا وتوفيقا، أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا**﴾[1].

٢ـ ولهذا اللون من اعتذار المتحاكمين الى الطاغوت، الخارجين على حكم الله، شبه بلون آخر في عصرنا الحاضر، حيث نرى بعض الدعاة الى التخفف من أحكام الاسلام يقولون: نريد أن نبين للناس أننا نحكم بالمبادىء الحديثة، وأن نعرف الأوربيين أن الاسلام لا يأبى التطور، وأن نوفق بين ديننا وحضارتنا، إلى غير ذلك من أساليب الاعتذار عن الخروج على حكم الاسلام.

والواقع أن الاسلام لا يأبى أي صلاح، ولا ينفر من أية مدنية خيرة مستقيمة الأوضاع، لها أهداف شريفة، وأحكامه كلها، وتوجيهاته كلها، ترمي إلى ذلك وتحققه على أحسن صورة، ومن أقرب طريق، فلا يصح أن يتعلل بذلك للخروج عن أحكامه، والتمسك بأهداب أحكام ما زال أهلها في تجارب وتطور،

---

(١) الآيات من ٦٠ إلى ٦٣ سورة النساء.

وهم يؤمنون بها ويكفرون بها حينا، حسب الغلبة والتسلط والأوضاع السياسية، لا المصالح الحقيقية، ولا المنطق، ولا العدل، فكم رأينا من نظم وأحكام اقامتها السياسة والقوة، ثم عادت فسقطت بالسياسة والقوة، لأنها لم يكن لها سناد من العدل، والحكمة، والرحمة.

كيف ندفع هذا التمويه:

وقد أمر الله تعالى نبيه بأن يعرض عن هؤلاء الذين يعلم الله ما في قلوبهم، وأن يعظهم ويقول لهم في أنفسهم قولا بليغا، وأن يسير في طريقه، فإن شاؤوا أن يؤمنوا آمنوا، وإلا فقد جنوا على أنفسهم، وتعرضوا لعواصف القلق والاضطراب والتفكك والانحلال فذلك قوله تعالى: ﴿**أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا. وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله**﴾[1].

وهذا نفسه هو السبيل لمحاربة هذه الدعوات التي تحاول أن توجهنا الى حكم غير الله: علينا أن نعرض عن أصحابها، فلا نولهم سمعنا، ولا نوجه الى دعواتهم قلوبنا واهتمامنا، وعلينا في الوقت نفسه أن نبين بالقول البليغ، والعرض الجذاب، والنصح الهادىء الرقيق، ما لدينا من شريعة الله، وأحكام دينه، ومبادىء الاسلام وعقائده عامة، وسيرة الرسول وأصحابه الراشدين، فإن الدعوة يجب أن تكون قائمة دائما، ذات صوت مسموع في المجتمع، ويجب أن تتعهد المبادىء والمثل في الحين بعد الحين، وإلا تعرضت لارجاف المرجفين وتشويه المشوهين.

وقد علمتنا التجارب أن المواظبة على البيان والكشف وإقامة الحجة، والدفاع ضد هجمات أهل الباطل، هو من خير الوسائل للمحافظة على قلوب الناس وعقولهم، ولتحصين الشباب خاصة من بريق الدعوات الخلابة الخبيثة

---

(١) الأيتان ٦٢، ٦٣ من سورة النساء.

التي تعتمد على الرغبات والشهوات والتطلع الى الحرية والانطلاق من القيود، في محاولاتها لافساد الناشئة، وجرهم الى حمأة الرذيلة والالحاد.

إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف:

٣ - بعد هذا يأتي الجزء المبشر من الآيات وهو قوله تعالى: ﴿**ولو انهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله، واستغفر لهم الرسول، لوجدوا الله توابا رحيما**﴾.

واستغفار الله في هذا يكون بالكف عن الخروج على حكمه، واستغفار الرسول يكون بالرضوخ لسنته، فالذين في عهد الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مكلفون بالقدوم إليه، واستغفار الله لديه، ليثبتوا أنهم عادوا ورجعوا عن طريقتهم وتابوا وأنابوا، وعندئذ يتوب الله عليهم ويرحمهم، فانه تواب رحيم.

والذين يدعون بالدعوات المعارضة للاسلام أمامهم أيضا هذا الباب المفتوح وهو باب الرجوع عن ذلك، والاقلاع عن الصد في سبيل الله، وعن تزيين أحكام الطاغوت، ورجوعهم يجب أن يكون ذا مظهر عملي يتبين به اقلاعهم وندمهم، وذلك بالرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله، ومحاولة خدمتهما خدمة فيها صدق واخلاص، وفيها مثابرة وقوة، ان الله تعالى يقبلهم اذا فعلوا ذلك ويغفر لهم ماضيهم في محاربة الاسلام، وفي الصد عن أحكام الاسلام، ومثل الاسلام، وفي الدعوة الى حكم الطاغوت، ومبادىء الطاغوت، وفي ذلك رد لاعتبارهم الديني، وقبول لهم في محيط المؤمنين: ﴿**ان المنافقين في الدرك الأسفل من النار، ولن تجد لهم نصيرا. الا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله، وأخلصوا دينهم لله، فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتي الله المؤمنين أجرا عظيما. ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم، وكان الله شاكرا عليما**﴾(١).

وبهذا يتبين أن الاسلام يتسع صدره حتى للذين قاوموه، وعاشوا دهرا من حياتهم يناصبونه العداء، وأن هؤلاء اذا أحسوا بخطئهم وظلمهم لأنفسهم،

---

(١) الآيات من ١٤٥ الى ١٤٧ من سورة النساء.

فرجعوا معلنين التوبة، مصلحين ما أفسدوا من قبل، آخذين بكتاب الله وسنة رسوله، فانهم يجدون الله توابا رحيما، يرحمهم، ويغفر لهم ماضيهم، ويثيبهم كما يثيب المؤمنين.

وهذا تبشير عظيم ينفرد به الاسلام، فلم يعهد أن دعوة من الدعوات تغفر للذين آذوها وصدوا عنها ووضعوا العراقيل في سبيلها، ولكنه الاسلام وعدالته، والله ورحمته، والقرآن ومبدؤه المنصف السمح: ﴿**قل للذين كفروا أن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف**﴾[1]، ﴿**فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين**﴾[2].

الآية الخامسة:

﴿**ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه، ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ـ ١١٠**﴾.

وهذه آية عامة في عمل السوء وظلم النفس، بيان أن الله تعالى قد كتب على نفسه أن من استغفره وتاب اليه قبله ورحمه وغفر له.

تجاوب الرحمة الالهية مع التائبين:

ومعناها واضح، وفيما سبق كفاية لمن وعى، غير أننا نوجه هنا الى التعبير بقوله: ﴿**يجد الله غفورا رحيما**﴾. وقد جاء قبله أيضا في الآية السابقة: ﴿**لوجدوا الله توابا رحيما**﴾، وهو تعبير جميل، فإن وجود الله على هذه الصفات أزلي، وليس متوقفا على رجوع العبد وتوبته، ولكن المراد هو وجدانهم الله كذلك، أي معرفتهم بهذه الصفات فيه عن علم وثقة إذا توجهوا اليه تائبين مستغفرين، كأنهم وجدوا شيئا كان قد غاب عنهم.

ثم ان وجدان التائب لله هو تصوير بارع لتجاوب الرحمة الإلهية وحضورها رهن مشيئة من تاب واستغفر، فالله يقول لعباده: انا موجود على صفاتي من

---

(١) الآية ٣٨ من سورة الأنفال.
(٢) الآية ١٩٣ من سورة البقرة.

الرحمة، والتوبة، والغفران، فلو جئتم إلي لوجدتموني، وكأني أنتظركم، وأرقب عودتكم ﴿**والله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم**﴾[1].

***

الخلاصة: ان أبيات التبشير تفتح سبعة أبواب للرجاء:

بهذا كله يتبين أن هذه السورة الكريمة تبشر المجتمع تبشيرا عظيما، وأن تبشيرها يفتح أبوابا سبعة من أبواب الرحمة الإلهية، يتلخص الحديث عنها فيما يلي:

١ - الاعتراف بالحقيقة الواقعة في شأن الانسان، وأنه خلق على هيئة وطبيعـة تجعله يصيب ويخـطىء، ويأتي بالخير وبالشر، ويصدر منه الصلاح والفسـاد، وبـأنـه مخلوق ضعيف لا يمكن أن يحمـل فوق طاقته، وأن يكلف ما يصيبه منه الحرج والضيق.

٢ - انه تعالى قد شرع أحكامه على أساس ملاحظة ذلك، فجاءت تكاليفه وشـرائعه لمعاونة الانسان والبيان له، لا للتحكم فيه ولا للإثقال عليه، وجاءت تكاليفه ميسرة مخففة بريئة من التشديد والاعنات والارهاق.

وجاءت معاملته للناس متمشية مع العدل، والرحمة، والفضل، والاحسان.

٣ - ان الله تعـالى لا ينقص أجـر عامل، ولا يبخس أحدا حقه، لا في الدنيا، ولا في الآخرة.

٤ - ان الله تعالى يغفر الصغائر والهنات بمجرد البعد عن الكبائر، أي عظائم الذنوب.

٥ - ان العبد إذا ارتكب الكبيرة لم يقنطه الله من رحمته، ولم يتركه يحتمل في نفسه مرارة الشعور بأنه مطرود يائس، ولكنه يدعوه الى التوبة، ويطلب منه

---

(١) الآية ٦٠ من سورة النحل.

أن يطرق بابها، ويعده بأن يتقبل توبته الصادقة، ولو تكرر منه الذنب، وتكررت منه التوبة.

٦ – وأنه جل شأنه يرجي عباده ترجية أخرى، إذ ينبئهم أنه هو الغفور الرحيم، وأنــه يجوز في حقه أن يغفر لأهل الكبائر، ولو ماتوا دون أن يتوبوا، ماداموا غير مشركين.

٧ – انــه تعــالى يضاعف الحسنة فيجعلها عشر أمثالها، ثم يضاعف الجزاء لمن شاء أضعافا كثيرة لا تقف عند حد.

كل ذلك يحيي الآمــال، ويفتح أمام المؤمنين آفاق الرجاء، ويدفعهم الى العمل خفافا غير مثقلين بشعور الإثم، ولا مكبلين بغلال اليأس.

فسبحان ربنا العليم الحكيم، التواب الرحيم، ذي الفضل العظيم، ﴿**وله الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم، وإليه ترجعون**﴾[1].

---

(١) الآية ٧٠ من سورة القصص.

القسم الثاني

أهم الاحكام
التي تضمنتها سورة
«النساء»

١
أحكام اليتامى

عني القرآن الكريم في مكيه ومدنيه باليتامى، ولكننا نستطيع أن نقول: ان سورة «النساء» كانت هي أبرز سور القرآن الكريم في هذا الشأن.

وذلك ان السور المكية، التي عرضت لليتامى، إنما كانت تعرض لهم من جانب تربية العطف عليهم في نفوس الناس، والتحذير من اهانتهم، ونحو ذلك، نعم إنها وصلت في هذا الى حد أن جعلت دع اليتيم مظهرا من مظاهر التكذيب بالدين: ﴿**أرأيت الذي يكذب بالدين. فذلك الذي يدع اليتيم**[١] **ولا يحض على طعام المسكين**﴾[٢]. وإلى أن صورت الانسان وبينه وبين الغاية السعيدة عقبة عليه أن يقتحمها. وجعلت من صور اقتحام هذه العقبة اطعام اليتيم في وقت الشدة: ﴿**وهديناه النجدين، فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة؟ فك رقبة. أو اطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة**﴾[٣].

وإلى أن ذكرت الرسول في أول عهده بماضيه حين كان يتيما فآواه الله،

---

(١) أي يدفعه بعنف وجفوة.

(٢) الآيات ١، ٢، ٣ من سورة الماعون.

(٣) الآيات من ١٠ الى ١٦ من سورة البلد ـ والمسغبة: الجوع، والمتربة: الفاقة والفقر. وهو تصوير المسكين بأنه لاصق بالتراب.

وضالا فهداه، وعائلا فأغناه. ونهته لذلك أن يقهر يتيما، أو ينهر سائلا، أو يكتم نعمة: ﴿ألم يجدك يتيما فآوى. ووجدك ضالا فهدى. ووجدك عائلا فأغنى. فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر. وأما بنعمة ربك فحدث﴾[١].

ولكن هذا كله لم يخرج عن التوصية باليتيم، وإثارة عاطفة الناس اليه، وتوجيههم الى الاحسان به، كما وجهوا الى الاحسان بغيره من المسكين، وابن السبيل، والأسير ... الخ.

وكذلك فعلت بعض السور المدنية، مثل سورة «الانسان» التي تقول: ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا﴾[٢].

ولم يتعرض من السور المكية لمال اليتيم إلا سورتان، هما سورة «الأنعام»، وسورة «الاسراء»، وكلتاهما نهت عن قرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده، ضمن ما جاءت به من وصايا: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده﴾[٣].

أما سورة «البقرة»، وهي مدنية، فقد عرضت لليتامى على أسلوب ما نزل بمكة، فوجهت الى العطف عليهم في مثل قوله تعالى: ﴿وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين﴾[٤] ثم أمرت في شأن اليتامى بقانون عام إجابة على سؤال سأله المسلمون، وهذا القانون العام هو ابتغاء الاصلاح لليتامى، والتخفيف عن الناس بنفي الحرج من مخالطتهم مادام القصد هو الاصلاح: ﴿ويسألونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير، وان تخالطوهم فاخوانكم، والله يعلم المفسد من المصلح، ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم﴾[٥].

أما سورة «النساء»، فهي السورة التي عنيت بالتشريع لليتامى، وجعلت المجتمع متكافلا في القيام على أموالهم، ورعاية شؤونهم، كما سيتضح مما يأتي:

---

(١) الآيات من ٦ إلى ١١ من سورة الضحى.

(٢) الآيتان ٨، ٩ من سورة الانسان.

(٣) الآية ٣٤ من سورة الاسراء، والآية ١٥٢ من سورة الأنعام.

(٤) الآية ١٧٧ من سورة البقرة.

(٥) الآية ٢٢٠ من سورة البقرة.

٢ – إن أول ما عنيت به سورة «النساء» من الأحكام، هو أحكام اليتامى، فقد جاء ذلك من أول الآية الثانية من آيات السورة، ولم يسبقه إلا تقرير مبدأ المساواة العامة بين أفراد المجتمع.

وهذا أمر طبيعي منطقي، فإن اليتيم هو أضعف اللبنات في بناء المجتمع، فمن حقه أن تسبق العناية به كل عناية بمن سواه، وليس من الحكمة أن يهتم أولا بالقوي، الذي يستطيع أن يباشر شؤون نفسه، وأن يدافع عن حقه، ويؤخر الاهتمام بالضعيف، الذي لا يملك وسائل الدفاع والتدبير.

والتشريع الذي جاءت به السورة في شأن اليتامى، يرجع الى ما يأتي:

١ – حفظ أموال اليتامى.

٢ – اصلاح هذه الأموال بالقيام عليها، وحسن التدبير لها.

٣ – الانفاق على اليتامى من أموالهم، والعمل على أن يكون هذا الانفاق من ربحها وثمراتها، لا من أصلها ورأسها.

٤ – اصلاح اليتامى في أنفسهم، بتربيتهم تربية صالحة قائمة على تكريمهم، والاعتداد بشخصيتهم، وتعليمهم كل ما يكونون به مواطنين صالحين، وأعضاء في المجتمع نافعين.

٥ – ارتسام النوايا الصالحة في جميع شؤون اليتامى، أي الاخلاص لهم في رعاية أموالهم، وأخلاقهم، ومصالحهم، بحيث لا تنطوي النفوس على نية اغتيال أموالهم، ولا مبادرتهم بتضييعها قبل أن يكبروا، ولا الخروج عن المعروف في تقاضي أجور، أو نفقات للأوصياء منها، وبحيث يكون الوصي بالنسبة لليتيم كأنه أبوه، أو رائده المخلص، الذي لا هم له إلا أن يوفر له جميع أسباب الصلاح المادي والأدبي، والتربية القويمة.

٦ – الاشهاد عند دفع الأموال الى اليتامى، بعد بلوغهم سن الرشد.

هذه هي النواحي، التي دارت حولها أحكام اليتامى، في سورة النساء إجمالا، فلنتتبع ذلك بشيء من التفصيل ...

١ – حفظ أموال اليتامى:

يقول الله تعالى في الآية الثانية من سورة «النساء»: ﴿**وآتوا اليتامى**

أموالهم، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب، ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا﴾.

١) وقد اختلف المفسرون في المراد بالأمر الأول في هذه الآية، وهو قوله تعالى: ﴿وآتوا اليتامى أموالهم﴾ فمنهم من قال: ان المراد إيتاء اليتيم ماله، حين يبلغ سن النكاح، ويؤنس منه الرشد، وعلى هذا فالايتاء هو الاعطاء، أي تسليمهم الأموال، ودفعها اليهم.

وقد احتاج أصحاب هذا التفسير الى أن يؤولوا معنى «**اليتامى**» بما يتفق وتفسيرهم، فقالوا: ان لفظ اليتامى هنا مجاز مرسل، والمراد به الذين كانوا يتامى، وذلك لأنهم حين تدفع اليهم الأموال لا يكونون يتامى، بل يكونون بالغين راشدين، وأيدوا ذلك بأن هذا اللون من التعبير باليتامى عن الكبار الراشدين معروف عند العرب، فقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يقال له: «**يتيم أبي طالب**» استصحابا لما كان.

وهذا التفسير في نظري ليس بجيد، لأن هذا المعنى سيأتي في ما بعد، إذ يقول الله عز وجل: ﴿**وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا، فادفعوا اليهم أموالهم**﴾.

وعلى هذا يكون في الكلام تكرار لمعنى واحد مرتين في آيتين متقاربتين، أضف الى ذلك ما في هذا التفسير من تكلف تأويل اليتامى بالذين كانوا يتامى، مع إمكان حمل اللفظ على معناه الحقيقي، كما سيأتي في الوجه الذي نقرره.

ومنهم من قال: ان المراد بقوله ﴿**وآتوا اليتامى أموالهم**﴾ هو اجراء النفقة على اليتامى من أموالهم، ماداموا تحت الولاية، فهو بمثابة أن يقال للأولياء: أنفقوا على اليتامى من أموالهم، أو آتوهم أموالهم بإنفاقها عليهم، طعاما وكسوة، ونحو ذلك.

وهذا المعنى أيضا لا أرتضيه، لأنه سيأتي في ما بعد، حيث يقول جل شأنه: ﴿**وارزقوهم فيها واكسوهم**﴾ ولا داعي لأن يفسر الايتاء بمعنى يقتضي نسبة التكرار الى هذه الآيات المشرعة لأحكام اليتامى، فليس من شأن مواد التشريع أن تتكرر، فيؤتى بالحكم الواحد مرة في مادة، ومرة في مادة أخرى،

وهذا مع أنه لا يقال: آت فلانا ماله بمعنى أنفقه عليه، إلا على ضرب من التكلف والتخريج.

هذان هما الرأيان اللذان فسر بهما الأمر في هذه الآية بإيتاء اليتامى أموالهم.

وعندي ان لفظ «اليتامى» باق على حقيقته، والمراد بإيتائهم الأموال هو تمليكهم إياها، والاعتراف لهم بميراثهم الذي ورثوه، وحفظه لهم نيابة عنهم، فقد كان العرب لا يورثون إلا كبار الأولاد، أما اليتيم الذي فقد أباه وهو صغير، فلا يورثونه من المال شيئا، ويقولون: لا يرث إلا من يحمل السلاح ويقاتل، ويدافع عن العشيرة، فأمر الله تعالى بإبطال ذلك، وبأن يؤتى كل ذي سهم في الميراث سهمه، فالأموال أموالهم، استحقوها بحكم صلتهم بآبائهم، أو أمهاتهم، أو أقاربهم، فهي مملوكة لهم لا يجوز أن يسلبهم إياها أحد، ولا يجوز أن يمنعوا تملكها، وكل ما في الأمر على هذا التفسير أن قوله «**وآتوا**» ليس هو الايتاء الفعلي، أي دفع الأموال اليهم، وإنما هو الايتاء التمليكي، الى أن يستحقوا تسلمها، والتصرف فيها بأنفسهم، وهذا المعنى قريب، فإنك تقول آتيت فلانا حقه، وإن كان الذي قبض هذا الحق وكيله، أو نائبه، أو وصيه.

فهذا هو الحكم الأول، وهو حفظ المال على اليتيم، أي حفظ حقه في تملكه، وأن يحاز عنه. ويقبض له، وإبطال ما كانوا يفعلونه من حرمانه، واقتسام التركة دونه.

٢ - وقوله تعالى: ﴿**ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب**﴾ حكم ثان من أحكام الحفظ، ينهاهم عن أخذ الطيب من أموال اليتامى لأنفسهم، وتبديلهم به ما هو خبيث، وقد كانوا يفعلون ذلك، فكان الوصي ربما أخذ من مال اليتيم الشاة السمينة، وأبدله بها شاة هزيلة، فهو يحفظ العدد، ويختلس في الصفة، وذلك يحدث في زماننا أيضا، فإن بعض الأوصياء يبدلون أرضا بأرض، أو بيتا ببيت، لا يريدون بذلك مصلحة اليتيم، وإنما يريدون مصالحهم الخاصة، مع ما في ذلك من ظلم اليتيم، والحيف عليه في ماله.

فكما أمر الله تعالى في الحكم الأول بإيتاء اليتامى أموالهم، وحفظها عليهم

أصلا وملكا، نهى في الحكم الثاني عن التحايل على نقصها، باختلاس الجيد منها، ووضع الرديء مكانه.

٣ – وقوله تعالى: ﴿ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم﴾ حكم ثالث، نهى فيه الأوصياء أن يضموا أموال اليتامى الى أموالهم، ثم يشتركوا في الانتفاع بها على وجه يكونون فيه هم الفائزين بالقسط الأكبر من النفع، فمعنى «الضم» يفهم من التعبير بقوله «الى أموالكم» أي مضمومة، ومعنى انتفاع الأوصياء بالقسط الأكبر، يفهم من اسناد الأكل اليهم، وتعديته الى أموال اليتامى، لأن اليتامى لو كانوا هم الأكبر قسطا، والأكثر انتفاعا، وافادة من هذا الضم، لكانوا هم الآكلين أموال الأوصياء، أي أنهم أكلوا مالهم، وازدادوا من مال غيرهم.

٤ – وقوله تعالى: ﴿انه كان حوبا كبيرا﴾ راجع الى كل واحد من الثلاثة السابقة: فأكل مال اليتامى، بحرمانهم من نصيبهم في الميراث، حوب كبير، أي اثم عظيم، وتبديل الخبيث بالطيب من أموالهم، حوب كبير، وخلط أموالهم تحايلا على الجور فيها، والحيف عليها، حوب كبير.

وقد شدد الله النكير على من يفعل ذلك، فجاء في سورة «النساء»: ﴿ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا﴾(١) وجاء في سورة «الأنعام» المكية: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده﴾(٢).

ولذلك خاف المسلمون خوفا شديدا من هذا التهديد، وتحرجوا من معاملة اليتامى، ومن مخالطتهم في الطعام والشراب، وقد روي عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، وعطاء، وقتادة: انه لما أنزل الله تعالى قوله: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن﴾ وقوله: ﴿ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا﴾ انطلق من كان عنده يتيم، فعزل طعامه عن طعامه، وشرابه عن شرابه، فجعل يفضل له ـ أي لليتيم ـ الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد فيرمى به، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ ، فأنزل الله تعالى قوله في سورة «البقرة»: ﴿ويسألونك عن

---

(١) الآية ١٠ من سورة النساء.

(٢) الآية ١٥٢ من سورة الأنعام.

اليتامى، قل اصلاح لهم خير، وإن تخالطوهم فاخوانكم، والله يعلم المفسد من المصلح﴾(١) فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم(٢).

***

٢ - إصلاح أموال اليتامى والسفهاء:

ويقول الله عز وجل: ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما﴾.

١ - وقد اختلف المفسرون في المراد من «السفهاء» في هذه الآية، وذلك ان المعنى الأصلي للسفه في اللغة، هو خفة البدن، ضد الثقل، والرجاحة، ولما كانت خفة البدن يتبعها كثرة الحركة والاضطراب، بخلاف الثقل، الذي يتبعه الثبات وقلة الحركة، فقد أخذوا من السفه صيغة للمضطرب في رأيه وفكره، أو في تصرفه وأخلاقه، تشبيها له بالمضطرب في حركاته لخفة بدنه، فقالوا: «سفيه» كما أخذوا للراجح عقلا، المنضبط فكرا وتصرفا، وصفا من الرجحان والوزانة والرزانة، فقالوا «رجيح» و «وزين» و «رزين» تشبيها له بالراجح وزنا وجسما.

هذا في اللغة، والاستعمال المبني عليها، وقد رأى المفسرون أن هذا المعنى، وهو الخفة في الرأي والفكر، واضطراب التصرف، من شأنها أن تكون في الصغير، لأن الصغر هو فترة نقص التجارب، وضعف الرأي، ومن شأنها أيضا أن تكون في الضعيف عقله بجنون ونحوه، فلذلك قال بعضهم إن المراد بالسفهاء الصبيان عامة، والمجانين وأشباههم.

إلا انه قد ورد في بعض الآراء أن المراد بالسفهاء ما يشمل النساء، وهذا غير مقبول، لأن القائلين به متأثرون بأن المرأة كائنة ما كانت، سيئة التصرف بطبيعتها، والحقيقة ان سوء تصرفها أحيانا أو نقصه، إنما يرجع الى انها لم تكتسب من التجارب، مثل ما يكتسبه الرجل، بسبب بعدها واحتجابها، فليس ذلك نقصا طبيعيا فيها، حتى يقال ان لفظ السفهاء يشمل النساء عامة، فكم من

---

(١) الآية ٢٢٠ من سورة البقرة.

(٢) ص ٢١٠ ج، من تفسير الميزان للسيد محمد حسين الطباطبائي طبع مطبعة الحيدري بطهران.

امـرأة بزت الرجال علما، وعقلا، ورجاحة، وحسن تصرف، ولو كانت «الأنوثة» تصلح علة للحجر، ومظهرا للسفه، لكان الاسلام منع المرأة دائما من أن تتصرف في مالها، لأن الأنوثة صفة ملازمة لها، ولكنه على العكس من ذلك، أعطى المرأة حريتها التامة في التصرف المالي، واعترف لها بحق الملك، والبيع، والشراء، مهما كانت الصفقة، وسواء أكانت المرأة متزوجة، أم غير متزوجة، وإذن فالقول المشار اليه لا يعتد به، لمنافاته لمبدأ الاسلام في ذلك، وإنما الانثى في هذا كالذكر، فكما لا يعد الذكر سفيها، إلا اذا كان صغيرا، أو مجنونا، أو معتوها، فكذلك لا تعد الأنثى سفيهة، إلا إذا كانت صغيرة، أو مجنونة، أو معتوهة.

فليبق هذا معنا فقط، ولنطرح القول بأن النساء من السفهاء.

٢ – وقـد اختلفـوا في هذا المـوضع أيضا من جانب آخر: هل المراد بالسفهاء في هذه الآية اليتامى فحسب، أو السفهاء عامة، ولو كانوا غير يتامى؟

وسبب هذا الاختلاف أنهم رأوا الآية تقول: ﴿**ولا تؤتوا السفهاء أموالكم**﴾ فتجعل الأموال أموال المخاطبين، ولذلك قال بعضهم: ان هذا حكم عام، فليس للناس أن يؤتوا أموالهم لصغارهم، أو من عرفوا من أبنائهم بسوء التصرف، لأن هذه الأموال غالية ذات قيمة، وهي قيام الناس وقيامهم، أي عليها يدور أمرهم في الحياة، وبها يقومون، وتقوم معايشهم، ويترتب صلاحهم.

ولكن هذا المعنى – وإن كان حسنا في ذاته، وموافقا لأحكام الشريعة، وأهدافها في حفظ الأموال عامة – لكنه غريب عن السياق، الذي سيق له الكلام، فالحديث إنما هو عن اليتامى، وأحكام اليتامى، ولذلك يقول آخرون: ان المراد النهي عن تمكين اليتامى من أموالهم، ومنحهم حق التصرف فيها، ويتبع ذلك أن يكـون على هذه الأموال أوصياء يحفظونها، ويدبرون اصلاحها، وإنما اختير التعبير بالسفهاء، بدل التعبير باليتامى، للايحاء بالعلة، التي من أجلها اعتبر الحجر، وهي السفه.

٣ – واختلفوا أيضا في المراد من قوله تعالى: «**أموالكم**» فقيل: المراد أمـوال المخاطبين بالكلام، وهذا يتلاقى مع الذين يقولون: ان الحكم عام في

الصغـار، سواء أكانوا يتامى، أم كانوا ذوي آباء. وقيل المراد أموال اليتامى أنفسهم، وإنمـا عبـر عنهـا بقـوله «أمـوالكم» ايحاء بأن مال اليتيم، هو مال المجموع، وانه يجب اصلاحه، والمحافظة عليه بهذا الاعتبار أيضا، لا بمجرد أنه مال أفراد ضعفاء، لا يحسنون التصرف.

والمعنى الأخير أجود وأقرب الى القبول.

ولكن هنـاك معنى ثالثـا يظهـر لي: وهو ان الله تعالى يقول: ﴿**ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما**﴾ فيخاطب بذلك الأوصياء، مفيدا أن الأمـوال التي تسند اليهم نوعان: أموال لهم ملكا، وأموال لهم تصرفا وقياما، فالأولى أمـوالهم الخاصة، والثانية أموال اليتامى التي يقومون عليها، فمعنى ﴿**التي جعل الله لكم قياما**﴾ التي جعلها الله لكم، أي تحت أيديكم، على جهة القيام بها، والاصلاح لها، والتصرف باسم اليتامى فيها، لا على جهة الملكية والاختصاص، وهذا المعنى له ايحاءان:

أحدهما: انه يدل على ان الله تعالى يريد أن يوجه الأمة الى أن تعتبر أموال اليتامى شبيهة بالأموال العامة، التي لا يجوز المساس بها، ولا التفريط في اصلاحها، وتدبير أحسن الوجوه لها، وهذا قد تقدم في القول الثاني.

والآخـر: ان الله تعـالى يوحي الى الأوصياء، بأن يعتبروا هذه الأموال أمـوالهم، من حيث الحـرص عليها، والاخلاص في اصلاحها، وألا ينسوا في الوقت نفسه أنهم قوام عليها لا مالكون لها، وذلك يدعو الى التحرج من أخذ شيء منها على أي وجه، وبذلك يقف الوصي من مال اليتيم موقفين خالصين لمصلحة اليتيم، موقف المخلص لهذه المصلحة كأنها ماله، ومصلحته الخاصة، وموقف المتحرج من التماس أية مصلحة له، لأنه مجرد قيم ووصي.

***

٣ - الانفاق على اليتامى والسفهاء:

ويقول الله عز وجل: ﴿**وارزقوهم فيها واكسوهم**﴾ والرزق اذا أسند إلى

الناس، هو اجراء النفقة المرتبة في أوقات معلومة، يقال: يرزق الأمير جنده كل شهر كذا، أي يجري عليهم ذلك.

والله تعالى يأمر بأن يجرى على اليتامى ما يصلحهم من المال في مختلف شؤونهم من طعام، وشراب، ومسكن، وتعليم، ورياضة، ومداواة، ونحو ذلك، فان لفظ الرزق عام، وانما خص الكسوة بالذكر لأنها مظهر العناية، التي يراها الناس، فقد يأكل اليتيم أكلا حسنا، ويراعى في سائر شؤونه، ولكنه لا يظهر بمظهر حسن نظيف في ملابسه، فيؤخذ من هذا المظهر أنه غير مكرم، وأنه مهمل ممن يرعاه، والملابس والزينة في كل زمان هي مظهر العناية والتكريم، ولا سيما بالنسبة للصغار، ثم ان اليتيم اذا تعود أن يلبس الملابس الحسنة أحس بكرامته وقيمته، وغطى ذلك على ما عسى أن يراوده في نفسه من أنه يتيم، فكان ذلك علاجا نفسيا له، فهذا هو السر في تخصيص الكسوة بالذكر، من بين جميع نواحي الرزق والانفاق.

والآية تعبر بلفظ «**فيها**»، لافادة أن الوصي مطالب بأن يعمل على أن تكون النفقات، التي تنفق على اليتيم مما يثمره المال ويربحه، لا من أصله ورأسه، فعلى الأوصياء أن يتجروا لهم، أو يشتروا من الأرض أو نحوها ما يدر لهم ربحا وكسبا مناسبا، وألا يتركوا رؤوس أموالهم معطلة، فتأكلها النفقات، وتأتي عليها بعد حين.

ولو كان التعبير: وارزقوهم منها، لما أفاد المعنى الذي شرحناه، وفي ذلك يقول صاحب الكشاف: «**وارزقوهم فيها واكسوهم**» أي اجعلوها مكانا لرزقهم، بأن تتجروا فيها وتتربحوا، حتى تكون نفقتهم من الأرباح، لا من صلب المال، فلا يأكلها الانفاق.

وهذا المعنى المستفاد من الآية، وقد أشارت اليه السنة المطهرة، فقد روى الترمذي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ خطب الناس فقال: «**ألا من ولى يتيما له مال فليتجر فيه ولا يتركه حتى تأكله الصدقة**» أي الزكاة.

فاذا كانت الزكاة التي هي ربع عشر المال، مؤدية إلى ذهاب المال بعد حين، فان الانفاق أظهر في ذلك، وأدنى إلى تضييعه، فلذلك يجب تثمير المال، وتحريكه.

***

٤- بم نصلح اليتامى ومتى ندفع اليهم أموالهم:

ويقول الله عز وجل: «**وقولوا لهم قولا معروفا. وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح، فان انستم منهم رشدا، فادفعوا إليهم أموالهم**».

١- يأمر الله تعالى بتربية اليتامى تربية حسنة، حتى يكتسبوا شخصية قوية في الحياة، وذلك يكون بأمرين:

أحدهما: احسان مخاطبة السفيه واليتيم، بالقول الحسن الذي تعرفه البيئات الكريمة، والنفوس المهذبة، فان ذلك له تأثيره الطيب في تطييب القلوب، وتكوين الأفراد، وتنشئتهم على خلق الاعتداد بأنفسهم، والشعور بأن لهم قيمة ذاتية، والصبي اذا رأى من حوله مهتمين به، يعاملونه معاملة كريمة، ولا يخرجون في مخاطبته ولو حين العقوبة والتأديب، عن حدود الكرامة، والأدب العالي، فانه يطيب بذلك نفسا، ويتوجه الى تكميل نفسه، ويعلم أن الأمل معقود عليه، وقل مثل ذلك في السفيه، فان كثيرا من الناس يخطئون اذ يعاملونه بروح السخرية، والاهمال، والاهانة، فيزيدون بذلك عقدته النفسية تمكنا، ويهيجونه عليه اعصابه، فيظل فريسة لمرض «فقدان الشخصية».

فالقران يرشد إلى أن الأولى، والأقرب إلى اصلاح المحجور عليه، لسفه أو صغر، أن يعامل معاملة كريمة، وأن يقال له القول المعروف، فان في ذلك صلاحه أو - على الأقل - احترام شخصه، والابقاء على كرامته، والابتعاد عن مضاعفات شعوره بالنقص.

وبهذا يتبين أن القول المعروف هنا، هو كل ما به تصلح نفس اليتيم أو السفيه، ولا حد لذلك، ولا ألفاظ معينة تطلب فيه، والمفسرون حين يذكرون ألفاظا خاصة في ذلك لا يريدونها بذاتها، ولكنهم يذكرونها على سبيل التمثيل لما يقال،

ومن ذلك وعده بأن يعطي ماله، حينما يكبر ويرشد، وتعريفه بأن المال محفوظ له، وبأن الوصي لا يبغي التحكم فيه، وانما يعمل لصالحه، ومن ذلك نصحه وتهذيبه... الخ.

ولا شك أن رعاية الصبي والسفيه، وتطييب نفسيهما بالقول المعروف، يجب ألا تخرج الى حد التدليل، فان التدليل مفسد. ولهذا جاء التعبير بالمعروف، وهو ما يعرفه أهل اللباقة، والتربية، والتجربة السليمة، في معاملة أبنائهم، أو تلاميذهم، أو مريديهم، من كل ما فيه ايناس وتوجيه، دون ميل إلى ناحية الافراط أو التفريط.

الثاني: تربية اليتيم تربية عملية بتعويده مباشرة بعض شؤونه، والتدرج به في ذلك على سبيل الاختيار والابتلاء، فاذا كان فتى أعطى بعض المال الصالح، للنفقة في وقت معلوم، لينظر كيف يدبر انفاقه، وان كل فتاة علمت كيف تقوم على شؤون البيت في بعض الأوقات، وهكذا.

ان التجربة العملية، هي الفرصة التي تهيىء للقاصر أن يتعلم، وأن يجبر قصوره، وأن الأخطاء التي تقع فيها لا بأس بها، فهي تعلم صاحبها، وتعرف وليه بأسباب النقص، حتى يعالجها.

وقد يكون من ابتلاء الوصي لليتامى، وتعويدهم الحياة العملية، أن يجعلهم في بعض أوقاتهم معه، وأن يحضرهم معاملاته، وبيعه، وشرائه، وعقوده، ونحو ذلك. وأن يلفتهم إلى الأعمال، وإلى المتاجر، وإلى المصانع، ويرحل بهم أحيانا إلى بعض البلاد، والنواحي التي يفيدون من الرحلة إليها.. وهكذا من كل ما يبصرهم بشؤون الحياة، ويكون ثقافتهم العملية، ويوجههم الى احتذاء الصالح، واجتناب الفاسد.

أما سن النكاح فهي البلوغ والاحتلام، وقد عرف من أطوار الحياة الانسانية ان هذه السن يصاحبها الرشد عادة، ويصبح الانسان فيها ذا شخصية كاملة، ولذلك يوجه اليه التكليف، ويعقد له الحساب، ويطالب بما يطالب به الراشدون المالكون لأمر أنفسهم.

وأما ايناس الرشد، فانما اشترط مع سن البلوغ والنكاح، لأن بعض الأفراد قد يبلغون سفهاء غير راشدين وقد يسبق النضج الجسمي النضج

العقلي، فترى شخصا قويا في بنيته صحيحا في اعضائه، بالغا مبلغ الرجال او النساء في جسمه وتكوينه، ولكنه على ذلك غير قوي في تصرفه، ولا راشد فيما يزاول من عمل، فلهذا كان من الحكمة الاحتياط قبل تسليم المال لليتيم وإلا ضاع الجهد الذي بذل من قبل في حفظه وتنميته.

وبعض المفسرين يفسر الرشد المراد بما يشمل الصلاح في العقل والدين، وأخذ من ذلك بعض الفقهاء أنه يجب الحجر على كل من كان فاسقا في دينه، ولكن آخرين من الفقهاء لا يرون الحجر على الفاسق، وذلك هو الأظهر، فان الله تعالى يقول: ﴿فان آنستم منها رشدا﴾ في مقام الابتلاء والاختبار، ولا صلة لذلك بمقام التقوى أو الفسق، ثم قد جاءت كلمة «رشدا» منكرة لافادة أن المراد نوع من الرشد، وذلك هو الرشد في الأموال وادارتها وحسن تصريفها، وليس هو الرشد بمعنى التقى والاهتداء.

نعم، اذا كان الفاسق عربيدا مسرفا على فسقه، مبذرا مضيعا ماله في أبواب الفجور، فانه يكون بذلك سفيها ويجب الحجر عليه، ولكن هذا ليس لمجرد الفسق، وان كان الفسق يسقط منزلته الأدبية، ولكن للتبذير والسفه، وكم من ملابس لأنواع من الفسق، ولكنه في المال وادارته واصلاح شأنه راشد، وكم من صالح تقي قائم بما يجب عليه في دينه، ولكنه قاصر في شؤون المال محتاج إلى أن يحجر عليه.

فالخلاصة أن الرشد المقصود في الآية هو ما يتعلق بالمال واحسان التصرف فيه، وادارته على وجه سليم فيما يعرف الناس، وفيما تجري به العادة.

***

٥ـ ارتسام النوايا الطيبة

في شؤون اليتامى:

ويقول الله عز وجل **﴿ولا تأكلوها اسرافا وبدارا أن يكبروا، ومن كان غنيا فليستعفف، ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف﴾**.

١ ـ نهى الله تعالى عن لون من ألوان التضييع لأموال اليتامى، وذلك هو ما نراه من مبادرة بعض الأوصياء أموال اليتامى بالانفاق على وجه التبذير

والاسراف، حتى اذا كبروا لم يجدوا لهم مالا، والذين يفعلون ذلك من الأوصياء لهم أهداف خبيثة، منها أن أحدهم يكره أن يرى اليتيم في حياته شخصا قويا غنيا قد ينافسه في رياسته على قومه، أو يخرج على طاعته ورعايته، فلذلك يحرص على أن يبدد ثروته قبل أن يبلغ، وربما أحالها إلى نفسه أو إلى بعض أقاربه وأوليائه بألوان من الحيل، فتؤول إليه، ويصبح هو صاحبها مباشرة أو بالواسطة، ويظل اليتيم طوال حياته يشعر بمرارة ذلك وحسرته في نفسه.

ومن الأوصياء من يزوج اليتيمة بابنه مثلا لكي يضم مالها إليه، ويأمن أن يخرج من سلطانه، وهو لا يبغي بذلك زوجا صالحة لابنه، ولكن يبغي مالها وثروتها وتطويعها والسيطرة عليها.

ومن الأوصياء من اذا أراد قضاء مصلحة لليتيم أنفق على نفسه في سبيل تلك المصلحة نفقة طائلة من مال اليتيم، فيسافر على حسابه في أعلى درجة، وينزل على حسابه في أفخم نزل. ويبعثر في هذا يمينا وشمالا دون حساب، ولو أنه كان يسعى في مصلحة لنفسه خاصة لالتمس أيسر السبل، وأهون النفقات، وتدبر كل وسيلة من وسائل الاقتصاد.

ويدخل في ذلك ما يفعله بعض الأوصياء من الانفاق على الأب الميت انفاقا فيه سرف وفيه مفاخرة تعود عليه فيما يظن بفوائد أدبية ومعنوية من الجاه ومظهر الغنى، فنراه يقيم السرادقات في ليالي العزاء، وفي مواعيد الذكرى، ويذبح في هذه الليالي الذبائح، فيطعم هو وأولاده، وأصحابه، وكل ذلك على حساب مال اليتيم.

وقد رأينا من الأوصياء من ينفق أموالا طائلة احتفالا بعيد ميلاد اليتيم، ويبذر في سبيل هذا المظهر، ويطعم هو وأولاده وأهله من مال اليتيم، مع أنه لا يفعل ذلك بالنسبة لأولاده.

كل ذلك ظلم لليتيم، واغتيال لماله، وانطواء على الغش ونية السوء في أمره، فالله تعالى ينهى عن ذلك كله.

٢ـ ويأمر الله بعد ذلك أن يكون الأوصياء ذوي رفق واحسان وعفاف، فمن كان منهم غنيا فليستعفف عن أخذ أجر أو مكافأة، أو عن تلمس أي نفع من وراء اليتيم، ومن كان فقيرا ذا حاجة، أو كان لا بد له أن ينقطع لشأن اليتيم، ويتفرغ

لادارة ماله والقيام بمصالحه، فليأكل بالمعروف، والمعروف غني عن التعريف.

وقد تكلمنا في «**الآيات الموجهة**» عن هذا التوجيه، فليرجع إلى ذلك[1]؟

ومن توجيه السنة المطهرة في ذلك ما رواه أحمد وأبو داود وغيرهما من أن ابن عمر رضي الله عنه سأل النبي - صلى الله عليه واله وسلم - فقال: ليس لي مال واني ولي يتيم. فقال: «**كل من مال يتيمك غير مسرف ولا متأثل مالا**[2]، **ومن غير أن تقي مالك بماله**».

***

٦- الاشهاد على اليتامى عند دفع أموالهم اليهم:

ويقول الله عز وجل: ﴿**فاذا دفعتم اليهم أموالهم فاشهدوا عليهم، وكفى بالله حسيبا**﴾.

والغرض من هذا الاشهاد مزدوج: فهو اعلان للناس واظهار لأن هذا اليتيم قد أصبح راشدا صالحا للتعامل معه، فهو بمثابة تقديمه إلى الهيئة الاجتماعية كعضو راشد جديد، وهو ابراء لذمة الوصي، وتعريف بأنه قد أدى إليه ماله، فلا يعود اليتيم إلى منازعته.

وقد يفهم من قوله تعالى: «**فأشهدوا عليهم**» معنى عرض المال، أصله وثمراته وما أنفق منه، على خبير يراجع ذلك ويشهد على صحته، وذلك لأن «**الاشهاد**» لا يتم بمجرد أن الوصي يسلم اليتيم مبلغا من المال، أو بعض الممتلكات، فمن أين يعلم الشهود بأن هذا المال هو كل ماله، وأن هذه الممتلكات هي كل ما يملك، وانما يعرف ذلك بأن يحاسب الوصي ويراجع حتى تتبين براءة ذمته على وجه يمكن معه الشهادة بذلك، والشهادة بشيء انما تكون مع العلم به والتأكد من واقع أمره.

وحكمة هذا التشريع جليلة، فإنه مع ما قدمنا يبعث في الأوصياء المحاذرة، ويجعلهم متوقعين لأن يحاسبوا عند تسليم الأموال، فلا يحاولون اغتيال شيء منها، ولا انفاقه في وجه غير مشروع.

---

(١) ص ٩٠ من هذا الكتاب.

(٢) تأثل المال: تأصله واكتسبه.

ولمـا كانت محـاسبـة النـاس عادة، وشهادتهم عادة، انما هي على ما يعلمـون، ومن الممكن أن يمـوه على الشاهدين والمحاسبين، فإن الله تعالى يحذرهم حسابه هو، فيقول: ﴿وكفى بالله حسيبا﴾ أي محاسبا، فمهما أخفيتم فإنه به عليم، وعليه شاهد ورقيب، وفي هذا تخويف عظيم للأوصياء، واحتياط بعد احتياط لليتامى.

* * *

ضريبة التركات:

٣ـ وقد عرضت سورة النساء لليتامى في أحكام أخرى مشتركة بينهم وبين غيرهم:

١ـ فعرضت لهم في قوله تعالى: **﴿واذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين، فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا﴾**(١).

وواضح أن هذه الآية في غير الوارثين، ويمكن أن يؤخذ من ذلك أصل لما تقرر أخيرا من «ضريبة التركات» في القانون المصري، فإن الدولة تحصل باسم اليتـامى والمسـاكين ما يحقق «**فـارزقوهم منه**» أي من المال الذي يقتسمه المستحقون للتركة، وهي بذلك حاضرة دائما عن هؤلاء المرزوقين تأخذ «رزقهم» في صورة ضريبة ثم تقوم برعاية مصالحهم منها.

٢ـ وعرضت لهم في الآية التي شرحنا أهدافها في القسم الأول من هذا الكتاب، وهي قوله تعالى: **﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا، وبذي القربى واليتامى والمساكين. . .﴾** الآية (٢).

وبـذلك جعلت على المجتمـع حقـا لليتامى كما جعلت عليه حقا لسائر الأصناف المذكورة فيها.

وينبغي أن نعلم هنا أن المأمور به في هذه الآية هو «الاحسان» المطلق وان الاحســان باليتـامى لون خاص غير الاحسان بذوي القربى، وبالجيران، وبابن السبيل، وقد ذكرنا شيئا من ذلك في كلامنا على هذه الآية من قبل(٣).

---

(١) الآية ٨ من سورة النساء.

(٢) الآية ٣٦ من سورة النساء.

(٣) راجع ص ٥٠ من هذا الكتاب.

٢
تعدد الزوجات

٣ـ وفي أثناء هذه الأحكام التي قررتها السورة في شأن اليتامى، جاء حكم «**تعدد الزوجات**» وحكم ايتاء النساء صدقاتهن:
وذلك في قوله تعالى:

﴿وان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع، فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم، ذلك أدنى ألا تعولوا، وآتوا النساء صدقاتهن نحلة، فان طبن لكم عن شيء منه نفسا، فكلوه هنيئا مريئا﴾(١).

١ ـ ولا بد لنا أن نعرف: لم ذكر حكم تعدد الزوجات بين أحكام اليتامى؟ ولم ورد به التشريع هكذا جوابا لشرط فقيل **﴿وان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾** الخ؟ وهل هذا الحكم الأساسي الذي له شأنه الهام في المجتمع يساق عرضا أثناء الحديث عن غيره، ويؤتى به على نحو جانبي فيقع جوابا لشرط غريب عنه على ما يقول المفسرون؟

---

(١) الأيتان ٣، ٤ من سورة النساء.

فاذا أصر الناظر في الكتاب الكريم على أن يجد الأجوبة المقنعة في تفسير هذه الآية الأولى، فان هذا الاصرار سيجعله يقف أمام آراء المفسرين لها في شيء من التردد والتحير.

ولنعرض هذه الآراء أولا، ثم ننظر:

رأي أم المؤمنين عائشة:

١ ـ في الصحيحين وغيرهما عن عروة بن الزبير أنه سأل خالته عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ عن هذه الآية فقالت: يا ابن أختي، هذه اليتيمة تكون في حجر وليها، يشركها في مالها، ويعجبه مالها وجمالها فيريد أن يتزوجها من غير أن يقسط لها في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهن الا أن يقسطوا لهن، ويبلغوا بهن أعلى سنتهن في الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن، قال عروة: قالت عائشة: ثم ان الناس استفتوا رسول الله ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ بعد هذه الآية فيهن، فأنزل الله عز وجل: **﴿ويستفتونك في النساء، قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن﴾**(١) قالت: والذي ذكر الله أنه يتلى عليكم في الكتاب الآية الأولى التي قال الله فيها: **﴿وان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾** قالت عائشة: وقول الله في الآية الأخرى **﴿وترغبون أن تنكحوهن﴾** رغبة أحدكم عن يتيمته التي تكون في حجره حين تكون قليلة المال والجمال، فنهوا أن ينكحوا ما رغبوا في مالها وجمالها الا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن».

هذه هي الرواية الأولى التي يوردها المفسرون حين يشرعون في تفسير هذه الآية، وهي رواية قول السند، رواها البخاري، ومسلم، والنسائي، والبيهقي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وكما ثبتت عند أهل السنة ثبتت كذلك عند الامامية، فقد ذكر العلامة الطبرسي في كتابه «مجمع البيان في تفسير القرآن» هذه الرواية عن عائشة ثم قال: وروي ذلك في تفسير أصحابنا، وقالوا

---

(١) الآية ١٢٧ من سورة النساء.

انها متصلة بقوله تعالى: ﴿ويستفتونك في النساء﴾... الآية، وبه قال الحسن والجبائي والمبرد(١).

ولذلك يميل المفسرون إلى قبولها، ويفسرون الآية على هداها.

وجملة ما جاءت به هذه الرواية هو ما يأتي:

١- ان الله تعالى ينهي الأوصياء عن التزوج باليتامى اذا خافوا عدم الاقساط اليهم.

٢- وأن هذا النهي مستفاد من أمره تعالى بتزوج غيرهن من النساء، وذلك أن التقدير: وان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى، أي اللاتي تحت ولايتكم، فالتمسوا نكاح ما طاب لكم من النساء غيرهن اثنتين او ثلاثا او أربعا... الخ، قال ربيعة: أي اتركوهن فقد أحللت لكم أربعا فوسعت عليكم في غيرهن حتى لا تظلموهن، وهذا كما لو قال قائل: النساء غيرهن كثير، ولكم أربع ان شئتم، فدعوا هؤلاء والتمسوا غيرهن.

واذن فالسبب في مجيء هذا الحكم بين أحكام اليتامى أن الغاية منه صيانة حقوق اليتامى عامة في أموالهم.

٣- وان هناك اتصالا بين هذه الآية، وقوله تعالى فيما يأتي من سورة النساء: ﴿ويستفتونك في النساء﴾، وذلك أن قوله ﴿وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء﴾ المراد به هو «وان خفتم ألا تقسطوا...» الخ.

٤- وأن المراد بقوله تعالى ﴿وترغبون أن تنكحوهن﴾ هو الرغبة عنهن، لا الرغبة فيهن.

٥- ولم تتعرض هذه الرواية لبيان المراد بقوله تعالى ﴿اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن﴾ وقد ذكر بعضهم عند تفسير هذه الآية من سورة النساء أن عائشة - رضي الله عنها - ترى أن المراد بذلك عدم ايتائهن صداقهن، وهذا يتمشى مع قوله ﴿فان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى﴾ حسب الرواية المروية عن عائشة، لأنها جعلت عدم الاقساط هو الرغبة في عدم اعطاء اليتيمة صداقها.

---

(١) ص ٥ من الجزء الثالث من كتاب «مجمع البيان» طبع مطبعة العرفان بصيدا (لبنان) سنة ١٩٣٥ م.

هذا هو رأي أم المؤمنين عائشة، وقد أخذ به أكثر المفسرين، لقوة سنده ومعناه فيما يرون.

نقد هذا الرأي

ونحن نرى أن هذا مع قوة سنده، ليس قويا من جهة المعنى، وأنه يرد عليه اعتراضات منها ما يأتي:

١ـ اذا كان الغرض نهي الأوصياء عن ظلم اليتامى بالزواج منهن دون اعطائهن مهر مثلهن، فإن أسلوب التعبير عن ذلك، اما أن يكون نهيا صريحا عن هذا بأن يقال مثلا: لا تبخسوا اليتامى مهورهن، او ايجابا صريحا لحقهن في ذلك بأن يقال مثلا: اتوهن مهورهن كاملة، أما أن يقال لافادة هذا المعنى: ﴿**وان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع**﴾ الخ، فهذا بعيد.

أولا: لأن كلمة «**تقسطوا**» لا تختص بالأقساط في دفع المهور فحسب، فالأقساط هو القيام بالقسط في كل شيء، فحمله على ناحية معينة هي ناحية المهر فقط تحكم.

وثانيا: على فرض أن يكون الأمر كذلك، فالمقام لا يستدعي مجيء جواب هذا الشرط على ما جاء به من التبرع بذكر الزواج من غير اليتامى باثنتين أو ثلاث أو أربع، وان ذلك عند الأمن، أما عند الخوف من عدم العدل فالواجب الاقتصار على واحدة، أو على ما ملكت أيمانكم، كل هذا يكون مجتلبا من غير أن يستدعيه المقام، وأسلوب القرآن وبلاغته واعجازه في المحل الأرفع، وهو أسمى من أن يحمل على هذا التصيد لأبعد المناسبات، وأنه يقرر حكما في شأن اليتامى فينتقل إلى حكم اجتماعي أساسي هام وهو حكم التعدد فيجعله طرفا تابعا، وحاشية مسوقة عن طريق المصادفة هكذا ارتجالا ومفاجأة.

٢ـ ثم ان الأمر بايتاء النساء صدقاتهن كاملة، واعتبارها نحلة لهن وحقا مكتسبا ولا يجوز أخذ شيء منه إلا بطيب نفس، قد جاء في الآية التالية لهذه

الآية: ﴿**وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فان طبن لكم عن شيء منه نفسا، فكلوه هنيئا مريئا**﴾

فهذا حكم عام في مهور النساء، يتيمات أو غير يتيمات، فهل ترى الآية الأولى جاءت لتقرره أصالة، فدارت حوله هذا الدوران الذي وصفوه، ثم جاءت الآية التالية لها فصرحت به تصريحا، ووضحته توضيحا؟ وما فائدة هذا التكرار مرة بخفي الاشارة ومرة بصريح العبارة؟

٣ـ ثم اذا كان الأمر كما يقولون فلم جاء جواب الشرط ﴿**فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع**﴾ ولم تبدأ الاباحة ـ كما هو مقتضى الحال ـ بالواحدة من غيرهن، فيقال: «أحاد ومثنى وثلاث ورباع»؟

أليس الكلام فيمن يريد أن ينكح اليتيمة غير مقسط لها في صداقها، فليقل له: أتركها وتزوج واحدة غيرها، ولا أظن أن المناسب أن يقال له واتركها وتزوج اثنتين، أو ثلاثا، أو أربعا، فلو أن الآية ـ اذا أرادت ذكر التعدد هنا ـ بدأت بالواحدة، ثم ثنت بالاثنتين، وهكذا، لكان أقرب إلى ما يقتضيه المقام على حسب ما يقولون.

٤ـ ثم ان هذه الرواية تربط بين آية ﴿**وان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى**﴾ وآية ﴿**ويستفتونك في النساء**﴾ وهذا الارتباط بين الآيتين مسلم، ونحن لا ننكر ذلك على الوجه الذي سنبينه فيما بعد، ولكننا نرى تلك الرواية تفسر ﴿**وترغبون أن تنكحوهن**﴾ مع أن المتبادر أن الكلام على معنى «في»، وهو المناسب لما ذكرته الرواية من الرغبة في نكاح اليتيمات في آية ﴿**وان خفتم ألا تقسطوا**﴾.

ثم ان تفسير ﴿**اللاتي لاتؤتونهن ما كتب لهن**﴾ بمنعهن مهورهن غير جيد، لأنه لا يقال في المهر عندئذ ﴿**ما كتب لهن**﴾ والمفروض أن الكلام فيمن يرغب أو لا يرغب في نكاح اليتيمة، وهي مجرد رغبة لم تتم حتى يكون هناك ما يسمى صداقا كتب لهن.

وبهذا كله يتبين أن هذا الرأي غير مقنع، وان الآية على تقديره تكون ذات

أسلوب عجيب في عدم تماسكه، وهو ما يجل القرآن عنه، وترتفع بلاغته واعجازه عن مستواه.

فلنتابع النظر في الوجوه الأخرى:

وجوه أخرى مروية في تفسير الآية(١):

(ب) وعن ابن عباس، والضحاك، والربيع، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والسدى، وقتادة ـ فيما رواه ابن جرير ـ:

انهم كانوا في الجاهلية ينكحون عشر من النساء الأيامى وكانوا يعظمون شأن اليتيم، فتفقدوا من دينهم شأن اليتيم، وتركوا ما كانوا ينكحون في الجاهلية ـ فلم ينتهوا عنه ـ فقال تعالى: **﴿وان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾** ونهاهم عما كانوا ينكحون في الجاهلية، قال ابن جرير: فقيل لهم كما خفتم ألا تعدلوا في اليتامى، فكذلك فخافوا في النساء ألا تعدلوا فيهن، ولا تنكحوا منهن إلا من واحدة إلى الأربع ولا تزيدوا على ذلك وان خفتم أيضا ألا تعدلوا في الزيادة عن الواحدة، فلا تنكحوا الا ما لا تخافون أن تجوروا فيهن من واحدة أو ما ملكت أيمانكم.

(جـ) وقيل: كانوا يتحرجون من ولاية اليتامى وأكل أموالهم، ايمانا وتصديقا، فقال سبحانه: ان تحرجتم من ذلك، فكذلك تحرجوا من الزنا، وانكحوا النكاح المباح من واحدة إلى أربع.

(د) وقيل: المعنى وان كنتم تتحرجون من مؤاكلة اليتامى فتحرجوا من الجمع بين النساء وألا تعدلوا بين النساء، ولا تتزوجوا منهن إلا ما تأمنون معه الجور..

وهذه الأوجه التي ذكرت بعد الوجه الأول الذي روي عن عائشة، هي أشد

---

(١) اقرأ في تحصيل هذه الوجوه مثل كتاب «مجمع البيان» للطبرسي، فقد عد خمسة منها غير الوجه الأول الذي جاءت به الرواية عن عائشة ـ ص ٦ ج ٣.

من الوجه الأول تهافتا، ويبدو فيها كلها التحايل على الربط بين الشرط والجزاء على نحو لا يفيد القارىء اقتناعا، ولا يبعث في نفسه ارتياحا.

ولذلك نميل الى رفض هذه الأوجه كلها.

* * *

رأي جديد:

(هـ) أما التفسير الصحيح في نظرنا، والذي لا يرد عليه أي اعتراض، والذي نقرره مطمئنين إليه، وان لم ترد به رواية، ولم يعرف عن أحد من قبل، فيتلخص فيما يأتي:

١ـ ان العرب في الجاهلية كانوا يستضعفون اليتامى والنساء، وكان من مظاهر هذا الاستضعاف:

أنهم كانوا يحرمون الصبي والمرأة من الميراث.

وأنهم كانوا يطمعون في أموالهم اذا كانت لهم أموال غير الميراث أيضا، فكانوا يخلطونها بأموالهم، ويتبدلون رديئهم بالجيد منها اذا شاؤوا ويميلون عليها في أزماتهم ولا يتحرجون من أنفاقها في مصالحهم الخاصة.

وأنهم كانوا يعضلون النساء كلما وجدوا سبيلا إلى ذلك، كي ينتفعوا من هذا العضل، فاذا ورث الرجل زوجة أبيه أو زوجة أخيه، كان له أن يعضلها حتى تفتدى منه بمال تدفعه له، واذا كره زوجته التي معه، علقها فلم يطلقها، ولم يعاملها معاملة الزوجة وذلك حتى تفتدى منه بمال تدفعه له، واذا كانت تحت يده يتيمة عضلها عن الزواج حتى لا تفلت أموالها منه.. وهكذا.

٢ـ وقد جاء الاسلام بابطال ذلك كله، وجعل لليتامى حقوقا، وارتفع بهم عن أن يكونوا في المجتمع محلا للاستضعاف في صورة من الصور، فلما أخذ المسلمون بتلك الأحكام وشدد النكير على من يظلم اليتامى والنساء، أصبح هناك روح عام متغلغل في المجتمع الاسلامي، ذلك هو الخوف من مخالطة اليتامى لئلا يصيبهم الوعيد بالعذاب، فجاء القرآن بالرخصة في ذلك فأباح لهم أن يخلطوا أموالهم بأموال اليتامى ما داموا لا يبتغون إلا الاصلاح، وعرفهم بأن اليتامى ما هم إلا أخوانهم، والأخ مساو لأخيه، ويجب أن يكون بينهما كل مظاهر

التعاون بين الأخوة، فانتهت بذلك مشكلة الخلط حيث استجازوه بعد أن كانوا يتحرجون منه، وبرزت مشكلة أخرى هي: كيف يمكن أن يقوموا لليتامى بالقسط في كل شيء؟

٣ـ ولذلك كان الرجل ربما تحرج من ولاية شؤون اليتامى، وقد يكون مضطرا في سبيل رعايتهم إلى أن يداخلهم وفيهم فتيات، أو يرى أمهاتهم الأيامى وهو يدخل عليهم ويخرج، وذلك ما فيه من الحرج ما فيه، حيث لا تؤمن الدواعي النفسية من رجل يدخل على أيم من النساء، وعلى بناتها، وله الحق بحكم وصايته أن يراهن ويتحدث اليهن، ويجلس معهن، فاذا أراد أن يبتعد عن ذلك، وأن يصد عن نفسه عوامل الفتنة بالابتعاد، أو بتقليل الزيارة والتعرف، فانه سيكون مقصرا غير قائم لليتامى بالقسط على الوجه الذي أمر الله به، وعلى الوجه الذي يقتضي اصلاح أموالهم، ومعرفة مشاكلهم، واصلاح أنفسهم بالمعروف.

٤ـ فالأوصياء اذن كانوا بين نارين من هذين الواجبين: واجب القيام بالقسط لليتامى على وجهه الصحيح ـ وهو يقتضي ملابسهم ومداخلتهم والجلوس اليهم، وفيهم من هي صالحة للزواج وبينهم ـ في كثير من الأحيان ـ أمهم نفسها، تلك الأم التي مات عنها زوجها، ولعل فيها بقية من شباب وصلاحية للزواج ـ من واجب آخر هو واجب الاعتصام، والابتعاد عن الفتنة، والمؤمن لا ينبغي أن يضع نفسه وضعا يكون فيه فاتنا أو مفتونا، فما السبيل إلى الخلوص من هذا المأزق؟

انه هو الحكم الذي شرعته الآية: ﴿**وان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى**﴾ أي ألا تقوموا فيهم ـ وأقول فيهم لأني أفهم أن الضمير لليتامى عامة ذكورا واناثا ـ فان خفتم ألا تقوموا في شأنهم بالقسط تحرجا من مداخلتهم ومجالستهم في بيوتهم التي لا تخلو من يتيمات أو أيامى، فالمخلص من ذلك هو: ﴿**تعدد الزوجات**﴾.

انه هو الذي يوجد فيه الحل لهذا الاشكال، فقد أباح الله للرجل في مثل هذا الظرف أن يكون له أكثر من واحدة، اذا أمن الجور، فليدخل الأوصياء من هذا الباب، ومن كان منهم متزوجا بواحدة، فلا بأس عليه ان يضم اليها ما طاب

له من النساء، فيتزوج احدى يتيماته، أو يتزوج الأم نفسها، وبذلك يصبح دخوله هذا البيت دخولا مأمون العاقبة، فيجمع بذلك بين رعاية مصلحة اليتامى على الوجه المطلوب، وبين وقاية نفسه، ووقاية غيره، من عوامل السوء والفتنة.

٥ـ والآية الأخرى على هذا التفسير يبدو ارتباطها بهذه الآية وبغيرها من آيات اصلاح اليتامى، واضحا جليا، وذلك أنها تحدثنا عن سؤال المسلمين للنبي في النساء، وعن بقايا تحرجهم في شؤونهن، كرغبة الولي في يتيمته، ومن عرف المجتمع في عدم توريثهن أو توريث الولدان عامة فتقول: ﴿**ويستفتونك في النساء**﴾ ثم تحيل على ما سبق تقريره في الكتاب من أحكامهن وأحكام المستضعفين من الولدان، وما أمروا به من القيام لليتامى عامة بالقسط كاملا دون عبث أو تهاون في اقامته، فتقول: ﴿**قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء**﴾ وانظر الى قوله ﴿**يتامى النساء**﴾ وكيف يشير إلى ما سبق من قوله ﴿**وان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء**﴾ ثم تقول ﴿**اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن**﴾ وذلك هو نصيبهن في الميراث فالتعبير بقوله ﴿**ما كتب لهن**﴾ لا يليق إلا بشيء مكتوب مقرر مفروض، وقد وصف الله الأنصبة بقوله في آية المواريث: ﴿**فريضة من الله**﴾، وقد بينا أنه اذا فسر ذلك بفرض الصداق، فانه لا يناسب، لأنه لم يتم زواج حتى يقال صداق وكتاب مكتوب، ثم تقول: ﴿**وترغبون أن تنكحوهن**﴾ وهي الرغبة في نكاح الأيم أو اليتيمة، وهي المعبر عنها في الآية السابقة بقوله: ﴿**فانكحوا ما طاب لكم**﴾ أي أن اباحة التعدد ملاحظ فيها الرغبة وطيب المرأة في نظر الراغب فيها إلى جانب الغرض الذي قررناه، وهو التمكن من أن يقام لليتامى بالقسط كاملا، ثم تقول: ﴿**والمستضعفين من الولدان**﴾ فتعطف المستضعفين من يتامى الصبيان على المستضعفين من يتامى النساء، لأن الولدان جمع وليد للصبي، أما الأنثى فوليدة وجمعها ولائد، وتختم بقوله تعالى: ﴿**وأن تقوموا لليتامى بالقسط**﴾ أي لليتامى عامة بالقسط التام على ما أمر الله به في مواضعه من الكتاب العزيز.

***

وبذلك يتبين:

١ـ ان تعدد الزوجات انما شرع لمثل هذه الغاية الشريفة، التي هي

الرغبة في القيام لليتامى بالقسط، تحقيقا لأمر الله، ورعاية لمصلحة اليتامى أنفسهم، وأنه ليس مشروعا لمجرد ارضاء النفس، وتحقيق الرغبة في النساء.

٢ـ وانه بهذا التفسير ليس غريبا عن موضوع اليتامى ولا دخيلا في أحكامهم، فانه ذكر حلا لمشكلة من مشكلاتهم في المجتمع، حين تقضي المصلحة بأن يقوم عليهم وصي بالقسط، وتقضي الآداب الاسلامية بأن يتحرج الرجل من الالتقاء بمن هن أجنبيات عنه.

٣ـ وأنه يمكن القياس على هذا الغرض، بأن يباح التعدد اذا دعا داع اليه، وأن يقيد التعدد اذا لم يكن له داع يشبه ما ذكره القرآن الكريم من **﴿اقامة القسط في شأن اليتامى﴾**.

٤ـ وان هذا كله مشروط ـ مع توخي الغاية الشريفة ـ بأن يأمن الزوج عدم الجور، فاذا خاف الجور، وجب عليه ألا يعدد.

***

٢ـ ويتلاقى هذا مع ما نعرف من أن جميع زوجات النبي ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ انما تزوجهن لمثل هذا الغرض الشريف، فمنهن من تزوجها خوف الفتنة عليها، كسودة بنت زمعة التي كانت من المؤمنات المهاجرات، ومات زوجها، فرأى رسول الله ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ أنها لو عادت إلى أهلها لعذبوها وفتنوها، فكافأها على تضحيتها بأن تزوجها وصانها.

ومثل زينب بنت جحش التي تزوجها تحقيقا لأمر الله، وابطالا لما كان عليه الجاهلية من التبني، وتحريم تزوج الرجل بمطلقة متبناه.

ومثل جويرية التي تزوجها رسول الله ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ لأنها كانت بنت سيد قومها الحارث من بني المصطلق، وكان المسلمون قد أسروها وأسروا من قومها عددا كبيرا، فأراد الرسول أن يحملهم على إطلاق الأسرى بهذا الأسلوب، فتزوجها فقالوا: ليس لنا بعد ذلك أن نبقى أصهار رسول الله ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ في الأسر، فأعتقوهم جميعا، فكانت سياسة موفقة رحيمة من رسول الله ـ صلى الله عليه واله وسلم.

وهكذا، كل زوجية عقدها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لنفسه، كان

لها هدف شريف، ويمكن معرفة ذلك على وجه أكثر من التفصيل في كتب السيرة ونحوها، فلا داعي للاطالة بتفصيله.

كما يمكن معرفة الحكمة في إباحة عدد أكثر من الأربع في حق الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه، وسر القصر على أربع في حق غيره.

وإنما هدفنا في هذا الكتاب أن نبين الأوضاع العامة التي نظمتها سورة «النساء» للمجتمع الاسلامي دون توسع بإيراد سائر التفصيلات.

٣ ـ هذا ومعنى: «**مثنى وثلاث ورباع**»: اثنتين اثنتين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعا أربعا.

وأحسن من وضح معناه الزمخشري في تفسيره الكشاف حيث يقول:

«فإن قلت الذي أطلق للناكح أن يجمع بين اثنتين أو ثلاث أو أربع، فما معنى التكرير في مثنى وثلاث ورباع. قلت: الخطاب للجميع فوجب التكرير ليصيب كل ناكح يريد الجمع ما أراد من العدد الذي أطلق له، كما تقول للجماعة: اقتسموا هذا المال ـ وهو ألف درهم ـ درهمين درهمين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة، ولو أفردت لم يكن له معنى، فإن قلت: فلم جاء العطف بالواو دون أو؟ قلت: كما جاء بالواو في المثال الذي حذوته لك، ولو ذهبت تقول: اقتسموا هذا المال درهمين درهمين، أو ثلاثة ثلاثة، أو أربعة أربعة، علمت أن لا يسوغ لهم أن يقتسموه إلا على أحد أنواع هذه القسمة، وليس لهم أن يجمعوا بينها فيجعلوا بعض القسم على تثنية، وبعضه على تثليث وبعضه على تربيع»(١).

وقد أجمع المسلمون على أنه لا يجوز لأحد أن يزيد على أربع، ولا عبرة بما خالف ذلك، كما أجمعوا على أن زيادة الرسول خصوصية له.

التحقق من شرط التعدد حق مشروع لولي الأمر:

٤ ـ وقوله تعالى: **﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم، ذلك أدنى ألا تعولوا﴾** هو تقييد الاباحة بأنها إنما تكون عند الأمن من عدم العدل، أما من يخاف عدم العدل بين الزوجات، فإنه لا يحل له.

---

(١) ص ٢٤٤ ج ١ من تفسير الكشاف.

والخوف من عدم العدل هو حالة وجدانية يشعر بها المرء إذا تدبر أمره، وعرف مدى قدرته وطاقته المادية والأدبية وظروف حياته، فإنه عندئذ يجد في نفسه معنى الخوف أو الاطمئنان، أي يستطيع الحكم على نفسه وتقدير أمره تقديراً صحيحاً، فيخاف إن علم قصوراً، ويطمئن إذا علم كفاية واستعداداً.

وليس في الشريعة ما يمنع ان يعهد بتقدير ظروف الناس في هذا الى هيئة رسمية اجتماعية أو قضائية، وأن يقيد الناس في التعدد بحكم هذه الهيئة جوازاً أو منعا، فإن هذا أمر ربما طغت على الرجال فيه عوامل الرغبة فلم يحسن بعضهم تقدير ظروفه، وتدبر قدرته أو عدم قدرته، وربما ترتب على هذا ضرر يصيب غيره من زوجته الحالية أو المستقبلة، ومن واجب ولي الامر أن يحتاط للضرر فيمنع وقوعه، ويتخذ لذلك من الوسائل ما يراه، وليس ذلك من باب تحريم المباح، فإن معنا مباح مشروط بشرطين:

شرط في الاقدام عليه، وهو أن يكون له مبرر وداع شريف معترف به شرعا.

وشرط آخر هو ألّا يؤدي إلى الجور وعدم العدل.

فولي الأمر لا يقول: أحرم ما أحله الله، وأمنع ما أباحه، ولكن يقول: أراقب تحقيق الشرطين اللذين قيد الله بهما هذه الاباحة لئلا يقع من عدم تحققهما ضرر يكرهه الله ولا يأذن به، فهو بذلك خادم للحكم الشرعي، لا معطل له.

حكم التسري بالمملوكات ودلالة الآية في شأنه:

وللمفسرين في هذه الآية كلام يتصل بقوله تعالى: **﴿أو ما ملكت أيمانكم﴾** فإنهم يفسرونه «بالتسري» أي اتخاذ الإماء المملوكات سراري يعاشرن معاشرة الزوجات[1]، ويستنبطون من ذلك أحكاما منها:

(أ) ان التسري جائز، لأن الله تعالى يقول: **﴿أو ما ملكت أيمانكم﴾**. وقد جاء ذلك في غير موضع من القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: **﴿والذين هم**

---

(١) السراري: جمع سرية ـ بضم السين وتشديد الراء مكسورة ـ وهي الأمة تتخذ كالزوجة بملك اليمين، والأغلب أن اشتقاقها من السر، لأن الرجل إنما كان يتمتع بها متخفيا من الزوجة، ثم اشتهر ذلك بعد فلم يعد سرا عن الزوجات، وبقي الوصف.

لفروجهم حافظون، إلا على أزواجهم، أو ما ملكت أيمانهم، فإنهم غير ملومين﴾[1] ﴿لا يحل لك النساء من بعد، ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك﴾[2] ﴿والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم﴾[3] وغير ذلك.

(ب) وانه لا يشترط الوقوف عند عدد معين في التسري، فمن شاء تسرى من الإماء بأي عدد شاء، ويأخذون ذلك من أن الآية لم تقيد بعدد، ومن أنها سوت في السهولة بين الحرة الواحدة وبين السراري من غير حصر في عدد، قالوا: وذلك لقلة تبعتهن، وخفة مؤونتهن، وعدم وجوب القسم فيهن.

(جـ) وانه لا يصح أن تحمل الآية على الأمر بنكاح المملوكات لأن المخاطبين بالكلام في قوله: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾ هم المخاطبون بالكلام في قوله ﴿أو ما ملكت أيمانكم﴾ فلو كان المراد: أو فانكحوا ما ملكت أيمانكم، لاستلزم ورود النكاح على ملك اليمين، مع انه لا يجوز أن يتزوج الرجل أمته ولا المرأة عبدها، لأن حقوق الزوجية لا تتفق وحقوق الملكية[4].

تحقيق وتخريج لرأي جريء:

٥ – ومن المفسرين من يحمل الآية على معنى النكاح للإماء، بتقدير آخر، وقد نقل ذلك الألوسي في تفسيره المسمى «روح المعاني» واستبعده وهذا نص كلامه:

«وزعم بعضهم أن هذا معطوف على النساء، أي فانكحوا ما طاب لكم من النساء، أو مما ملكت أيمانكم، ولا يخفى بعده»[5]

ولم يذكر لنا الألوسي أسباب استبعاده هذا التفسير، اعتمادا على أن هذه الأسباب ـ في نظره ـ لا تخفى.

---

(١) الأيتان ٤، ٥ من سورة الأحزاب.

(٢) الآية ٥٢ من سورة الأحزاب.

(٣) الآية ٢٤ من سورة النساء.

(٤) ولقائل أن يرد على ذلك فيقول: ان في الأمر بنكاح الاماء المملوكات ايحاء من الشارع بعتقهن وتزوجهن لمن لم يستطع الحرة.

(٥) ص ١٧٤ ج ٤ من روح المعاني طبع المطبعة المنيرية بمصر.

وقد يكون في تمهلنا عند هذا القول فائدة، وذلك ان خلاصة هذا القول كما يبدو مما نقله الألوسي مجملا: ان هناك معطوفا عليه ومعطوفا، فالمعطوف عليه هو النساء في قوله تعالى: ﴿**فانكحوا ما طاب لكم من النساء**﴾ والمعطوف هو ما ملكت الأيمان في قوله تعالى: ﴿**أو ما ملكت أيمانكم**﴾ وما جاء بينهما هو تقييد في المعطوف عليه، والظاهر ان صاحب هذا الرأي يجعل هذا التقييد منسحبا على المعطوف كالمعطوف عليه، وانه إنما ذكر في جانب المعطوف عليه فقط اكتفاء، على حد قولهم، حذف من الثاني لدلالة الأول عليه، وعلى ذلك تكون نظرية هذا القائل هي: انه يجوز للرجال أن ينكحوا من النساء الحرائر أو الإماء المملوكات ما طاب لهم في حدود «مثنى وثلاث ورباع» وبشرط الاطمئنان الى عدم الجور، فإن خيف الجور وجب الاقتصار في الزوجية على واحدة حرة أو أمة.

وعلى هذا لا يكون في الآية حديث عن التسري، وإنما الحديث عن النكاح والتوسعة فيه، بالتماس الزوجة أو الزوجات من أفق الحرائر ان استطاع، أو المملوكات إن كان ذلك هو حد استطاعته، وذلك هو المصرح به في ما بعد من آيات السورة، حيث يقول الله عز وجل: ﴿**ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات**﴾[1] ثم ان هذا الأمر الذي جاء على وجه الاباحة والتيسير، إما أن يحمل على نكاح أمة مملوكة للغير، وبذلك تبقى لها صفة الملك وهي زوجة، ويكون ذلك برضى مالكها وقبوله كما هو مستفاد من قوله في الآية الآتية: ﴿**فانكحوهن بإذن أهلهن**﴾ وليس للسيد حينئذ أن يتمتع بها تسريا، وإما أن يكون إيحاء من الشارع بعتق الأمة المملوكة وتزوجها أو تزويجها، فيكون مالكها قد أحسن اليها مرتين: مرة بعتقها، ومرة بتزوجها أو تزويجها، إذ هو إشعار لها بكرامة الحرية وتوابعها على وجه عملي، وهذا يوافق ما هو معروف من غرض الشارع في الحرية، وأنه متشوف اليها كما يقول الفقهاء.

هذا هو شرح القول الذي نقله الألوسي مجملا كما فهمناه، أما شرح وجهة الألوسي في استبعاده فهي - كما يبدو - راجعة الى ما يأتي:

---

(١) الآية ٢٥ من سورة النساء.

أولا: ما سبق من أن المخاطبين بالكلام هم المالكون، وأن ذلك يستلزم ورود النكاح على ملك اليمين، وهما يتعارضان.

ثانيا: ان الكلام على هذا التقدير يكون فيه فصل كبير بين المعطوف عليه والمعطوف، وذلك قوله تعالى: ﴿**مثنى وثلاث ورباع، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة**﴾ وبما قيل أن ذلك إخلال بالنظم والبلاغة.

ثالثا: انه لم يأت في جانب المملوكات بلفظ «**من**» ولو أراد ما فهمتموه لقال: أو مما ملكت أيمانكم، كما قال في الحرائر «**من النساء**».

ويمكن الرد على هذه الوجوه بأن يقال:

أما الأول فقد شرحنا المراد من إباحة النكاح، وأنه إما للتيسير على ما في آية ﴿**ومن لم يستطع منكم طولا**﴾، وإما للايماء بعتق الأمة وتزوجها أو تزويجها، وحينئذ لا يأتي الاعتراض بما بين الملك والزوجية من تعارض.

وأما الثاني، فإنه فصل بين المعطوف والمعطوف عليه بغير أجنبي عن الكلام، إذ القيود المذكورة من صميم الكلام، وهي شروط في الحكم، والمعطوف عليه ـ وهو العمدة ـ أولى بأن تذكر في جانبه، ثم يأتي المعطوف فيأخذ حكم ما قبله بالتبعية له.

وقد جاء الفصل بين المتعاطفات لتوفية كل منها حق معناه المراد، في غير هذا الموضع من القرآن الكريم، ومن ذلك المتعاطفات الواردة في قوله تعالى: ﴿**وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما**﴾ الى قوله: ﴿**والذين لا يدعون مع الله إلها آخر، ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا يزنون، ومن يفعل ذلك يلق آثاما. يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا. إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات، وكان الله غفورا رحيما. ومن تاب وعمل صالحا، فإنه يتوب الى الله متابا**﴾فبعد أن ألحق بهذا المعطوف كل ما يتصل به على هذه الافاضة، قال: ﴿**والذين لا يشهدون الزور، وإذا مروا باللغو مروا كراما**﴾[1] الخ، فأتى بمعطوف جديد بعد هذا الفصل الطويل، وإذن فلا مانع من

---

(١) الآيات من ٦٣ إلى ٧٤ من سورة الفرقان.

هذا الفصــل الذي جاء في سورة «النســاء»، لأنــه فصل لمتصل في المعنى يقتضيه الكلام، وله نظير بل نظائر كثيرة في القرآن.

وأما الثالث فإن تكرار حرف الجر ـ وهو لفظ «من» هنا ـ ليس بوارد، وانما أوجب النحاة ذلك إذا كان المعطوف عليه ضميرا، فيجوز أن تقول: مررت بمحمد الذي كان عندنا بالأمس وعلي. وهذا على حسب قواعد النحاة، ومع ذلك فقد ورد على خلاف هذه القاعدة شواهد منها قوله تعالى: ﴿**واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحـام**﴾ بجر الأرحام عطفا على الضمير في «**به**» وقد أشرنا الى ذلك من قبل[1]، وإذن فلا بأس بالعطف من غير تكرار حرف الجر.

وبذلك يتبين أن استبعاد الألوسي لهذا القول ان كان سببه ما ذكرناه، فلا محل له، وإن كان سببه شيئا آخر فهو لم يذكره فلا معول عليه.

والغـرض من هذا أن نصل الى القول الذي أجمله الألوسي وفصلناه، واستبعده وقربناه، وهو قول جدير بالقبول، لأنه على أساسه لا يكون في الآية أمر بالتسري، وإنما يكون الكلام كله في الزواج: زواج الحرائر أو الاماء.

ليس في القرآن الكريم أمر بالرق ولا بالتسري:

فإن قال قائل: ما فائدة هذا، وقد ثبت أنه يجوز التسري بالإماء في غير آية من القرآن الكريم، وبفعل الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وأصحابه والمسلمين من بعدهم، فهل ينكر ذلك أحد؟

فالجواب: معاذ الله أن ننكر ذلك، ولكننا نريد أن نقرر أن آية «النساء» بهـذا الرأي تكون متفقة مع موقف القرآن الكريم كله في مسألة الرق واتخاذ الاماء سراري، فإنه ليس في القرآن الكريم أمر واحد بالاسترقاق ولا بالتسري، وكل ماهنالك أنه سكت عن فعل المسلمين ذلك، ورتب الآثار الحكمية على أساس انه أمر واقع فعلا، لا على أنه شيء مأمور به ولو على سبيل التخيير.

بيـان ذلك ان القـرآن يتحدث عما ملكت الايمان في نحو خمسة عشر موضعـا، فلا يقـول أكثـر من: ﴿**ملكت أيمانكم**﴾ أو ﴿**ما ملكت يمينك**﴾ أو ﴿**ما ملكت أيمانهن**﴾.

---

(١) راجع ص ٢٧ من هذا الكتاب.

نعم، قد عبر في بعض الآيات بقوله تعالى: ﴿**والذين هم لفروجهم حافظون. إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم، فإنهم غير ملومين**﴾[1].

ولكن هذا لم يزد عن كونه نفيا للوم عنهم ملاحظة لأنهم على واقع فعلي تقضي الحكمة بمسايرته حتى يغيِّر.

للاسلام خطة يجري عليها لتصفية الاسترقاق والتسري:

كل ذلك ـ كما ترى ـ يحدث عن الواقع وليس فيه تعرض قولي للأمر به، وأقول: ليس فيه تعرض قولي، لأني أعلم أن السكوت عليه، والحديث عنه كواقع يستلزم إقراره، وأنا لا أعارض ذلك، بل أقرر انه يستلزم هذا الاقرار، ولكنه اقرار لا عموم له لا في كل الأحوال ولا في كل الأزمان، فان من الجائز أن يكون هذا الاقرار السكوتي ملاحظا فيه ظروف خاصة يومئذ، والدلائل تدل على ذلك، فقد كان العالم كله معترفا بالرق، وكان التعامل العام قائما على الاعتراف به، فلم يكن من صالح المسلمين يومئذ أن يبطلوا هذا اللون من التعامل العام دفعة واحدة، أو أن ينفردوا هم عن العالم بذلك، فلا يعاملوا أعداءهم بالمثل، فيتخذوا الأسرى أرقاء كغيرهم من الأمم، فقضت الحكمة الالهية بأن يتدرج في هذا الالغاء ورسمت لذلك خطة محكمة تتألف من النقط الآتية:

(١) لا يرد في القرآن ـ الذي هو النصوص الأصلية الأساسية ـ أي نص يدل على الأمر بالاسترقاق أو اتخاذ الاماء سراري، وان كان ذلك لا يمنع أن يتحدث القرآن عن هذا حديث من يعرفه ويقره كواقع، ويرتب الأحكام التشريعية على أساس واقعيته التي تقضي الحكمة بأن تترك موقتا.

(ب) تتكفل النصوص من الكتاب والسنة ببيان ان الرق واقع مكروه، وبتشريع ما يكفل تصفيته من العتق في مناسبات متعددة، كالكفارات والوان القرب والزكاة والصدقات وعقوبة من يمثل بعبده بعتقه عليه ونحو ذلك.

(جـ) يقصر مورد الرزق على الأسر في حرب لاعلاء كلمة الله تعالى، وفي هذه الحرب لا يجوز للمسلمين أن يتخذوا أسرى حتى يثخنوا في الأرض أو حتى يظهروا فيها ويعلوا كلمة الحق والتوحيد، فاذا أثخنوا في حرب وانتصروا كان لهم

---

(١) الآية ٦ من سورة المؤمنون.

أن يأسروا حينئذ، ثم كان لأولياء الأمر الخيار المقرر بقوله تعالى: «**فأما منا بعد واما فداء**» أي: فأما أن تمنوا عليهم منا، فتطلقوهم تفضلا عليهم واحسانا بغير مقابل، وأما أن تأخذوا منهم فداء، أي تطلقوهم بمقابل، وعلى هذا فلا ذكر صراحة للاسترقاق، وانما يتكلف بعضهم فيجعل الاسترقاق داخلا في المن، لأن المن اما أن يكون كاملا، باطلاقهم دون أي مقابل، واما أن يكون جزئيا باعفائهم من القتل مع استرقاقهم. وبعضهم يحاول ادخال الاسترقاق تحت الفداء، فيقول: ان فداء حياتهم اما أن يكون بمقابل ما يبذلونه، أو بنفس الأسير حيث يستعبد ويسترق ثمنا لابقائه حيا دون قتله. ولا يخفى أن هذا وذاك تكلف ولي يراد به تبرير الاسترقاق، ومحاولة اثبات أنه مخير فيه بنص القرآن.

***

تلك هي الخطة التي وضعها الاسلام لتصفية الرق، تضييق في مداخله، وتوسيع في مخارجه.

ولا ينبغي أن يؤخذ الاسلام بفعل المسلمين فيما بعد حينما كان الاسترقاق خارجا على هذه الخطة. أو كان الخلفاء من أمويين وعباسيين وغيرهم من الأغنياء يتخذون السراري بغير تقيد، بل بتوسع واسراف، فان ذلك كله مناف لروح الاسلام، وان أدخل على النصوص بالآراء والأقوال، وتأويل الرجال.

والآن وقد اتفق العالم على منع الرق، فليس في نصوص الشريعة ما يمنع من مجاراة الدنيا في هذا الاتفاق الانساني، بل ان المسلمين اذا أبوا الا استمراره والتعامل به فيما بينهم، يكونون قد أساءوا الى انفسهم والى تعاليم شريعتهم، لقاء التمسك بأمر لم يوجبه الله، ولم يقره تشريعا دائما كما أوضحنا.

***

٦ - وجاءت الآية التالية لهذه الآية آمرة باتيان النساء صدقاتهن نحلة، أي هبة وعطية، مبينة أنه لا يحل للرجال أخذ شيء من هذه الصدقات الا عن طيب نفس من النساء، وهنا ثلاثة أحكام.

أحدها: أن القرآن الكريم يعتبر الصداق حقا للزوجة تأخذه على سبيل النحلة والعطية، أي بلا مقابل، وفي ذلك يقول الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده:

«وينبغي أن يلاحظ في هذا العطاء معنى أعلى من المعنى الذي لاحظه الذين يسمون أنفسهم، «الفقهاء» من أن الصداق بمعنى العوض عن «البضع»[1] والثمن له، كلا ان الصلة بين الزوجين أعلى وأشرف من الصلة بين الرجل وفرسه أو جاريته، ولذلك قال «نحلة»، فالذي ينبغي أن يلاحظ هو أن هذا العطاء آية من آيات المحبة وصلة القربى، وتوثيق عرى المودة والرحمة، وأنه واجب حتم لا تخيير فيه كما يتخير المشتري والمستأجر»[2].

وهذا الذي يقوله الأستاذ الامام حق، وهو المناسب لقدسية عقد الزواج، ومن غير المسلمين من يجعل هذه النحلة على الزوجة، فهي التي تدفع ما يسمونه «الدوطة» وليس المقصود بها أن تكون عوضا ومقابلا لشيء، ولا يخفى أن الله تعالى جعل الاستمتاع مشتركا بين الزوجين، فليس أحدهما آخذا، والآخر معطيا، حتى يكون البذل في مقابل الأخذ، وكل ما في الأمر أن الاسلام جعل الصداق على الرجل، وأعفى منه المرأة تمشيا مع سياسته في ذلك من تحميل الرجال كل النفقات واعطائهم سلطة القوامية على النساء.

الثاني من الأحكام التي أفادتها هذه الآية، هو ابطال ما كانوا يفعلونه من أخذ الولي صداق من هي تحت ولايته، يتيمة كانت أو غير يتيمة،[3] أو من اخلاف الزوج وعده بما وعد من الصداق، فأمر الأولياء أن يؤدوا للنساء صدقاتهن، لأنهم انما قبضوا ذلك باسمهن، وبالنيابة عنهن، وأمر الأزواج بأداء ذلك حتما لا تهاون فيه ولا أخلاف.

الثالث: أنه لا يجوز للأزواج ولا للأولياء أن يأخذوا شيئا من مهر النساء الا اذا طبن عن ذلك نفسا، وظهر هذا واضحا بلا اكراه.

وتلك عناية عظيمة بحقوق النساء يجب أن تقدر للاسلام، ويعرف فضله فيها.

---

(١) البضع: بضم الميم ـ: موضع الحرث من المرأة.

(٢) ص ٣٢٦ من الجزء الرابع من تفسير المنار.

(٣) قال صاحب الكشاف: كان الأولياء يأخذون مهور بناتهم، وكانوا يقولون: هنيئا لك النافجة ـ من يولد له بنت ـ يعنون: تأخذ مهرها فتفتج به مالك، أي تعظمه.

٣

أحكام المواريث

١ – أحكام المواريث عامة، وما اتصل بها من مبادىء استنبطها الفقهاء، ومن دلالات على الحجب بالحرمان أو بالنقص، وعلى درجات القرابة، أغلب ذلك مأخوذة من سورة «النساء»[١].

والآيات التي وردت في سورة «النساء» تشريعا لأحكام المواريث هي خمس آيات.

الآية الأولى هي قوله تعالى:

﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون، مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا – ٧﴾.

والآيتان الثانية والثالثة هما قوله تعالى:

---

(١) وفي غير سورة النساء آيات أخذ منها بعض أحكام الارث والوصية، مثل قوله تعالى: «وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين، الا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا، كان ذلك في الكتاب مسطورا ـ ٦ الأحزاب». وقد جاءت الجملة الأولى إلى قوله تعالى «في كتاب الله» في اية أخرى هي الآية الخامسة والسبعون من سورة الأنفال، وهي اخر اية فيها، ومثل ايات الوصية بالوالدين والأقربين، من ١٨٠ إلى ١٨٢ من سورة البقرة.

﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين، فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك، وإن كانت واحدة فلها النصف، ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ان كان له ولد، فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه، فلأمه الثلث، فإن كان له أخوة فلأمه السدس، من بعد وصية يوصي بها أو دين، آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله ان الله كان عليما حكيما - ١١﴾.

﴿ولكم نصف ما ترك أزواجكم ان لم يكن لهن ولد، فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين، ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين، وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ فلكل واحد منهما السدس، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث، من بعد وصية يوصي بها أو دين غير مضار، وصية من الله والله عليم حليم - ١٢﴾.

والآية الرابعة هي قوله تعالى:

﴿ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان والأقربون والذين عقدت أيمانكم، فآتوهم نصيبهم، إن الله كان على كل شيء شهيدا - ٣٣﴾.

والآية الخامسة هي قوله تعالى:

﴿«يستفتونك، قل الله يفتيكم في الكلالة: أن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك، وهو يرثها إن لم يكن لها ولد، فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك، وإن كانوا أخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين، يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم - ١٧٦﴾.

والأحكام التي تفيدها هذه الآيات مفصلة في كتب التفسير والفرائض ويمكن الرجوع إليها في مواضعها، غير أننا نتحدث عن النواحي التي يتبين منها موقف الاسلام الحكيم في هذا المقام:

***

الملكية والتوريث حقان مشروعان:

٢ - إن مبدأ تنظيم أحكام الميراث مبني على مبدأ الاعتراف بحق

الانسان في أن يملك، واختصاص قرابة معينة له في أن ينتقل إليها ما يملك بعد موته.

وكلا المبدأين طبيعي ملائم للفطرة، ولذلك قررهما الاسلام، وبنى على أساسهما أحكامه في الملكية والاختصاص والكسب والميراث وما يتصل بذلك كله.

١ – ومما جاء على اعتبار مبدأ الملكية، نسبة الأموال إلى أصحابها في مثل قوله تعالى: ﴿**ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون**﴾[1] فهو يقول «أموالكم» و «أموال الناس» ويجعل لها حرمة، ويدل على اعتبار هذا أيضا تشريع حد السرقة، والأمر بالتوفية بالعقود، واباحة التجارة والشركة، وفرض الزكاة على أموال الأغنياء، وأمرهم بالانفاق في سبيل الله، إلى غير ذلك مما هو منبث في آيات القرآن الكريم، مؤيد بالسنة المطهرة، والعمل الذي ترادف عليه المسلمون من العهد الأول إلى عهدنا هذا.

وآيات المواريث التي جاءت في سورة النساء، تعبر عن الأنصبة والفرائض بما يفيد انتقال ملكيتها إلى الوارثين، فتقول «للذكر مثل حظ الأنثيين» بلام الاختصاص والملكية. وتأتي هذه اللام في كل نصيب. «**فلهن ثلثا ما ترك**» «**فلها النصف**» «**ولأبويه لكل واحد منهما السدس**» «**فلأمه الثلث**» «**ولكم نصف ما ترك أزواجكم**» «**ولهن الربع مما تركتم**» الخ.

انكار هذا المبدأ الطبيعي مفسد للفرد والمجتمع:

٢ – ومن أصحاب المذاهب الحديثة من ينكر الميراث انكارا تاما، وذلك عندهم مبني على انكار الملك والاختصاص، فهم يلقون هذا وذاك، ويقولون ان حق الارث ينافي الحرية الاقتصادية، لأنها تقتضي أن يولد الناس متساوين، فلا يمتاز أحدهم على الآخر بغير مميزاته الطبيعية، كما يقولون ان الملك من شأنه

---

(١) الآية ١٨٨ من سورة البقرة.

أن يميز بعض الأفراد على بعض، ويعطيه من الفرص في الحياة ما يجعله متمكنا من تسخير غيره، واستلاب حقه في الحرية العلمية والشعورية.

وهذا الذي يقولونه فاسد:

أما في ما يتعلق بالملك، فإن الملك معناه أن هناك جهدا بذل، وعملا أدي، استحق عليه الانسان مقابلا، فإذا زاد هذا المقابل عن حاجة الفرد الاستهلاكية بقي له ما يدخره، ولم يكن هذا الباقي إلا حقا له لأنه هو أيضا يقابل الجهود التي بذلها فوق حاجته، فهذا قانون طبيعي انساني، ولو اننا حرمنا الانسان هذا الفائض ووجهناه الى غيره ممن لا فائض لهم لأنه لا جهود لهم، لترتب على ذلك أمور: منها أن يتساوى المجد وغير المجد في الثمرات، وهو أمر مخالف لما تقضي به الطبيعة، فالناس منهم الكسلان الذي لا يكاد يعمل عملا، ومنهم الدائب السعي الذي لا يكاد يفتر، وكل ما في الحياة إنما يرجع الى العمل والجهد المبذول، فالأحجار متراكمة في الجبال، تحتاج الى من يقتطعها، والى من ينقلها من مواضعها، والى من ينحتها ويسويها، الى من يبنيها، فهي في الأصل بدون قيمة، والذي يجعل لها القيمة إنما هو عمل العامل، وجهد المجتهد، فإذا ضيع هذا الجهد فذلك انحراف عن حكم الطبيعة، وإذا سوى بين من يبذل الجهد ليجعل للأشياء قيمة، ومن لا يبذل جهدا، كان ذلك انحرافا عن حكم الطبيعة، وهكذا.

ومنها ان يشعر الانسان بأنه لا يفيد مما زاد، فتفتر همته، ويضعف سعيه، ويؤثر أن يوفر جهده، وبذلك يخسر المجتمع ما يناله من نصيب في سعيه وحركته ونشاطه، ويتكرر هذا الخسران بتكرر ضن الافراد بأن يبذلوا زيادة في الجهود، فينتهي الامر بأن يكون المجتمع ضعيف الانتاج، قليل الثمرات.

ويجب أن نتصور هذا في حدود الحرية المكفولة للمجتمع الطبيعي، لا في حدود التسخير واغتصاب جهود الافراد في ظل حكومة تسيطر وتضغط، ولا يهمها الا ان تنجح نظمها، فإن التسخير قد يأتي بحصيلة كبيرة من الاعمال والاصلاحات ومظاهر القوة والاختراع، ولكنه يكون على حساب الشعوب والافراد، وهو أشبه بأن يؤمر الناس بالصيام طول الدهر، وأن يبذلوا ما يتوفر من هذا الصيام لحكامهم كي يدبروا به ما يزعمون أنه يسعد المجموع، بينما

المجموع لا يسعد إلا اذا سعدت الافراد. وليس الصيام هنا صياما عن الطعام والشراب فحسب، وإنما هو صيام عن كل ما يسعد به الانسان في الحياة من متاع أباحه الله، ويسره لخلقه.

وبهذا يتبين ان المجتمع الطبيعي هو الذي يقوم على رعاية حق الانسان في أخذ ما يقابل جهوده المبذولة، فان هذا هو مبعث التنافس والتزاحم وتكثير الجهـود، وتجـويد الاعمال، فاذا قيل: ان بذل الجهود، وجودة الاعمال، وكثرة الثمـرات، كل ذلك يحـدث في ظلال النـظم التي تحرم الملكية، بل ربما دلت المختـرعـات الاخيـرة، التي ظهـرت من آفـاق هذه النظم، على ان الابتداع والاختراع والتوليد والتجويد والاتقان تجري بها الريح رخاء في ظل هذه النظم، بدليل انها تسبق، وتسرع، وتخيف ... الخ.

فالجواب ان العبرة ليست بالسرعة، ولا بالسبق، وانما هي بما يعود على الشعوب من سعادة، واستقرار، ورضى، ومتاع حسن، وحرية، وأمن، فقد يجهز جيش من الجيوش بأمضى الاسلحة وأقواها وأكبرها، ولكنه يكون مع ذلك ضعيفا معرضا لأشنع الهزائم، اذا كان جنوده قد خسروا انفسهم، ولم يكن لهم روح الرضى والتقبل والاقبال.

ثم كيف يسوى بين الانسان والحيوان في مبدأ الاكتفاء بما يكفي حين يأخذ، مع تكليفه بأن يبذل أكثر مما هو في حاجة اليه حين يعطى. ان الحيوان الاعجم هو الذي يسخر في مصالح الانسان طول يومه، ثم لا ينال من جهده الشاق الا ما يأكل ويشرب، وإلا ما يأوي اليه من حظيرة نظيفة أو حقيرة.

فالانسان له متاعه الروحي والمعنوي، ومن حقه ان يشعر بأنه متفوق في الثمرات، لأنه متفوق في العمل، وحرمانه هذا الحق خروج على طبيعة البشر، وتنكر لمقتضياتها.

وأما في ما يتعلق بالميراث، فان الذي ينتقل عنه الميراث هو المالك، وهو صاحب الحق، والطبيعة نفسها تنقل خصائصه وميزاته وكثيرا من شبهه الخلقي الى وارثه، فالوراثة قانون جرت عليه الطبيعة، لأن الانسان يرث صفات أبيه وجده وأمـه ... الخ على نحو أو آخر، فلماذا لا ينتقل اليه ايضا حق الارث المالي، وقولهم ان ذلك من شأنه أن يمنع المساواة في الحرية الاقتصادية، لا يكفي في

تبرير انكار الميراث، فان الله لم يسو بين الناس بالخلق أيضا، فهذا ذكي وهذا غبي، وهذا جميل، وهذا دميم، وهذا له موهبة في تلك الناحية، والآخر لا موهبة له فيهـا، فليس القـانـون الطبيعي اذن هو المساواة في كل شيء، حتى في الاشكال والصفات والاخلاق، فاذا قالوا: ما ذنب الذي لم يرث، وكيف يمتاز عليه الذي يرث، وهذا وذاك انما هو من قبيل المصادفة، فإننا نطالبهم أن يقولوا ايضا: ما ذنب الدميم، ومـا ذنب الغبي، ولم ميز عليهما الجميل والذكي، وكيف فرق بينهما فلم تتحقق لهما المساواة؟

ثم ان المـالك المورث هو صاحب الحق في المال، لأنه فائضه وثمرات جهده ـ كما بينا من قبل ـ فلا يخلو إما أن ينتقل الى اهله وقرابته، أو الى الابعد منه، أو الى الدولة، فاذا انتقل الى الدولة فذلك هو التسخير والاغتصاب، وأيلولة الفائض اليها بعد الوفاة، كأيلولته اليها قبل الوفاة، كلاهما تترتب عليه الآثار التي ذكـرناها من قبل، واذا انتقل الى الاباعد مع وجوب الاقارب، كان هذا مخالفا لقضية العقل والمنطق، فان اقارب المرء هم الذين يحملون همه، ويبادرون اليه في كل منـاسبـة، يحتـاج فيها اليهم، وهم الذين يرتبط بهم أكثر من غيرهم، ولا سيما الأولاد والزوجة والأب والأم والأخوة والعصبة عموما، فكيف يقال: نترك هؤلاء الأقربين، ونعطي أولئك الأبعدين، وإذن فلم يبق الا ان ينتقل المال الى اقرباء صاحبه ومالكه، وذلك هو المنطق الطبيعي، والحكم الذي تصلح عليه كل المجتمعـات الراشدة، وما عداه فإنما هو التواء في الطبيعة، أو اغتصاب لما تقضي به من حقوق الافراد، أو انحراف عن هذه المقتضيات.

والاسـلام لا يعـرف في أحكامه ونظمه الا الفطرة السليمة، وما للفطرة السليمة من قضاء.

موازنة بين الاسلام وغيره في أتم تفاصيل الميراث:

٣ – ومن الشرائع الوضعية أو الملية ما يخالف الاسلام في التفصيل مع موافقتـه في مبـدأ الملك والتـوريث، وتـرى فروع هذه المخالفة في الشريعة اليهـوديـة، وفي الشـرائع القديمة للعرب، وللأمم الشرقية عامة، وفي القانون الروماني، والقانون الفرنسي، وفي ما أخذ به بعض الشعوب من أحكام خاصة في ذلك.

وللاسلام في ما شرع حكمته وفلسفته، وكلها مستندة الى حكم الطبيعة، متمشية مع دواعي الفطرة.

فمثلا نرى ان الشريعة اليهودية تعطي البكر من الاولاد نصيب اثنين من اخوته، بينما الشريعة الاسلامية لا تفرق بين البكر وغيره، وحكمها في ذلك معقول وملائم للعدالة الطبيعية.

والعرب في الجاهلية كانوا يحرمون المرأة من الميراث، وكذا صغار الاولاد، ويقولون لا يرث الا من يدافع عن العشيرة، ويحمي الذمار، وكذلك كان الامر في شرائع الامم الشرقية القديمة.

وقد ابطل الاسلام ذلك، وجعل للنساء حقا مفروضا كالرجال ولم يفرق بين الصغير والكبير، وفي ذلك تقول سورة «النساء»:

﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون، مما قل منه أو كثر، نصيبا مفروضا﴾[1].

ومن ايحاء الاسلوب في هذا ان الآية لم تجمع بين النساء والرجال في جملة واحدة فتقول: للرجال والنساء نصيب ولكن افردت كلا منهما بجملة، لتوحي بأن حق النساء في ذلك أصلي مستقل كالرجال، وليست النساء فيه بتابعات ملحقات.

وكذلك أكد التصريح بقوله: **﴿مما قل منه أو كثر﴾** انه لا فرق بين مال كثير ومال قليل، فربما قيل تأخذ المرأة من الكثير، ولا تأخذ من القليل، فصرح بقطع هذا الوهم.

وحكم الاسلام في ذلك اعدل، لانه لا فرق بين الصغير والكبير في الواقع، ولا فرّق بين المرأة والرجل في الانتساب الى المورث، واذا كانت التفرقة بين الكبار والصغار من أجل ان الكبار سيصبحون رؤساء الاسرة بعد وفاة المورث، فاننا نشاهد ان الاسرة تتفرق، ويكون لكل عضو منها بيت وأسرة جديدة، وذلك نفسه وحي توحي به الطبيعة، وتبعث اليه، واذن فمن حق كل عضو ان يستولي على نصيبه، وأن يوفره لنفسه ولأسرته الجديدة المتفرعة عن الاسرة القديمة،

(١) الآية ٧ من سورة النساء.

والاسلام حكيم في ذلك، اذ ان هذا يترتب عليه تكثير عدد الاسر وتمكين النظام الاسري في الاسرة الجديدة على وجه أيسر وأدعى الى رعاية المصالح وتقوية العاطفة المشتركة، وهو أيضا تفتيت للثروة وحيلولة دون تجمعها لدى الارشد من الاولاد، واحدا كان أو متعددا، ورعاية لمستقبل الصغير اذا كبر، والمرأة اذا تزوجت وصار لها اولاد وبيت جديد.

ومن النظم ما يسوي بين الاقرباء في انصبة الميراث، فيعطي بعيد القرابة، كقريب القرابة، دون تفرقة، على زعم ان الجميع متساوون في اصل القرابة، وكذلك كان يفعل قدماء المصريين.

والشريعة الاسلامية تفرق بين البعيد والقريب في القرابة، كما تفرق بين القريب والاجنبي من الناس، وهذا هو المنطق السليم، فان اقارب الميت، انما استحقوا ان يختصوا بميراثه دون من ليسوا من الاقارب بسبب القرابة، فلا يعقل ان تكون القرابة هي سبب التخصيص بالاعطاء، ثم لا تعتبر درجاتها، ويسوى بين الادنى والابعد فيها.

وبعض القوانين يسوي بين الذكر والانثى في الميراث، ويعيبون على الاسلام انه يفرق بين الذكر والانثى اللذين يتصلان بالميت على درجة واحدة، حيث يعطى الذكر مثل حظ الانثيين، ومنهم من يقول: اذا كان لا بد من التفرقة فلنعط المرأة ضعف الرجل، لأن المرأة أضعف وأحوج الى المعاونة.

وللاسلام في ذلك حكمته، فانه قد درس الامر من أوله وأساسه، فأعطى الرجل حق الرياسة في الاسرة، وجعل عليه في مقابل ذلك كل النفقات المالية، فالرجل هو الذي يبذل للمرأة صداقها، وهو الذي ينفق عليها جميع نفقاتها ونفقات أولادها منه، من طعام وشراب وكسوة ومسكن، وعليه ان يخدمها ـ أن يجعل لها خادما ان كان ذا قدرة على ذلك، فان لم يكن قادرا على ان يجعل لها خادما، فمن العلماء من يوجب عليه خدمتها بنفسه، ومنهم من يفرق بين ما تقوم به المرأة في عادة النساء، وما لا تقوم به، فيلزمه بما لا تقوم به، وكذلك القول في الارضاع، فقد أوجب الفقهاء على الاب اجرة الرضاع اذا أرضعت الصبي أمه، أي ان لها ان تتمسك بأخذ الاجرة على ارضاع ابنها ـ الا اذا كان الاب فقيرا.

فهل من الحكمة بعد هذا كله، وبعد ان تكون المرأة منتفعة على طول

الخـط، معفاة من كل نفقة على هذا الوجه، هل من الحكمة مع هذا ان يكون نصيبها مساويا لنصيب الرجل؟

ثم ان الفرق الذي يمتاز به الرجل على المرأة في الواقع هو «السدس»، اي اننا لو فرضنا ان الرجل سينال اربعة اسهم، فان المرأة ستأخذ سهمين، ولو ضممناهما معا، لكان الجميع ستة، فاذا قسمنا بالتساوي كان لكل منهما ثلاثة فالتشريع الاسلامي يأخذ واحدا من ثلاثة، المرأة - أي سدسا - ويعطيه الرجل نافلة في مقابل ما يجعله عليه من الحقوق والواجبات الكثيرة، فأي ظلم في هذا للمرأة، وأي غبن عليها؟ ولكن الذين يعترضون لا يفكرون الا في النصيبين ولا ينـظرون الى الامر كله، والى واجبات الرجل التي يؤديها، وحقوق المرأة التي تؤدى لها - لا ينظرون الى ذلك كجملة واحدة، ولو نظروا اليه كجملة واحدة، لرأوا ان المرأة هي الفائزة، وهي التي حوبيت، ان صح هذا التعبير، والواقع انه لا محاباة، وان في ذلك تحقيقا للتوازن بين كل من الجنسين ووضعه في الحياة الاجتمـاعية، وفيه مراعاة عملية لجانب الضعف في المرأة، حيث رفعت عنها جميع الاثقال والتكاليف، ثم منحت في الوقت نفسه نصيبا لا يقل عن نصيب الرجل الذي وضعت عليه جميع التكاليف الا بنسبة ضئيلة هي «السدس».

ومن الطريف ان الذين يعترضون على الاسلام في هذا يذكرون ضعف المرأة واحتياجها الى المعاونة حين يتحدثون عن الميراث، بينما نراهم ينكرون ان بالمرأة ضعفا أو قصورا عن الرجل حين يتحدثون عن القوامة والرياسة وعن مساواة الرجل بالمرأة في كل ناحية من النواحي الاجتماعية، وما ذلك الا لانهم يتخبطون ويتجافون عن الواقع الذي تشهد به الطبيعة اي سنن الله في هذا الكون.

وبعض الشرائع والقوانين تحرم الزوجة ميراث زوجها، والزوج من ميراث زوجته، وبعضها يعترف بالتوارث بين الزوجين، ولكن يخالف تقدير الاسلام الذي قدره لكل منهما.

والاسلام هو الشريعة الوسط في ذلك، فهو لم ينس ما بين الزوجين من علاقة واشتراك في الحياة الزوجية التي هي في الغالب أصل في بقاء فائض مدخر يبقى لمن يرث، وان لكل من الزوجين دوره في ذلك، ثم اعطى الزوج نصف

المـال الذي تركته الزوجة ان لم يكن لها ولد، والربع ان كان لها ولد، وأعطى الزوجـة الربع أو الثمن، لأنه في كثير من الاحيان يكون المال الذي ادخرته الزوجة فائضا من مال زوجها، أو يكون قد توافر لها على حساب ما أنفق هو وما بذل في سبيلها، فدوره في توفير المال لها رئيسي وأكبر فاعلية، والفرص التي تتهيأ للزوجة على حساب زوجها أكثر، أما دور الزوجة في تنمية مال زوجها فهو يتمثل في المحافظة عليه، وفي احسان تدبيره، ولا تكاد تتهيأ للزوج فرص لتنمية ماله على حساب زوجته أو جهودها في ما وراء ذلك، فلهذا كان نصيبها على النصف من نصيبه عدلا، وكان نصيبه على الضعف من نصيبها عدلا، وسبحان من قسم الحظوظ فلا عتاب ولا ملامة!

ولا يخفى ايضا ما في نقص نصيب كل من الزوجين، اذا وجد الولد، من الحكمـة ومـراعـاة الوضع الطبيعي، لأن الولد اقرب الى ابيه أو امه من أحد الزوجين الى صاحبه، فوجوده لابد ان يلاحظ، ولا بد ان يكون له اثر في التقسيم يعود عليه بنصيب أكبر حتى تتحقق الفائدة من قربه الى مورثه، وهذا مثل مما يسمونه «الحجب بالنقص»، وأساسه أن يكون هناك درجة من درجات القرابة أحق، ولكن الدرجة التي معها وان كانت أقل منها قوة، لا يمكن أن تحرم حرمانا تاما، فالعدالة تقضي بأن يلاحظ القرب القوي فيكون له تأثير وأن يلاحظ في الوقت نفسه، ان الاقل قربا بقيت له ناحية قوية ينتسب الى الميت بها ـ وهي هنا الزوجة، أو بتعبير أهل الفرائض «الصهر» ـ فيبقى له حظ من الميراث يناسبها، وقد تضعف القرابة نسبيا أمام وارث آخر مزاحم، حتى تسقط فيكون ما يسمونه «حجب الحرمان» كحرمان الأخ مع وجود الابن أو الاب .

وهكذا لو ذهبنا نتتبع كل حكم من أحكام الميراث لوجدناه على أساس من الموازنة العادلة بين كل عضو في الاسرة وما يؤديه للمجتمع من نفع، وهذا هو المعنى الذي يشير اليه قوله تعالى في آخر الآية الأولى من آيتي المواريث الأساسيتين: **﴿آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا، فريضة من الله ان الله كان عليما حكيما﴾**[1].

---

(١) الآية ١١ من سورة النساء.

٤

جريمتان فاحشتان

اختلاف بين المفسرين وبيان الراجح من الآراء:

عرضت سورة «النساء» لجريمتين من أشنع الجرائم الخلقية التي من شأنها أن تودي بالمجتمع، وأن تسلب أعضاءه رجالا ونساء ما لكل منهما من خصائص، وذلك ما جاء في قوله تعالى:

﴿واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم، فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا، واللذان يأتيانها منكم فآذوهما، فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما، إن الله كان توابا رحيما﴾[1].

وقد اختلف المفسرون في مواضع من هاتين الآيتين: فاختلفوا في المقصود من «الفاحشة» هنا، واختلفوا في المراد من **﴿اللاتي يأتين﴾** ومن **﴿اللذان يأتيانها﴾**، وفي العقوبة المقررة في هذا الشأن، وهل نسخ حكمها أو لم

---

(١) الآيتان ١٥، ١٦ من سورة النساء.

ينسخ؟ ونحن نلخص الخلاف في ذلك، ونذكر ما هو الراجح من أقوال المختلفين، باعتبار النظر في القرآن وما يتفق وبلاغته ودلالته:

١ - يرى الجمهور أن الحديث في هاتين الآيتين عن جريمة الزنا، وأن العقوبة التي كانت على هذه الجريمة في أول الاسلام تختلف باختلاف الجنسين، فالنساء يعاقبن اذا ثبتت عليهن جريمة الزنا بعقوبتين:

احداهما: مأخوذة من قول الله تعالى: ﴿**واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم**..﴾ الآية، وهي امساكهن في البيوت، أي حبسهن فيها، إلى أن يتحقق واحد من أمرين: إما أن يتوفاهن الموت، وإما أن يجعل الله لهن سبيلا غيره، وهنا يأتي خلاف آخر في المراد بهذا السبيل، فبعضهم يقول: ان المراد بها أن يشرع الله فيهن حكما آخر، ويشيرون بذلك الى حكم الزانية والزاني الذي جاء في سورة النور، بناء على أن سورة النور نزلت بعد سورة النساء، وقد رووا في ذلك حديثا عن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يقول فيه: «**خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلا: الثيب ترجم، والبكر تجلد**»، وبعضهم يرى أن السبيل هي النكاح المغني عن السفاح، أي أن يرزقهن الله بمن يتزوج بهن على ما كان منهن، فيغفر لهن هذا الماضي الآثم.

والعقوبة الثانية: هي الايذاء، ويكون بالتوبيخ والتعيير، وقيل: بل هذا تعبير عن عقوبة تفويضية للأمة، وهي المعروفة في لسان الفقهاء «بالتعزير» وقيل: بل المراد الايذاء الذي حددته فيما بعد سورة النور وهو الجلد، وهذه العقوبة التي هي الايذاء، مأخوذة من الآية الثانية وهي قوله تعالى: ﴿**واللذان يأتيانها منكم فآذوهما**﴾، وعلى هذا يكون «اللذان» مقصودا به «الزانيان» أي الرجل والمرأة، وتكون عقوبة الرجل الزاني هنا هي الايذاء خاصة.

وخلاصة هذا الرأي أن الجريمة المقصودة هي الزنا، وأن العقوبة بالنسبة للمرأة هي الامساك في البيوت أي الحبس إلى أحد الأمرين المذكورين، والايذاء، أما العقوبة بالنسبة للرجل فهي الايذاء فقط.

٢ ـ وقد اختلف الجمهور القائلون بهذا: فمنهم من قال أن هذا الحكم نسخ بما جاء في سورة النور من قوله تعالى: ﴿**الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد**

منهمـا مائة جلدة﴾[1] وقيل: لا نسخ، ويجمع بين العقوبتين، وقال بعضهم ان عقـوبـة الامساك في البيوت المذكورة في الآية الأولى نسخت بعقوبة الأذى المـذكـورة في الآيــة الثانية، وقالت فرقة: بل كان الايذاء هو الأول، ثم نسخ بالامساك، ولكن التلاوة أخرت وقدمت... الخ[2].

٣ ـ ومن هذا يتبين أن الجمهور مضطرب اضطرابا كبيرا في تفسير هاتين الآيتين، وأن بعضهم يرى نسـخ ما فيهما، وبعضهم لا يراه، ثم الذين يرون النسـخ يختلفون في الناسخ، وأنهم يجعلون الآية الثانية في الرجال والنساء جميعا على التغليب، ويجعلون عقوبة الرجل هنا أقل من عقوبة المرأة ويختلفون في السبيل التي ذكرت في الآية الأولى.

وهذا مثل واضح من أمثلة الاختلاف والاضطراب التي تجعل الناظر في القرآن الكريم في حيرة كما تحدثنا في مقدمة هذا الكتاب.

رأي أبي مسلم وبيان رجحانه:

٤ ـ ولكن الذي يجرد نفسه من عاطفة تقليد الجمهور، يستطيع أن يجد في أقوال غيرهم ما هو أقرب إلى القبول، وأدنى إلى اظهار بلاغة القرآن، وفهم حكمته التشريعية على وجه يناسب عظمته وهدايته.

ونريد بذلك: الوجه الذي اختاره أبو مسلم الأصفهاني، ونقله عن مجاهد، وبيـانـه: أن هاتين الآيتين تتحدثان عن جريمتين خاصتين غير جريمة الزنا، احداهما تقع بين النساء خاصة، ولا دخل للرجال فيها، وهي الجريمة المعروفة «بالسحاق»، والجريمة الثانية تقع بين الرجال خاصة ولا دخل للنساء فيها، وهي الجـريمة التي تعرف «باللواط»، فكل من الآيتين تتحدث عن واحدة من هاتين الجـريمتين بالترتيب، وتسند هذه الجريمة الى من ارتكبها على وجه التحديد، فتقول الآية الأولى: ﴿واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم﴾، وتقول الآية الثانية: ﴿واللذان يأتيانها منكم﴾ وتضع كل من الآيتين العقوبة المناسبة للجريمة التي تتحدث عنها...

---

(١) الآية ٢ من سورة النور.

(٢) راجع في هذا كتب التفسير، ومنها تفسير القرطبي ص ٨٤ ج ٥.

فعقوبة النساء اللاتي يرتكبن هذه الفعلة المنكرة، أن يمسكن ويحبسن في البيوت كي يبتعدن عن الجو الذي يتمكن فيه من الاتصال بنساء غيرهن، الى أن يتوفاهن الموت فينتهي بذلك أمرهن، أو يجعل الله لهن سبيلا بزوجية يصلحن بها، وتنسيهن هذا الداء الوبيل، وتمكنهن من أداء واجبهن الطبيعي في ظل الزواج، وتعيد اليهن اعتبارهن كإناث خلقهن الله لغير ما انحرفن اليه من فساد عظيم.

أما الرجال «اللذان يأتيانها منكم» فعقوبتهم هي الايذاء، وهي عقوبة فوضها الشارع لولي الأمر، فله اذا ثبتت تلك الجريمة المنكرة على رجلين أن يؤذيهما، والأذى على درجات، وللقانون المستمد من هذا التفويض أن ينظمه ويحدده كما تقضي بذلك المصلحة، وكما يتناسب مع شيوع هذه الجريمة في مجتمع، أو قلتها في مجتمع آخر، فقد يرى تغليظ العقوبة اذا فشت الجريمة، ردعا لمرتكبيها ومن يخشى أن يقلدوهم، وقد يرى تخفيفها لقلة مرتكبيها، وأنها لم تصر داء عاما يخشى على المجتمع من تفشيه.

وبذلك يتبين أن الآيتين في جريمتين خاصتين غير جريمة الزنا، وأن القرآن على هذا يكون قد استكمل التشريع لأحكام الجرائم الثلاث: الجريمة التي تكون بين رجل وامرأة، والجريمة التي تكون بين امرأة وامرأة، والجريمة التي تكون بين رجل ورجل، فالأولى جاء حكمها في سورة النور والثانية والثالثة جاء حكمهما في سورة النساء.

وعلى هذا فلا حاجة الى القول بالنسخ، ولا الى ذلك الاضطراب الذي رأينا عليه الجمهور.

٥ ـ وعلينا أن نبين بعد هذا وجه الحكمة في تشريع عقوبة لهاتين الجريمتين، ولم عنيت سورة النساء بهما، ولم خصصت سورة النور بالتشريع لجريمة الزنا؟

وبيان ذلك كله: أن سورة النور تتحدث عن الآداب الطبيعية، والسلوك المعتاد في المجتمع، وتبني حديثها عما يكون بين الرجال والنساء، فتذكر الزانية والزاني، وتذكر الذين يرمون المحصنات، وتذكر الذين يرمون أزواجهم، وتذكر الذين جاءوا بالافك على سيدة شريفة هي عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ

وتـذكـر أن الخبيثـات للخبيثين، والخبيثين للخبيثات، وأن الطيبات للطيبين، والطيبين للطيبـات، وتشـرع حكم الاستئذان عند دخول البيوت، وحكم غض الرجل بصره عن المرأة، وغض المرأة بصرها عن الرجل، وتذكر أحكام النساء من جهة الزينة وما يجوز ابداؤها منها وما لا يجوز، وعلى من تبدى المرأة زينتها، وترشد إلى آداب من يعيشون معا، وأنه يجب على بعضهم الاستئذان في أوقات معينة، وتذكر حكم القواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا، الى غير ذلك.

فجميع ما ذكرته سورة النور متعلق بما يكون بين الرجل والمرأة، فلذلك لم يأت الحديث فيها عن جريمة الرجل والرجل، ولا عن جريمة المرأة والمرأة.

أمـا مجيء ذلك في سورة «النســاء»، فلأنها السورة التي تتحدث عن المقومات الأساسية للمجتمع، وكل واحدة من هاتين الجريمتين من شأنها أن تفســد رجـولة الرجل، وأن تفسد أنوثة المرأة، فتجعل الرجل يخسر نفسه ولا يصلح لأن يكون زوجا ورجلا له شخصيته وكماله وسموه على النحو الذي هيأه الله عليه، وتجعل المرأة تخسر نفسها، ولا تصلح لأن تكون زوجة كذلك، وتنفر منهما، فمن ذا الذي يرضى بأن يتزوج امرأة تكون مريضة بهذا الداء، ومن هذه التي ترضى بأن تتزوج رجلا يكون ملتويا عن سنة الرجال، متطلبا أو متقبلا لهذا اللون من الجريمة والفاحشة المنكرة؟ ثم متى تقوم المرأة بوظيفتها كأنثى اذا اتجهت هذا الاتجاه، واكتفت من اللذة بهذا اللون الذي لا يثمر ثمرته، ومتى يقوم الرجل بوظيفته وهو مكتف بما يرتكبه من شذوذ.

لهذا كانت هاتان الجريمتان أخطر على المجتمع من جريمة الزنا نفسها، وكـانتـا أفعـل في هد كيان المجتمع منها، لأن احداهما تفسد رجولة الرجل، والأخـرى تفســد أنـوثـة المرأة، فتأتي على الصنفين ـ اللذين يتكون منهما المجتمع ـ من الأعماق، واذن فالسورة التي تهتم بوضع الأسس والقواعد لبناء مجتمع سليم، من حقها أن تهتم بهذا الجانب الذي هو حماية الرجال من الرجال، وحماية النساء من النساء.

ويتضمن ما قلناه بيان الحكمة في هذا التشريع، وفي ذلك كفاية والحمد لله رب العالمين.

٥
أحكام التوبة

يقول الله تعالى:

﴿انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب، فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليمًا حكيما. وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال اني تبت الآن، ولا الذين يموتون وهم كفار، أولئك اعتدنا لهم عذابا أليما﴾[1].

ما هي التوبة:

١ ـ التوبة في الأصل: الرجوع فاذا رجع الانسان إلى نفسه، وندم على فعل القبيح، وعزم على ألا يعود، كان تائبا إلى الله، أي راجعا إليه، وذلك لأنه حين كان مرتكبا للذنب كان منصرفا عن الله، آبقا منه.

وللراغب الأصفهاني ـ في كتابه «المفردات في غريب القرآن» ـ ضبط جيد لمعنى توبة العبد، اذ يقول: «ان التوب ترك الذنب على أجمل الوجوه، وهو أبلغ وجوه الاعتذار، فإن الاعتذار على ثلاثة أوجه: اما أن يقول المعتذر: لم

---

(١) الأيتان ١٧، ١٨ من سورة النساء.

أفعل، أو يقول: فعلت لأجل كذا، أو: فعلت وأسأت وقد أقلعت، ولا رابع لذلك، وهذا الأخير هو التوبة»[1].

وكما يقال للعبد: تاب فهو تائب بهذا المعنى، يقال لله تعالى: تاب على عبده، بمعنى قبل توبته.

فتوبة الله على عبده، رجوعه عليه، وكأنها مضمنة معنى العطف على التائب بتقبله، وقد جرى التعبير في الشرع على افادة معنى تجاوب الله مع عبده حين يقصده ويرجع إليه بأسلوب المشاكلة المعروف عند البلاغيين، ففي الحديث: ﴿من تقرب إلى الله شبرا، تقرب الله اليه ذراعا، ومن تقرب إليه ذراعا، تقرب إليه باعا، ومن أقبل عليه يمشي، أقبل عليه يهرول﴾ فالتوبة التي تكون من الله على عبده من هذا الباب، كأنه يقال للعبد: ارجع الى الله يرجع اليك، وفيه ايحاء بطريق المقابلة إلى أن من هجر الله هجره الله.

التوبة رابطة بين الله وعباده:

٢ ـ والتوبة من العبد، ومن الرب جل جلاله، انما هي ارتباط متبادل على سنة الرحمة والحكمة من الله، والترجي والاسترحام من العبد.

وما دامت هذه الرابطة بين العبد وربه قائمة، فإن الأفراد بخير وإلى خير، والمجتمع بخير وإلى خير.

وقد بينا ـ ونحن بصدد الحديث عن «الآيات المبشرة» ـ أن الاسلام بنى أحكام التعامل بين الله وعباده على أساس من ادراك طبيعة الانسان وعوامل ضعفه الخلقي، وما يحيط به من اغراء واغواء، ولذلك جاءت مبادئه في هذا الجانب ـ كما هو الشأن في سائر الشريعة ـ متسمة بطابع الرحمة والمعاونة والارشاد وقبول المعذرة والتشجيع على الاحسان السلبي بالاقلاع عن الكبائر، والايجابي بفعل الحسنات[2].

وفي هاتين الآيتين بيان إلهي واضح لقاعدة هذا التعامل، أو هذا الارتباط، بين الله وعباده، في شأن التوبة، وقد جاء هذا البيان المحدد في سورة النساء

---

(١) راجع مادة «توب».

(٢) راجع ما كتبناه عن «الآيات المبشرة» ـ ص ١٠٤ من هذا الكتاب.

بالذات، لمـا ذكرناه مرارا من أنها السورة التي حددت فيها أوضاع المجتمع الاسلامي، على وجه تكاد تنفرد به، ولا شك أن هذا البيان الواضح المركز، لما يقبل من التوبة وما لا يقبل، هو جزء أساسي ضروري من المنهاج العام الذي يجب أن يعرفه أفراد المجتمع فيعرفوا به موقفهم ووضعهم من العهد الذي بينهم وبين ربهم، حتى لا يغتروا برجاء كاذب، ولا يقعوا في يأس مثبط أو مهلك.

* * *

٣ ـ والمراد بالتوبة في قوله تعالى: ﴿انما التوبة على الله﴾ توبة الله التي يتوبها على عباده، أي تقبله لتوبتهم، وكذلك «التوبة»، في قوله تعالى ﴿فأولئك يتوب الله عليهم﴾ وقوله تعالى ﴿وليست التوبة﴾ أما المراد في قوله ﴿يتوبون﴾ وقوله ﴿اني تبت الآن﴾ فتوبة العباد كما هو ظاهر.

أصناف التائبين وأحكامهم:

(أ) المبادرون من قريب:

والذي يستخلص من الآيتين أن أصناف الناس بالنسبة للتوبة أربعة:

الصنف الأول: ﴿الذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب﴾.

وعمل السوء هو عمل ما من شأنه أن يغم ويحزن، سواء أوقعه الانسان على نفسه، أو على غيره، وكل المعاصي من هذا القبيل، لأن الانسان بفعلها يوقع نفسه في الغم والحزن أما في الدنيا، وأما في الآخرة، أو يغم غيره ويحزنه باساءته إياه، والجهالة: تطلق بمعنى السفاهة التي هي خفة الانسان في تصرفاته، وفعله الأشياء على غير وجهها، وتطلق بمعنى الجهل الذي هو الخلو من العلم، أو علم الأشياء على خلاف ما هي عليه.

وهذا الصنف من الناس هم الذين يعملون السوء، اما لطيش فيهم وتلبية لداع من دواعي الهوى والشهوة ـ وذلك هو السفه ـ وإما لجهل بعواقبه، أو اعتقاد منهم بأنه ليس سوءا، فاذا صدر عمل السوء منهم عن هذا أو ذاك، ثم تابوا من قريب، فندموا وأقلعوا، فإن الله تعالى أوجب على نفسه، تفضلا منه ورحمة، أن يقبل توبتهم، ويغفر لهم ما فرط منهم.

وقد اختلف العلماء في القرب الذي ذكره الله تعالى في قوله ﴿ثم يتوبون

من قريب﴾، فقال بعضهم: ما بين الانسان وبين الموت قريب،فالتوبة مقبولة إلى ما قبل اليقين بالموت، وقال آخرون: ما دام في الصحة قبل مرض الموت، ومنهم من يقول: تقبل حتى عند الغرغرة، وهي ما يحدث للانسان من الحشرجة حين تخرج روحه.

وهذه الآراء لا تتفق وظاهر الآية، فإن القرب ضد البعد، وما ذكروه لا يعد قربا في اللغة، فكيف يقال عمن يفعل الذنوب ويظل عليها أعواما طوالا حتى يشارف الموت أو يخالطه، ثم يتوب عند ذلك، كيف يقال فيه: أنه تاب من قريب، ثم إن الآية الثانية تصرح بأن من جاءه الموت فتاب عند ذلك، ليس ممن أوجب الله قبول توبتهم.

والذي نرجحه أن المراد المبادرة بالتوبة بعد فترة من الوقت يتم فيها التدبر والاستبصار عادة، وليست الذنوب كلها على شاكلة واحدة، ولكن لكل ذنب ظروفه، فربما اعتبرت التوبة من ذنب قريبة، اذا كان وقتها هو الزمن المجاور لوقت فعل الذنب، كمن أساء إلى انسان بالسب مثلا، وهو ثائر غضبان، ثم هدأ وسكن غضبه، فإنما تحسن التوبة من هذا اذا جاءت قريبة من وقت الاساءة، لأن سبب الاساءة كان ثورة نفسه، وقد انتهت هذه الثورة النفسية فلم يعد من حقه أن يؤجل التوبة والاعتذار، فكلما طاول وتلكأ كان مبعدا ومفرطا ومصرا، والاصرار على الذنب بمثابة تجديده.

وقد يظل الانسان مدة طويلة يعالج في نفسه ناحية نقص خلقي، فيجاهد بواعثها وتارة يغلب في هذه المجاهدة وتارة يغلب، حتى ينتصر ولو بعد حين، فهذا يكون تائبا من قريب ولو طال أمد علاجه لنفسه.

والله تعالى يقول في صفات المتقين: ﴿ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون﴾[1] فهؤلاء هم الذين يتوبون من الذنب فور وقوعه، لأنهم أقوياء بالتقوى، فاذا غلبتهم عوامل الاغواء او الاغراء، لم يلبثوا طويلا حتى يتذكروا فتزول عنهم الحجب التي حجبتهم، فاذا هم مبصرون.

ويقول في أوصافهم أيضا: ﴿والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم،

---

(١) الآية ٢٠١ من سورة الأعراف.

ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب إلا الله، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾[1].

فنفى عنهم الاصرار بعد الابصار، فمن أصر وتلكأ فقد ابتعد، وكلما زاد بعده اسود قلبه وتمكن الاثم من نفسه، وكان إلى عدم قبول توبته أقرب، بل كان هو أبعد من أن يتوب.

وقد ذكر «السوء» هنا مفردا للايحاء بأن هذا الصنف الذي تقبل توبته حتما هو الذي يعمل السوء في الحين بعد الحين، فلتة وهفوة دون استمرار لفعله، واجتراء ومواظبة عليه، ولذلك غاير بين التعبير هنا والتعبير في قوله: **﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات﴾** فجمع «السيئات» ليشعر بأن الذين لم يوجب الله على نفسه قبول توبتهم، هم الذين من شأنهم أن يكرروا الذنوب وينوعوها، وشتان بين من يفلت منه الذنب مرة بعد مرة دون اصرار عليه، ومن يصير صدور السيئات ملكة فيه.

(ب) المسوفون حتى يحضرهم الموت:

الصنف الثاني: هو المقابل للصنف الأول، وهم الذين يعملون السيئات على معرفة بعواقبها ويجترحونها في اصرار عليها، وملازمة لها، كالذي يشرب الخمر وهو يعلم تحريمها ولكنه يواظب عليها مواظبة المصلي على صلاته، وكالذي يلعب القمار، أو يزني، ولا يفكر في الكف عن عصيانه، بل يكرره ويقبل عليه ويتخذه عادة يمرن عليها. هذا الصنف في العادة لا يفكر في التوبة والاقلاع عن معصيته، الا اذا عجز عجزا ماديا عن ارتكاب اثمه، أو أدركه الموت، والعجز المادي هو مقدمات الموت، وأحيانا يكون هو المرض المقعد المفضي إلى الموت، فإذا أصابه جعل يردد كلمة التوبة بلسانه، ولو أنه شفي من مرضه لعاد سيرته الأولى، لانطباع السيئات في قلبه، وصيرورتها ملكة في نفسه.

وقد بين الله تعالى أن هؤلاء المجترئين المسوفين ليس لهم حق على الله تعالى في أن يقبل توبتهم، فقال جل شأنه: **﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات، حتى اذا حضر أحدهم الموت قال اني تبت الآن﴾** فقد دل قوله تعالى

---

(١) الآية ١٣٥ من سورة آل عمران.

﴿يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت﴾ على أن عملهم السيئات متجدد مستمر متتابع، وأن انتقالهم من حال عمل السيئات انما هو الى حال حضور الموت اياهم، وان التوبة من الذنوب التي عملوها لم تسبق ذلك، بل لم يقولوها الا «**الآن**» وتلك شبيهة بتوبة فرعون اذ أدركه الغرق فقال آمنت، فرد الله تعالى عليه ايمانه حينئذ، لأنه ليس ايمانا عن اختيار وانما هو ايمان المضطر الذي وقع بين يدي العذاب، فقال له منكرا عليه: **﴿الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾**[1] فعصيانه: اباؤه دعوة الحق، ومواظبته على اعتناق الباطل طوال حياته، وكونه من المفسدين، هو اصراره على عمل ـ السيئات وارتكاب الفساد حتى صار مستحقا لأن ينعت بالفساد ويشتق له وصف منه فيقال له «**مفسد**» ويضم إلى أشباهه وحزبه، فيقال «**من المفسدين**»، وناهيك بعصابة يكون على رأسها هذا الذي يقتل الأبناء، ويستحيي النساء، ومن أفرادها هامان وأمثاله الذين يزينون له الافساد والظلم وحكم الطغيان والجبروت.

(جـ) الذين يموتون متلبسين:

الصنف الثالث: هم المذكورون بقوله تعالى: «**ولا الذين يموتون وهم كفار**» وهو عطف مع تكرار «لا» على الذين لم يوجب الله لهم التوبة.

وقد يسأل هنا: لم ذكر الذين يموتون وهم كفار، مع أن الكلام انما هو في التوبة، وما دام المرء قد مات وهو كافر، فأمره مفروغ منه، اذ الله تعالى لا يتوب على كافر مات على كفره، بدليل قوله تعالى: **﴿ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾**[2].

فالجواب: انهم قد خرجوا ذلك على أحد أمرين:

أولهما: ان يقال: أراد الله تعالى أن يجمع بين هؤلاء المجترحين المسوفين وبين الكفار الذين لا يغفر لهم الكفر، ليوحي إلى الناس بهذا الجمع أن كليهما في الطرد من رحمة الله سواء، وذلك أن المسوفين إلى أن يحضرهم الموت، قريبون من الذين يموتون وهم كفار، فليس بين هؤلاء وأولئك إلا فترة خروج الروح.

---

(١) الآية ٩٠ من سورة يونس.

(٢) الآية ٤٨ من سورة النساء.

وهذا الجواب فيه شيء من الضعف، لأن الله تعالى فرق بين الكافرين وعصاة المؤمنين، كما يفهم من قوله: ﴿**ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾ فالكافر لابد أن يحق عليه الوعيد، أما المؤمن العاصي فإنه لا حق له على الله في قبول توبته التي أخرها حتى حضره الموت، ولكن لا مانع في الوقت نفسه من أن يغفر الله له اذا شاء، فالتسوية بينهما ليست بذاك.

الثاني: أن يقال: ان تعبير سورة «النساء» في هذا المقام بقوله تعالى: ﴿**ولا الذين يموتون وهم كفار**﴾ شبيه شبها عكسيا بالتعبير في سورة آل عمران ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون**﴾[1] فمعنى هذا النهي أن يبتعدوا عن كل ما ينافي الاسلام في جميع أوقاتهم حتى اذا أدركهم الموت أدركهم مسلمين طائعين، لأن الموت لا يعرف وقته، وكثيرا ما يفاجىء الناس وهم متلبسون بمعصية الله واقتراف كبائر ذنوبه.

وقد عهد من الشارع أنه يفسر الاسلام أحيانا بالكف عن كبائر الذنوب، فيقول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**» ويقول: «**من غشنا فليس منا**» وكذلك يفعل في شأن الايمان.

ومن ذلك قوله - صلى الله عليه وآله وسلم -: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن**».

وقوله - صلى الله عليه وآله وسلم -: «**والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن**. فقيل: من هو يا رسول الله؟ قال: **الذي لا يأمن جاره بوائقه**».

فالمراد بقوله تعالى: ﴿**ولا الذين يموتون وهم كفار**﴾ هذا الصنف من عصاة المؤمنين، الذين جرى عرف الشارع على أن يصفهم أحيانا بعدم الايمان، اشعارا بمنافاة ما يعملون لمقتضى الايمان الصحيح، لأن ايمان اليقين يستدعي الكف عن كبائر الذنوب، ومن فعل شيئا من الكبائر فلابد أن يكون حين فعله متزلزل الايمان بعاقبة فعله، فالمراد: أن هؤلاء الذين يأتيهم الموت وهم كفار - أي متلبسون بعمل السيئات الكبرى التي يزايل الايمان أصحابها حين

---

(١) الآية ١٠٢ من سورة آل عمران.

يرتكبونها ـ هم أيضا لا حق لهم على الله في الغفران والقبول، وان كانوا داخلين فيمن جعلهم الله تحت المشيئة بقوله: ﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾.

وهذا الوجه من وجهي الجواب أقرب وأجود لأن الكلام انما هو في المؤمنين الذين يذنبون والصنف الذي تتحدث الآية عنه، قريب من الصنف الذي تقدمه، ولذلك عطف عليه، فكلاهما يعمل السيئات ويسوف في التوبة، أما الآخر فيأتيه الموت فجأة فلا يدرك شيئا حتى هذا الترديد اللفظي للتوبة والاستغفار.

(د) المؤجلون إلى حين:

الصنف الرابع: هم الذين يعملون السوء بجهالة ولا يتوبون من قريب، ولا يسوفون إلى أن يحضرهم الموت أو مقدماته، وهؤلاء يؤخذون من مفهوم الكلام، لا من منطوقه، ويدل الكلام بالمفهوم على أنه لا حق لهم على الله في قبول توبتهم، كما يدل على أنهم ليسوا من الفريقين الثالث والرابع، وأمر معاملتهم مسكوت عنه، فهو متروك للعدل الالهي، ولا شك أن أحوالهم تختلف، ومدى بعدهم عن التوبة وسوء أعمالهم، يتفاوت، فالله تعالى يعامل كلا مما يستحق، وهو العليم الحكيم.

* * *

٤ ـ وقد اختلف أهل السنة والمعتزلة في معنى قوله تعالى في الآية الأولى: ﴿انما التوبة على الله﴾ بناء على الاختلاف في مسألة وجوب الأصلح على الله تعالى، وهل يعد ذلك ملائما أو منافيا لكماله جل شأنه، فقال بعضهم: لا يجب شيء على الله، واضطروا إلى تأويل هذا التعبير بمثل: انما التوبة عند الله، وقال بعضهم: بل هذا التعبير على ظاهره، ولا مانع من ذلك، فإن الله يجب عليه فعل الصلاح، فالأولون هم أهل السنة، والآخرون هم المعتزلة.

الواقع أنه لا محل لهذا الخلاف، فإن الله تعالى هو الذي أوجب ذلك على نفسه، ولم يوجبه عليه أحد، وايجاب المختار الحكيم شيئا على نفسه لا يعد نقصا فيه، وانما نفر أهل السنة من ذلك على اعتبار أن وجوب شيء على الله نقص فيه ـ جل وعلا ـ ولكن اذا علمنا أنه هو الذي أوجبه على نفسه مختارا، وعلى مقتضى صفاته من العدل والحكمة والرحمة، لصار الخلاف غير ذي موضوع.

٦
أحكام الأسرة

منزلة الأسرة في المجتمع:

١ ـ الأسرة هي المجتمع الصغير الذي يتربى فيه الانسان، وينشأ من أول عهده بالحياة في أحضانه، ينطبع بطابعه، ويرى الأشياء بعينه، ويتعرفها عن طريق أحكامه وميوله واتجاهاته وما له من ايحاء حين يستحسن ما يراه حسنا، أو يستقبح ما يراه قبيحا، الى غير ذلك.

ولذلك أدرك علماء الاجتماع أن البيت هو الينبوع الأول الذي يمد الأمة بالرجال والنساء، وأنه اذا كان هذا الينبوع صافيا خاليا من الشوائب المفسدة، كان امداده خيرا على الأمة، وزادا لها من الأفراد الصالحين الطيبين الذين يصبحون في مجتمعها الأكبر لبنات قوة، وحلقات تعاون، ودعاة فضيلة، ودعائم نظام، ومصادر سعادة، واذا كان هذا الينبوع مشوبا بالشوائب قائما على الفوضى والاهمال، فإن إمداده يكون شرا على الأمة، وخطرا على مقوماتها، ونكدا ووبالا على مجتمعها.

وهذا المعنى يقرره القرآن الكريم حيث يقول: ﴿**والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه، والذي خبث لا يخرج إلا نكدا**﴾[1].

---

(١) الآية ٥٨ من سورة الأعراف.

فهذا مثل ضربه الله تعالى لكل مصدر من المصادر التي تمد الناس، فاذا كان هذا المصدر طيبا كان امداده طيبا، واذا كان خبيثا كان امداده خبيثا، قد ضرب الله لنا مثلا آخر بعد أن بين مصائر الكافرين والمؤمنين، فقال جل ذكره:

﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون. ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار. يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ويضل الله الظالمين، ويفعل الله ما يشاء. ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار. جهنم يصلونها وبئس القرار﴾[1].

٢ ـ ولذلك عنى الاسلام عامة ـ كتابا وسنة وفقها وحكما وقضاء ـ بهذا الينبوع الأول من ينابيع المجتمع، فوضع له عن طريق التشريع والارشاد والتوجيه مجموعة من القوانين والنظم هي خير ما أخرج للناس في هذا الجانب الحيوي الأساسي من شؤون الاصلاح الاجتماعي.

وسورة «النساء» قد أخذت من هذا بحظ وافر، ولا عجب، فهي السورة التي تبني المجتمع الاسلامي على أسس الاستقرار والفضيلة والسعادة الكاملة.

وقد قدمنا بعض الأمثلة من توجيهها لأفراد الأسر إلى المبادىء السليمة والسبل الراشدة[2] وهنا نتحدث عن الأحكام التي شرعتها في هذا الجانب:

١ ـ لم تقتصر سورة النساء على معالجة شؤون الأسرة من ناحية الزوجية، ولكنها بدأت من الأساس، فأمرت بانصاف اليتامى والسفهاء باعتبارهم أضعف أفراد الأسرة، وجعلت لهم من المجتمع الأكبر رقيبا يقوم لليتيم بما يعوضه عن رعاية الأب، ويقوم للسفيه بما يعوضه عما فقد من الرشد، ثم أمرت برعاية النساء في حقوقهن المالية، فأبطلت ما كان عليه الجاهلية من حرمانهن، وجعلت للنساء نصيبا مفروضا مما ترك الوالدان والأقربون، في نص قوي مفيد لأن هذا الحق ثابت للنساء على نحو مستقل، كثبوته للرجال، ثم شرعت نظام

---

(١) الآيات من ٢٤ إلى ٢٩ من سورة ابراهيم.

(٢) راجع «الآيات الموجهة» ص ٨٨ من هذا الكتاب.

الميراث كاملا على نحو يقطع دابر النزاع، ويحقق لكل عضو في الأسرة نصيبا يوازي مسؤولياته وما عهد اليه به من شؤون نفسه ومجتمعه الصغير، ومجتمعه الكبير، وقد تقدم القول في ذلك فيما مضى من الأحكام.

أحكام الزوجية في سورة «النساء»:

جعل الصداق على الرجل دون المرأة:

٢ ـ أما أحكام الأسرة من ناحية الزوجية، فإننا نجد أن أول ما عنيت به السورة من ذلك هو وجوب اعطاء النساء مهرهن نحلة، وابطالها بذلك ما كان عليه الجاهلية من أخذ الأولياء صداق من تحت أيديهن من النساء، أو احتجاز الأزواج لهذا الصداق أو لبعضه دون وفاء به، تهاونا بحقهن وطمعا فيهن[1].

ولا شك أن تشريع هذا الحكم هو أول خطوة عملية في اصلاح نفس الزوجة واشعارها أنها وقد انفصلت عن أسرتها النسبية، واتجهت إلى تأسيس أسرة زوجية، قد أعطيت ما يساعدها على ذلك، وقد اعترف لها بحق مالي تكون فيه آخذة، وتشعر فيه بمبادىء الاستقلال عن الأسرة السابقة، وأنها لم تنتقل إلى البيت الجديد كسلعة قبض وليها ثمنها أو استولى عليها زوجها دون أن يبذل في سبيلها.

ان مما يصلح نفسية المرأة أن تشعر بأنها مطلوبة مرغوب فيها، وأن هناك من يبذل الكثير من ماله رمزا لحاجته اليها، ورغبته فيها، وقد جعل الصداق على الرجل تحقيقا لهذه الغاية الحسنة، التي هي تكريم المرأة، واعتبار ما تزهى بها وتعتز بحكم أنوثتها، وذلك ما لا يوجد في النظم التي تجعل المرأة باذلة كأنها هي الطالبة للرجل، فيفرضون عليها أن تدفع من المال ما يسمونه باسم «الدوطة» وقد يكلفونها ما لا تستطيع، وربما ظلت الفتاة سنوات طوالا تدخر من المال ما تقدمه لمن يخطبها، وفي ذلك اشعار لها من أول حياتها بأنها محتاجة إلى رجل، وأنها يجب أن تبذل في سبيل رجل.

ثم يحدث كثيرا أن الرجال في كل مجتمع يؤثرون من الفتيات من تعطيهم

---

(١) راجع ص ١٤٨ من هذاالكتاب.

قدرا كبيرا من المال، وتشعر الفتاة بغضاضة عظيمة من هذا، كما تشعر بأن زوجيتها الجديدة قائمة على أن تعطى وأن تقدم مالها كما قدمت نفسها، وشتان بين هذه ومن تشعر أنها مطلوبة مكرمة مبذول في سبيلها المال والهدايا. فلا شك أن حكم الله في ذلك هو العدل ﴿ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون﴾[1].

حماية الأسرة من الرذيلة:

٣ ـ وعنيت سورة النساء بحماية الأسرة من الرذيلة عن طريق حماية الزوجة والأنثى عامة من جريمة الاناث، وحماية الزوج والرجل عامة من جريمة الذكران، وهما الجريمتان اللتان ذكر حكمهما في قوله تعالى: ﴿واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم . . .﴾ الآية.

وقد تحدثنا عن ذلك من قبل[2].

ابطال عادة ارث النساء:

٤ ـ وعنيت بحماية المرأة من أن تتعرض بعد موت زوجها إلى ظلم ذوي قرباه، بأن تورث كما يورث المتاع، طمعا فيها أو في فداء تقدمه.

وذلك قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها﴾.

وقد كان من عادة العرب في الجاهلية: أن الرجل اذا مات كان أولياؤه أحق بامرأته، ان شاء بعضهم تزوجها، وان شاءوا زوجوها وان شاءوا لم يزوجوها، فهم أحق بها من أهلها، وكان الرجل اذا مات جاء وارثه فألقى على امرأته ثوبه، فمنعها من الناس، فان كانت جميلة تزوجها، وان كانت دميمة حبسها عن الزواج حتى تموت فيرثها، ومن ذلك ما حدث لكبيشة بنت معن بن عاصم، اذ كانت زوجة لأبي قبيس بن الأسلت، فتوفي عنها فجنح عليها ابنه ـ على عادة العرب في ميراث النساء ـ فجاءت النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقالت: يا رسول الله لا أنا ورثت زوجي، ولا أنا تركت فأنكح.

وقد كان أهل يثرب في الجاهلية على هذه العادة، فكان الرجل منهم اذا مات، ورث امرأته من يرث ماله، فكان يعضلها حتى يتزوجها أو يزوجها ممن أراد.

---

(١) الآية ٥٠ من سورة المائدة.

(٢) ص ١٥٧ من هذا الكتاب.

كذلك كانت المرأة في البيئة العربية الجاهلية، فأنقذها الله تعالى وكرمها، وأعتقها من هذا الاستعباد، فجعل لها الحق في نفسها، وفي مالها، وأعطاها نصيبا من ميراث زوجها، فكان ذلك انقلابا عظيما في تاريخ حقوق النساء.

تحريم عضل الزوجات:

٥ ـ وعنيت السورة بحماية الزوجات من أن يعضلهن أزواجهن بغير مبرر.

وأصل العضل التضييق والمنع، وكان الرجل في الجاهلية ربما تزوج امرأة فلم تعجبه فيعضلها أي يضيق عليها، ويمنعها حقوق الزوجية، ويذرها كالمعلقة، لا هي بالمتزوجة ولا بالمطلقة، حتى تعطيه ما قدم لها من صداق، أو بعضه، أو أكثر، بل وصل ذلك بهم إلى حد أن صار قانونا معمولا به، فكان الرجل يكتب بينه وبين من فارقها كارها لها كتابا، ويشهد عليه الشهود، يشترط عليها فيه ألا تتزوج إلا بإذنه، فاذا خطبها خاطب، فإن أعطت زوجها الأول وأرضته أذن لها، وإلا عضلها أي منعها ورفض خاطبها[1] وفي آية أخرى يقول الله عز وجل: ﴿**ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا**﴾[2].

ونحن نشاهد في عصرنا آثار من هذه العادات الجاهلية، وفينا من اذا كره المرأة ضيق عليها وأساء عشرتها لتفتدي منه بابرائه من مؤخر صداقها، ومنهم من لا يكتفي بذلك، بل يطلب في مقابل طلاقه لمن يكرهها ويمسكها ضرارا، المال الكثير فداء لها، وهذا ظلم لا يرضاه الله ولا يليق بمن وضعت في يده أمانة الزوجية، وكلف بصونها ومراقبة الله فيها.

وقد استثنت الآية من ذلك حالة صدور فاحشة مبينة[3] أي واضحة من الزوجة، وأباحت بهذا الاستثناء أن يمسك الرجل المرأة حتى تفتدي بمال أو تتنازل عن بعض صداقها كالمؤخر مثلا. والفاحشة المبينة ليست شيئا معينا كالزنا مثلا، فكل ما يصدر من المرأة مما يؤذي العرض أو الكرامة، أو يأباه العرف السليم، فهو فاحشة تستحق المرأة اذا ارتكبته أن يضيق عليها، لأنها حينئذ هي

---

(١) ص ٤٥٤ ج ٤ من تفسير المنار.

(٢) الآية ٢٣١ من سورة البقرة.

(٣) يقال بين الشيء أي بان واتضح، فهو متعد بمعنى اللازم.

المعتدية، وهي التي أساءت إلى الزوجية، وخرجت على حدودها، فاذا آذت المرأة زوجها ايذاء شديدا، فقد أتت بفاحشة مبينة، واذا أساءت إلى أمه اساءة بليغة بدون مبرر فقد أتت بفاحشة مبينة، واذا سرقت من ماله سرقة واضحة فكذلك... وهكذا.

وانما وصفت الفاحشة بكونها «مبينة» لكي لا يتوسع الأزواج، فيعدوا الهفوات والأخطاء اليسيرة على زوجاتهم، فالمفروض أن المرأة تخطىء أحيانا، ولكن هناك فرقا بين خطأ وخطأ، فلا ينبغي التشدد في احتساب كل شيء على النساء، ولكن ينبغي أن تكون الحياة الزوجية قائمة على كثير من التسامح، فالله تعالى ينصف بهذا كلا من الرجل والمرأة، فاذا كانت المرأة صالحة قائمة بواجبها غير مفسدة ولا مفحشة، حرم على الرجل مضايقتها والتطلع إلى أن يأخذ شيئا من مالها أو صداقها فداء لها، وان كانت المرأة ظالمة مفسدة مفحشة تجعل حياة زوجها شقية، أو تقرب من ذلك، فإنها حينئذ تستحق أن تعامل بالتضييق، وأن تطالب بتعويض الرجل ما أنفقه أو بعض ما أنفقه، وكثير من النساء من تتطلع الى الطلاق لتتزوج بغير زوجها، فالرجل مظلوم مع مثل هذه الزوجة، ومن حقه أن يعوض.

حق كل من الزوجين على صاحبه:

٦ ـ وعنيت السورة بالحياة الزوجية من حيث حسن المعاشرة فأوجب الله معاشرة النساء بالمعروف، وبين أن عاطفة الحب أو الكره ليستا دائما امارة على المستقبل السعيد أو الشقي، وذلك قوله تعالى: ﴿وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا﴾ كما عنيت ببيان الأساس الذي يجب أن تقوم عليه حقوق كل من الرجال والنساء، فبينت أن للرجل على المرأة حق الرياسة، وعليها أن تطيعه وتحفظ غيبه، وأقرأ في ذلك قوله تعالى: **﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض، للرجال نصيب مما اكتسبوا، وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾** وقوله تعالى: **﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض، وبما أنفقوا من أموالهم، فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله﴾**.

وتتلخص الأحكام التي جاءت بها هذه الآيات فيما يأتي:

١ - على الرجل أن يعاشر زوجته بالمعروف.

٢ - على المرأة أن تطيع زوجها وتخضع لرياسته، وأن تحفظ كل ما أمر الله بحفظه في نفسها وبيت زوجها، فقد جعلها الله أمينة على ذلك.

٣ - على الرجال والنساء كليهما أن يرضخا لحكم الله في تهيئة كل منهما على الوضع المناسب للمقصود منه، فلا تتطلع النساء إلى ما خص الله به الرجال وجعلهم مفضلين فيه، ولا يتطلع الرجال إلى ما خص الله به النساء وجعلهن مفضلات فيه.

وقد تحدثنا عن ذلك في الآيات الموجهة، فمن شاء فليرجع إليه[١].

أحوال الخلاف بين الزوجين:

(أ) نشوز المرأة وكيف يعالج:

٧- ورسمت سورة «النساء» الخطة التي تتبع في حالة وقوع خلاف بين الزوجين، واذا تدبرنا الأقسام التي يكون عليها هذا الخلاف وجدناها ثلاثة، ووجدنا السورة قد عرضت لكل قسم منها، وأعطت الحكم المناسب له:

فالحالة الأولى: هي حالة الزوجة التي يخشى منها النشوز.

وقد جاءت هذه الحالة وعلاجها في قوله تعالى:

﴿واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا﴾[٢].

ومن هنا أخذ الاصطلاح المشهور عن النشوز، وهو في الأصل الارتفاع ويراد به هنا أن تستعصي المرأة على زوجها وتنفر منه، ولما كان خلاف النساء يرجع غالبا إلى ترفع المرأة وتعاليها عن قبول رياسة زوجها وطاعته، سمي استعصاؤها عليه نشوزا، كأنها قد ارتقت عنه نشزا من الأرض.

وفي الآية معنى يجب أن نلتفت إليه، وأن نوجه به وجهة الاسلام في وضع

---

(١) ص ٨٨ من هذا الكتاب.

(٢) الآية ٣٤ من سورة النساء.

هذه العقوبات بين يدي الأزواج على زوجاتهم، وخطته في تنفيذها على سنة التدرج.

ذلك أن الآية تقول: ﴿واللاتي تخافون نشوزهن﴾ فلا ترتب الحكم على وقـوع النشوز، ولكن على توقعه، فخوف وقوع الشيء هو توقع حصوله، وانما يكون هذا التوقع أو هذا الخوف من الوقوع اذا ظهر في أفق الزوجية بوادر تدل على أن المرأة تتجه إلى التخلص من سيطرة الزوج ورياسته، وتسير في الطريق المؤدية إلى عصيانه.

ولمـا كانت الأوائل تدل عادة على الأواخر، وكان شأن الخلاف أن يبدأ صغيرا ثم يكبر تدريجيا حتى يصبح جفاء، مستحكما، وبغضا ليس من السهل اقتـلاعـه من القلوب، فإن الله تعـالى يرشد إلى المبادرة بالعلاج، وألا ينتظر الأزواج حالة النشوز الفعلي ليبدؤوا علاجهم[1] ولهذا وضعت خطة هذا العلاج متمشية مع المعروف من أطوار الخلاف.

الخطوة الأولى:

«فعظوهن»:

فالبوادر الأولى الموحية بأن الزوجة سائرة في طريق المخالفة والمغاضبة والاستعصـاء، يناسبها الخطوة الأولى، وهي خطوة النصح والارشاد في رفق ولين، وتلك هي المذكورة بقوله تعالى ﴿فعظوهن﴾.

وما أبلغ هذا اللفظ في الدلالة على المراد، فإن الوعظ نصح مبني على التذكير بالخير فيما يرق له القلب، أو التخويف من عواقب الشر على نحو من التحذير والتبصير، فالزوج يبادر زوجته في هذا الطور الأول، حين يكون الخلاف مستترا، أو على استحياء، فينصحها نصحا رقيقا يستعمل فيه لباقته وحصافته،

---

(١) وقد يمكن تفسير قوله تعالى: «واللاتي تخافون نشوزهن» على معنى: تخافون استفحاله واشتداد أمره وانتهاءه إلى فساد الزوجية أو شقائها، وهو معنى قريب في المآل مما ذكرناه، لأن مداره على ظهور بوادر يخشى أن تتفاقم، وهو محتاج إلى تقدير مضاف محذوف، حيث قيل «واللاتي تخافون نشوزهن» في موضع واللاتي تخافون استفحال نشوزهن، ولذلك عولنا على ما لا يحتاج الى تقدير، وهو ما قررناه.

ويذكرها فيه بذكرياتهما الجميلة، ويثني في تلطف على أخلاقها وأخلاق أسرتها، ويحذرها شماتة الأعداء، وأسف الأصدقاء ونحو ذلك دون أن يظهر بمظهر الضعف أو التذلل، ولا بمظهر التهديد والتوعد.

وهذه الخطوة الأولى من خطوات العلاج الزوجي هي خطوة طبيعية، وكل زوج وزوجة يعرفان مالها من أثر في ازالة كثير من أسباب الخلاف، ومن حسم الشر في منابعه، وعدم السماح له بأن يأخذ طريقه إلى جو الأسرة فيفسده ويكدر صفاءه.

وينبغي أن يفهم أن هذه الخطوة الأولى المناسبة للبوادر الأولى، لا تقف عند بذل هذا الوعظ والنصح مرة واحدة، فإن الشأن أن هذه المرحلة تطول بعض الوقت، وأنها تقابل في الحين بعد الحين بالتذكير وما يناسب كل حالة من النصح والتحذير، بل قد يكون من أساليب الوعظ والاصلاح أن يتسامح الرجل أحيانا، وأن يغفر عن قدرة وتمكن، لتعرف الزوجة فضله في ذلك، وأنه ليس متهورا مندفعا من أول الأمر، فإن ذلك يصلح كثيرا من النساء اللواتي لا تصلحهن الشدة والعنف.

الخطوة الثانية:

«واهجروهن في المضاجع»:

فاذا لم تنجح الخطوة الأولى، فمعنى ذلك أن طورا آخر من أطوار الخلاف أو مقدمة أخرى من مقدمات هذا النشوز المتوقع، قد بدأت تفعل فعلها، ومن المناسب لذلك أن يظهر الرجل بمظهر الممتعض، وأن يعبر عن هذا الامتعاض بطريقة صامتة ولكنها بليغة في صمتها، مؤثرة تأثيرا كثيرا في المرأة، فإن أكبر ما تعتز به المرأة أن ترى زوجها هائما بها، شديد الميل إليها، فإذا وجدت منه ما يدل على الانصراف عنها، وعدم التأثر بأنوثتها، أحست بأنها بدأت تدخل في منطقة من الخطر، وأن عليها ألا تسترسل، ولذلك أمر الله تعالى بالهجران في المضاجع، ليظهر هذا الموقف السلبي من الرجل في أقصى مداه، ولتشعر به المرأة واضحا، وهذا هو السر في أن التعبير جاء بقوله ﴿**واهجروهن في المضاجع**﴾ ولم يأت بمثل: واهجروا مضاجعهن، لأن هجر المضجع ـ مع كونه

هجرا ـ الا أنه على صورة تساعد على تقبله حينا، والصبر عليه وقتا ما، ولكن الهجـر في المضجـع أشد افصاحا عن انصراف النفس، لأنه هجر مع قرب الدواعي وتيسرها.

وبعض الناس يظن أن هذه الخطوة ليست بمجدية، لأن المرأة ما دامت متجهة إلى مخالفة الرجل، سائرة في طريقة منازعته، لا يهمها أن يبتعد عنها، بل ان بعض النساء يرين ذلك خيرا لهن، ولا يعبأن بهذا الأمر، ولا يبالين كثيرا بأن يحـدث أو لا يحدث، ويزداد هذا الشعور بوجود الخلاف، فإن الخلاف يجعل المرأة منصرفة عن هذا اللون من المتاع الزوجي الذي لا يحسن عادة إلا حين يكـون الصفاء وخلو النفس من الأحزان، فكيف يتصور حينئذ أن يكون هذا علاجا للمرأة في حالة الخوف من نشوزها وترفعها وامتناعها؟

وهذا الظن ليس بمقبول، لأن العبرة بالغالب على طبيعة المرأة، فاذا كان بعض النساء يرحبن بمثل ذلك فهن ولا شك ناقصات من حيث التكوين الجنسي، وأولئك قليلات، والشأن في العلاج أن يبنى على الحالات الغالبة، لا على الحالات الشاذة.

ثم أن هذا العلاج، ليس مقصودا لذاته، ولكنه مقصود لتتخذ منه الزوجة دليلا على امتعاض الزوج من تصرفها، فاذا كان الزوج بعد عصيان نصحه ووعظه، يبدو متلهفا على زوجته، ويصلها في مضجعها متأثرا بدافع شهوته، فإنه بذلك يظهر بمظهر غير جاد، ويجعل الزوجة تشعر في أعماق نفسها بأنها أقوى منه، وأكبر تأثيرا عليه، وأن لديها من المقدرة على تطويعه أعظم مما لديه، وهنا تفسد الخطوة الأولى، وتضيع هباء، وبذلك يتبين أن هذه الخطوة الثانية لو أديت على وجهها، وفي وقتها المناسب لها، تكون خطوة فعالة، وأنها على الأقل تكون سنـادا طبيعيا للخطوة الأولى، والا كان الرجل متصنعا في نصائحه وعظاته، ممثلا لدور الغاضب أو الآسف، بينما هو الراغب الطالب.

الخطوة الثالثة:

«واضربوهن»:

ولكن ينبغي أن يعلم أيضا أن أسلوب الهجران الزوجي لا يمكن أن يستمر

طويلا، فإن له بمقتضى الطبيعة البشرية مدى لا يحتمل الزوجان أكثر منه، فهو إما أن يؤدي الغاية منه سريعا، وأما أن يعلم أنه هو أيضا غير مفيد في تطويع هذا الاباء، وتقويم هذا الاعوجاج، وهنا تأتي الخطوة الثالثة، لأن الخلاف قد انتقل من طور البوادر الأولى، وامتحن بالخطوة الثانية فأسفر الامتحان عن ثباته وتمكنه، وأنه يوشك أن يعصف بالزوجية، وأن يجر إلى مشكلات الفرقة والشتات، وقد يكون في هذه الأسرة أولاد، وقد تحدث خصومات تجر إلى خصومات، وكوارث تجر إلى كوارث، وهكذا كما هو شأن الطلاق الذي هو عند الله أبغض الحلال، لما يحمله الناس من أثقال.

رد على وهم:

وهذه الخطوة الثالثة هي تأديب المرأة بالضرب، وبعض المولعين بنقد الاسلام يستفظعون هذا اللون من العقوبة، ويعتبرونه توحشا، ويقولون انه انما يصلح للقرون الأولى، لا لعصور المدنية والحضارة، ولكنهم في هذا النقد غير منصفين، وقد أثرت عليهم فيه عوامل خاصة بالبيئة التي طغى فيها النساء حتى أصبحن هن الحاكمات على الرجال، والمتحكمات في شؤون الأسرة، فقد درج هؤلاء على المبالغة في تدليل المرأة، واسباغ ألوان الاحترام عليها، حتى أفسدوا ذوقها وأذواق من يتصلون بها، فإن لكل شيء حدا، والاسلام لا ينكر على المرأة كرامتها، ولكنه يقف بها عند حدها الذي رسمه لها ملاحظا فيه دورها في المجتمع، ووظيفتها التي تتناسب وطبيعتها وحاجة الناس اليها، وهذا الدور يقتضي أن تكون تحت قوامة الزوج، لما بيناه من أن ذلك هو الموافق للطبيعة، ولما اكتسب كل من الرجل والمرأة من صفات خلقية وخلقية، فهل ترى الاسلام يقرر ذلك ويجعله مبدأ من مبادئه، ويرتب عليه سائر احكامه، ثم لا يحيطه بما يكفل تنفيذه واستقراره والخضوع له؟ وهل تراه يترك المرأة تنساق على هذا النحو الذي وصفناه في المراحل الثلاث، الى افساد زوجية، وتشريد أبناء وبنات، وتحطيم قلب، وتخريب بيت، وجر لألوان من المشكلات، كل ذلك في سبيل أن نعفيها من لطمة أو صفعة من زوجها؟ وأي ذلك أخف على المجتمع ضررا،

بل عليها هي وعلى زوجها وأولادها: أحدوث ذلك كله، أم الحيلولة دونه بهذا اللون من التأديب؟

ثم ان هذا الضرب المأذون فيه، انما هو الضرب الخفيف، فقد وصفته السنة بأنه «غير مبرح»، وقد ألف الناس أن يؤدبوا بمثله أبناءهم وبناتهم، صغارا وكبارا، فلا يكون ذلك وحشية ولا اهانة، وإنما هم صوروه كذلك لأنه ضخموه، ثم نقدوه لأنهم ضخموا احساس المرأة به، ولو رجعوا الى الطبيعة لدلتهم على أن تمتع من له الرياسة بلون يكون له حق العقوبة به حين لا يجدي غيره، ويصلح به ما يخشى فساده، هو أمر ضروري لمصلحة الرئيس والمرؤوس كليهما، ففي بعض الاحيان يجب علينا أن نحمي آباءنا وأحبابنا من أنفسهم ومن مصير سيء ينتظرهم، وهم عنه غافلون.

وما هذا النقد وأمثاله الا انسياق مع الاوهام، ومحاولة يقصد بها بعض الناس أن يثبتوا لأنفسهم صفات التهذيب والتمدن، ولو على حساب الطبيعة والواقع وما تصلح عليه الحياة.

* * *

هذه هي الخطوات الثلاث التي يخطوها الأزواج في اصلاح الزوجات اللاتي يخافون نشوزهن.

وقد أرشدت الآية الكريمة، الى أنه لا يجوز أن ينتقل من خطوة الى خطوة الا اذا لم تنجح الخطوة السابقة، وذلك هو قوله تعالى بعد ذكر هذه الخطوات: ﴿**فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا**﴾، ومعنى ذلك ان المرأة إذا فاءت بالنصح والوعظ الى رشدها، وأخذت في طريق الطاعة والتزام الوضع الزوجي الذي وضعه الله، فإنه لا يجوز للزوج أن يبغي السبيل الثانية، أو يقفز الى السبيل الثالثة، وإلا كان ظالما متجنيا متعرضا لعقوبة الله اذا ظهر انه أساء استعمال هذه السلطة، التي جعلها في يده للاصلاح بالمعروف، لا للتحكم، ولا للاذلال.

وما أبلغ ما ذيلت الآية به في ذلك حيث تقول: ﴿**ان الله كان عليا كبيرا**﴾

أي فهو أعلى منكم سلطانا وأكبر قدرة، فلو تجاوزتم حدودكم في من تحت أيديكم، فان الله اقدر على عقوبتكم، وسلطانه أعلى من سلطانكم.

(ب) نشوز الرجل وكيف يعالج:

وهذه هي «الحالة الثانية» من أحوال الخلاف بين الزوجين، وقد جاءت هذه الحالة وعلاجها في قوله تعالى:

﴿وإن امـرأة خافت من بعلهـا نشوزا أو إعراضا، فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا، والصلح خير، وأحضرت الأنفس الشح، وإن تحسنوا وتتقوا فان الله كان بما تعملون خبيرا، ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء، ولو حرصتم، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة، وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما. وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته، وكان الله واسعا حكيما﴾[1].

١ - تقدم تفسير النشوز، وهو بمعناه الذي ذكر في المرأة مقصود هنا، فقد يجنح الرجل الى لون من ألوان الترفع على المرأة والاستكبار، وقد عطف على هذا شيء آخر هو الاعراض، وهو ميل الرجل عن المرأة، لا لتكبر منه أو ترفع، ولكن لسبب آخر، قد يكون كراهية لها مبعث طبيعي يرجع الى نقص فيها، وقد يكـون ذلك راجعـا الى الزوج نفســه، واعتلال ذوقه، وعدم اتفاق أخلاقه مع أخلاقها، فليست المرأة دائما هي العلة في عدم التوافق بل قد يرجع ذلك الى الرجل.

فإن امرأة خافت من بعلها أحد هذين، أي توقعته، وبدرت البوادر الدالة عليه، فلا جناح عليهما أن يتفاهما فيتصالحا على وجه من الوجوه، ومعنى ذلك ان الله تعالى يريد من الزوجين أن يحاولا حل مشكلتهما بنفسهما دون أن يدخلا بينهمـا أحـدا، فإن ذلك أقرب الى أن يصلا الى هذا الحل لو اتجها الى سر الكـراهيـة اتجاها مباشرا، وكان الاخلاص لهما رائدا، فإذا لم توصلهما هذه الخـطوة الى حل المشكلة، فليس في الكـلام ما يمنع من أن يستعينا ببعض أقاربهما أو أصدقائهما، لأن الآية تقول: **﴿فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما**

---

(١) الآيات من ١٢٨ الى ١٣٠ من سورة النساء.

صلحا﴾ وفي قراءة: ﴿أن يصالحا﴾ أي يتصالحا، وإحداث الصلح أو التصالح يكون بإحدى الطريقتين، إما بالتفاهم المباشر، وإما بتوسيط من يعينهما على ذلك.

وهـذا الصلح أو التصالح يكون بأن يتنازل أو يتقدم أحدهما لصاحبه بما يرضيه عن طيب نفس، فقد يرضي المرأة أن يحتفظ بها الزوج الذي يكرهها، على أن يقوم بحقوقها المعيشية في بيته، أو في بيت يعده لها خاصة، وترى ذلك خيرا لها من أن تطلق، أو تبتعد عن أولادها، أو تتعرض لكراهية زوجها نشوزا أو إعراضا، فإذا رضيت بذلك فهو حل صالح بشرط أن تكون مطمئنة اليه، عارفة أن ذلك خير لها، وإذن فقد تنازلت هي عن بعض حقها، ورضي الزوج بأن يبقيها ويقوم بجميع نفقاتها مع كونها غير موافقة له.

وقد يتصالحان على الطلاق بعوض، فيعطيها الرجل مالا ومتاعا، أو تتنازل هي له عن شيء من مالها أو من صداقها، فلا جناح عليهما في ذلك إذا تراضيا عليه.

٢ – وفي الآية الأولى، بعد بيان هذا الحكم، إرشاد للزوجين كليهما بأن يؤثـرا الصلح بينهما على وجه من الوجوه، دون أن يترافعا أو يتخاصما، فإن العادة جرت بأن نفور الرجل من المرأة يكون لأسباب ـ في الغالب ـ من النوع الحساس، والتخاصم في مثل هذه الحالة يكون عرضا لأسرار الأمر في صورة صادقة أو كاذبة على القاضي أو من يقوم مقامه، وقد يؤدي الموقف الى كثير من المشكـلات بين أقارب الزوج والزوجة، فربما تعرض الزوج في سبيل عرض مشكلته الى ما يسيء الزوجة في نفسها، ويسيء أقاربها تبعا لذلك، فيغضبون ويفكـرون في الانتقام من الزوج، وربما تعصب للزوج أيضا أقاربه، فيتسع مجال النزاع، ولهذا أرشد الله كلا من الزوجين الى ما هو خير وأولى بهما، وهو التفاهم بينهما والتراضي، فقال: ﴿والصلح خير﴾.

ولعل في هذا ما يوحي بأن الشارع لا ينظر بعين الرضى الى ما يدعو اليه بعض الناس في عصرنا من التزام أن يكون الطلاق أمام القضاء، وألا يأذن به القاضي إلا إذا كانت له أسباب تبرره.

والحق ان هذه دعوة منافية للمصلحة، وانه لو استجيب لها لجرت على

المجتمع كثيرا من الوبال، وحسبنا ان المرأة التي يحكم لزوجها بطلاقها ستكون بعد هذا الحكم منظورا اليها من الناس بنظرات الشك والتظنن فلا تكاد تجد من يقبل عليها من الأزواج.

ولا يصح أن يعترض على ذلك بأن الاسلام يبيح للمرأة أن تطلب الطلاق من زوجها للضرر، وبأنها في سبيل إثبات هذا الضرر كثيرا ما أفاضت وتعرضت لأسرار، وان الأزواج يلاقون من ذلك الشيء الكثير فلا يضرهم ولا يجعل الناس ينظرون اليهم نظرات التظنن أو الاحتقار ـ نقول: لا يصح أن يعترض بذلك، لأن هذا قياس مع الفارق كما يقولون، فإن وضع المرأة في المجتمع يجعل شرفها وأمرها كله عرضة للتأثر السريع، ولا كذلك الرجل.

٣ – ثم حذرتهما الآية من العقبات النفسية التي قد تحول بينهما وبين إتمام هذا الصلح، فالعادة جرت بأن الصلح يحتاج الى تقابل من الطرفين وتلاق في منتصف الطريق، فهذا يضحي بعض التضحية، والآخر يبادله تضحيته بمثلها أو بأكثر منها، ولكن النفوس يحضرها الشح والضن فليس من اليسير أن تبذل أو أن تتنازل، فعلى الزوجين أن يقاوما في نفسيهما هذه الموانع النفسية، وعلى الرجل في ذلك القسط الأوفر، فإنه بحكم وضعه من أول الأمر هو الطرف الباذل، ثم هو الذي نشز أو أعرض أو اتجه الى هذا النشوز أو الاعراض فبدرت منه بوادره، فمن حق الزوجة عليه أن يرضيها، وألا ينسى مكانتها منه، وماضيها معه، ولذلك يقول الله عز وجل: **﴿وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا﴾**.

فالخطاب للأزواج، وهو ترغيب لهم في أن يتناولوا هذا الأمر تناولا حسنا يخفف وقعه على الزوجات، وتحذير لهم من أن يخرجوا فيه عن حدود التقوى والخوف من الله، فيشتدوا حيث لا موجب للشدة، أو يسرفوا في الادعاء على الزوجات، أو يجمدوا عن بذل ما يصلح نفوسهن، ويبعث فيها الرضى والقبول.

٤ – ولما كان أكثر ما يبعث الكراهية نشوزا أو إعراضا في قلب الرجل، هو اتجاهه الى زوجة أخرى، فإن الآية الثانية جاءت بإرشاد مبني على هذا الفرض: ذلك أن من المحال على الرجل أن يعدل بين امرأتين لأن العدل ميزان يقتضي أن يكون هناك تكافؤ تام بين طرفين، فإذا استطاع الرجل أن يحقق هذا

التكافؤ بين الزوجتين في ما بعد من مظاهر السعادة الزوجية، كالنفقة، والكسوة، والمبيت، والبشاشة، وحسن المعاملة ... فانه لا يستطيع أن يحقق هذا التكافؤ، أو هذا التوازن في الميل القلبي والمحبة الزوجية، التي من شأن المرأة أن تحس بها بمقتضى غريزة الانثى، فالله تعالى لا يتحدث عن غير المستطاع، فإنه لا تكليف إلا في حدود الاستطاعة، ولكنه يقرر أولا هذه الطبيعة، ليكون تقريرها تمهيدا لما يأتي بعدها.

ثم ينهى عن أن يميل الرجال كل الميل عن زوجاتهم اذا كرهوهن، فإن ذلك من شأنه أن يجعل المرأة كالمعلقة، فلا هي بزوجة تنال حقوقها الزوجية كاملة، ولا هي بمطلقة تلتمس السعادة الزوجية في تجربة أخرى، ولا شك أن الانسان يستطيع أن يعالج نفسه في هذا الشأن، فيصل إلى تلطيف حدته العاطفية، ويخفي جانباً كبيراً من ميله النفسي وذلك بأن يجبر نقصه العاطفي بالتلطف في المعاشرة، والتحايل بمختلف أساليب الرقة واللباقة، لكيلا يجرح شعور المرأة، فهذا في الحقيقة نهي عن الاسترسال في عاطفة البغض، وعن تغذيتها بما يقويها ويجعل الزوج يميل كل الميل عن زوجته فيؤذيها.

وقد جاء ختام هذه الآية أيضا ترغيبا للرجال في الاصلاح ومحاولة كل ما يؤدي اليه، وتحذيرا من الخروج على أمر الله بالظلم والتمادي في الاساءة، وذلك ما يؤخذ من قوله تعالى: ﴿**وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما**﴾ أي فهو يغفر لكم ما عسى أن يكون من انسياق أحيانا مع دواعي الميل القلبي، إذا كنتم تجاهدون ذلك حسب استطاعتكم، رحمة بكم.

خطأ مشهور:

وبعض الناس يركب من هذه الجملة والجملة التي جاءت في آية التعدد قياسا، فيقول: ان الله تعالى نهى الرجال عن التعدد إذا خافوا العدل، ثم قرر ان العدل بين النساء مستحيل على الرجال، فالنتيجة أن التعدد منهي عنه.

وهذا شبيه بما يسمى في علم المنطق «بالسفسطة» ومثله كمثل أن يشار الى رسم مصور لفرس، ثم يقال: هذا فرس، وكل فرس صاهل، فهذا صاهل.

وإنما جاء الكذب في النتيجة من أن «الفرس» في القضية الصغرى، غير

الفرس في القضية الكبرى، فإن الذي في الورق ليس فرسا، وإنما هو صورة فرس، والذي يصهل ليس من أفراده الذي في الورق، ولكن الذي في الخارج، حيوانا متحركا ذا حياة.

وكذلك هنا: فخوف العدل في قوله: ﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾ هو خوف الرجل من عدم القيام بحقوق الزوجات، على سنة التوازن الدقيق، والتكافؤ التام، وهذا إنما يتصور ملاحظته في التكليف إذا فسر العدل في ما يملك الزوج من النفقة وتوابعها، ومن مقاومة الميل التام عن احدى الزوجتين لتلطيف حدته، وإلا كان ادخاله في نطاق التكليف واشتراطه في إباحة الحكم عبثا ـ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ـ أما العدل في قوله جل شأنه: ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم﴾، فهو المساواة في الميل القلبي والحب، أي توزيع العاطفة القلبية على الزوجات بالقسطاس المستقيم، وذلك هو المحال المنفي بحرف «لن» والدليل على ذلك أنه أتبع بقوله تعالى: ﴿فلا تميلوا كل الميل﴾ أي لا أكلفكم العدل المطلق في ذلك فهو محال، وليس من شأني أن أكلفكم محالا: ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾[1] ولكن أكلفكم ما هو في وسعكم، وذلك هو عدم الاسترسال في الميل وتغذيته بما يقويه ويجعله ميلا تاما، وبهذا يتبين أن العدل المشترط هو العدل في ما يملك الرجال، وأن العدل المنفي هو العدل الذي لا يستطاع.

وإنما أوضحنا هذا مع اشتهاره في كتب التفسير، ومع دلالة الروايات المروية في أسباب النزول عليه، لأننا أردنا أن يعلمه الذين تعودوا أن يثيروا هذا الاحتجاج ممن لا يقرأون كتب التفسير، ولا يتيسر لهم فهم أسلوبها.

٥ – وقد جاءت الآية الثالثة بعد ذلك بالخطوة الأخيرة، حين يتعذر الصلح، ولا يكون هناك إلا التفرق بين الزوجين، والتماس كل منهما حياة أهدأ، في ظل زوجية جديدة، وهذا هو قوله تعالى: ﴿وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما﴾.

ومما ينبغي الالتفات اليه أن سورة «النساء» في هذا كله، وفي غيره من أحكام الزوجية، لم تذكر الانفصال الزوجي إلا في هذه الآية، وهي آخر آية

---

(١) الآية ٢٨٦ من سورة البقرة.

عرضت فيها السورة لشأن زوجي، ثم هي لم تذكر طريقة الطلاق، ولا أحكامه وتفاصيله، كما جاء في سورة البقرة مثلا، وذلك لأنها السورة التي تبني نظام المجتمع، فهي تشرع كل ما يتصل بهذا البناء، أما إذا انتهى الأمر الى أن يتفرق كل من الزوجين عن صاحبه، فهذا ما تمر به السورة مرا وما تقرنه بفتح باب الأمل في أن يغني الله كلا من سعته، حتى لا يتحطم فرد من المجتمع لهذه المصيبة إذا نزلت به، وحتى يدرك من يقع له ذلك، ان هذا هو مصلحته، وفيه الخير المرجو له، فإن الرجاء في استقبال حياة جديدة، خير من العيش في حياة كلها كراهية ونزاع، ولذلك تذكر الآية في ختامها ما يبعث الأمل، وهو وصفه تعالى بأنه كان ـ ومايزال ـ «**واسعا**»، وتذكر أيضا ما يدل على أن الافتراق في مثل هذه الحالة هو عين الحكمة، وذلك هو وصفه تعالى بقوله «**حكيما**».

وإذن فهذا أيضا بناء في المجتمع أو هو عصمة من أن تنهار نفوس هي لبنات في بناء المجتمع، أما تفاصيل هذا الافتراق وأساليبه وأحكامه التشريعية، فقد تركته سورة «النساء» لغيرها.

(جـ) حالة الشقاق بين الزوجين:

وتلك هي الحالة الثالثة من حالات الخلاف بين الزوجين، وقد جاء حكمها في قوله تعالى:

﴿وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها، إن يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما، ان الله كان عليما خبيرا﴾[1].

قد تقدم ان الحالة الاولى هي حالة الخوف من نشوز الزوجة، وان الحالة الثانية هي حالة الخوف من نشوز الزوج أو اعراضه، وان التشريع لهاتين الحالتين انبنى على اعتبار كل منهما مشكلة تحل عن طريق أحد الزوجين وما يتوسل به الى اصلاح الآخر من تأديب أو تصالح، أما هذه الحالة فهي حالة الشقاق الذي يخاف أن يكون بين الزوجين، على المعنى الذي ذكرناه في نظيريه، من أن المراد بالخوف توقع الحصول بسبب ما يبدر من بوادر تؤذن

---

(١) الآية ٣٥ من سورة النساء.

بذلك، وقد جاء التعبير عن هذا الخلاف بأسلوب اضافة الشقاق الى «**بينهما**» وذلك قوله تعالى: «**شقاق بينهما**»، فقد أضيف الشقاق الى الظرف، وقالوا انه بما معنى: شقاقا بينهما، أو بمعنى أن البين جعل كأنه يحدث منه مشاقة.

والتفسير الثاني هو الأقوى، لأنه يريد أن يقول: ان خفتم شقاقا ما فابعثوا حكما ... الخ فإن الشقاق اليسير يترك للزوجين ولا يحتاج الأمر فيه الى بعث حكمين، وإنما المراد هو خوف أن يصبح الشقاق هو قاعدة التعامل بين الزوجين، وهذا يفيده جعل البين نفسه مصدرا للشقاق، كأن مجرد النسبة القائمة بينهما أصبح هو بذاته مثار الشقاق والنزاع، وهذا موقف إن دلت الدلائل على أنه قريب الوقوع، كان على الأمة أو على ولاة الأمر فيها، أن يتداركوه قبل أن يكون، وأن يعالجوه بأن يبعثوا حكما من أهل الزوج، وحكما من أهل الزوجة، كي يدرسا أمر الزوجين، والصعاب التي توشك أن تعصف بما بينهما، ويحاولا تذليلها، وإصلاح ذات البين إن أمكنهما ذلك، وإنما جعل الحكمان من أهلهما لأن أهل الزوج والزوجة هم أقرب الناس اليهما، والأمر في نجاح هذه الزوجية أو فشلها، ذو أثر فيهم على نحو ما، وهم أدنى الى الاخلاص في حل مشكلة الزوجين، وكل طرف منهما يمثل واحدا من الزوجين، ويتحدث باسمه دون أن يكون الحديث صادرا من الزوجين، ففي ذلك ابتعاد عن أسباب التوتر والمراء والمعاتبة التي قد تفسد مشروع الصلح إذا خرجت عن حدها، وكثيرا ما تخرج.

وهذه الصورة من صور الخلاف، تأتي في المرتبة الوجودية عادة بعد حالة نشوز المرأة، واستنفاد كل الوسائل من الرجل في سبيل إصلاحها، ومعنى ذلك أن كل العقوبات لم تفد تقويم النشوز، وان الأمر بعد ذلك قد دخل في دور عناد وشقاق، كما جاء في آية أخرى تقول: ﴿**فإن خفتم ألا يقيما حدود الله**﴾(1) وعدم إقامة الزوجين حدود الله، تبدو في إخراجهما الزوجية عن كونها مودة ورحمة وسكنا، على ما جاء في قوله تعالى: ﴿**ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها، وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك آيات لقوم يتفكرون**﴾(2).

---

(1) الآية ٢٢٩ من سورة البقرة.

(2) الآية ٢١ من سورة الروم.

ولهـذا جاءت بهـا السـورة بعد حالة نشوز المرأة، وبعد بيان خطوات العلاج، فهي تفرض أن هذا كله لم ينجع، وأن الأمر صائر الى شقاق ذات البين.

هذا وقد بينا في «الآيات الموجهة» ما يدل على قوله تعالى: **﴿إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما﴾** من توجيه عملي واعتقادي، فارجع اليه[1].

المحرمات من النساء وبيان الحكمة في تحريمهن:

٣ – وكما انفردت سورة «النساء» بكثير من أحكام المجتمع، ولا سيما أحكام الأسرة والزوجية، على ما بينا، انفردت ببيان أمر هام له صلته الوثيقة بطبيعة الحياة الزوجية، وما يجب من توفير أسباب القرار والتوطد لها، وإبعاد الأوضاع التي من شأنها أن تتعارض معها، وذلك هو ما جاءت به من بيان مفصل للمحرمات من النساء:

١ – ابتدأ هذا البيان بالنهي عن نكاح ما نكح الآباء على ما كان يفعله أهل الجاهلية، وذلك قوله تعالى:

﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف، إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا﴾[2].

وقد وصف الله هذا النكاح بأوصاف ثلاثة، وفي ذلك يقول الإمام الرازي في تفسيره لهذه الآية:

«مراتب القبح ثلاث: القبح العقلي، والقبح الشرعي، والقبح العادي، وقد وصف الله سبحانه هذا النكاح بكل ذلك، فقوله سبحانه: «**فاحشة**» اشارة الى مرتبة قبحه العقلي، وقوله تعالى: «**ومقتا**» اشارة الى مرتبة قبحه الشرعي، وقوله «**وساء سبيلا**» اشارة الى مرتبة قبحه العادي»

ولا شك ان توارد رجل وابنه على امرأة واحدة، أمر ممقوت تنفر منه الفطر المستقيمة، وتمجه الأذواق السليمة، وفيه مع ذلك إخلال بما ينبغي من احترام ذكرى الآباء، وإشعار للمرأة بأنها كالمتاع الذي ينتقل بالميراث من الوالد الى

---

(١) ص ٩٣ من هذا الكتاب.

(٢) الآية ٢٣ من سورة النساء.

ولده، وبأن هذه الزوجية الجديدة لم تقم عن رغبة وقصد، وإنما هي عن مصادفة ليس لأحد الزوجين دخل فيها، فكل ذلك من شأنه أن يجعل هذا الاقتران كريها فاحشا، وأن تكون سبيله سبيلا سيئة لا تنتهي الى خير في المعيشة الزوجية، ولا في السلالة والذرية.

وقد دلت الروايات التي رويت في ذلك على أن تزوج الابناء ما نكح آباؤهم كان معروفا مألوفا عند العرب، وأن هذه السيرة كانت في الأنصار، كما كانت في قريش، وذكروا بعض من تزوجوا بنساء آبائهم، ومنهم عمرو بن أمية، فقد تزوج امرأة أبيه بعد موته، فولدت له ولدين هما «مسافر» و «أبو معيط»، وكان لها من أمية ـ زوجها الذي مات ـ أولاد، منهم «أبو العيص» فكان بنو أمية أخوة مسافر وأبي معيط، وأعمامهما في وقت واحد، وقد ذكر القرطبي هذا في تفسيره للآية وعد أحوالا مشابهة من هذا النكاح، وذكر انه استمر حتى نزل التحريم في هذه السورة[1].

وقوله تعالى: ﴿إلا ما قد سلف﴾ استثناء يراد به أن يطمئن الذين فعلوا ذلك من قبل على انهم غير مؤاخذين بما فعلوا، وفيه إيحاء بأنه كان ينبغي أن يجتنب لكونه فاحشة تدركها العقول، وتنفر منها النفوس الكريمة، لولا ان الله تعالى لا يؤاخذ الناس إلا بعد التكليف والتشريع.

٢ – ثم جاءت السورة ببقية المحرمات في قوله تعالى:

﴿حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم، وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن، فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم، وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم، وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف، ان الله كان غفورا رحيما. والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم﴾[2].

وقد تكفلت كتب الفقه والتفسير ببيان المحرمات تفصيلا، وما يدل عليه

---

(١) ص ١٠٤ ج ٥ من تفسير القرطبي.

(٢) الآيتان ٢٣، ٢٤ من سورة النساء.

النص منها وما يلحق به استنباطا أو بالسنة، فلا نطيل بذكره، غير أن هنا أمرين ينبغي أن ننبه اليهما:

أحـدهمـا: ان سر هذا التحـريم يرجع إجمالا الى أن للزوجية أحكاما ومقتضيات تنافي ما لهذه القرابات والصلات من أحكام ومقتضيات، فلو أبيح نكاح هؤلاء النساء لاصطدمت الحقوق المتعارضة، واللوازم المتنافرة، على وجه يقلق البيوت والمجتمعات، ويؤدي الى قطع ما أمر الله به من الصلات.

فالأم مثـلا لهـا حقـوق على ولدهـا: أن يحسن اليهـا، ويبالغ في برها وإكرامها، فإذا اتخذها زوجة له، كان عليها هي أن تخضع له وأن تتقبل قوامته عليها كما هو شأن الزوجة مع الزوج، وإذا خاف منها نشوزا، فإن له أن يقومها بمـا شرع الله له، ومنه الضرب إذا لم يصلحها ما قبله من العقوبات، فكيف يضرب الولد أمه، وكيف يسيء اليها وهي التي حملته وهنا على وهن، وأوصاه الله ورسوله بإكرامها وبرها، هذا الى ما هو غني عن البيان من نفور الانسان من هذا اللون من المتاع، فهي بهيمية أية بهيمية أن يتمتع الرجل بأمه، ومثل هذا يقال في دجـات القرابة الأخرى، فالخالة لها ما للأم، والعمة لها ما للأب، والأخت وبنتها، وبنت الأخ، وابنة الانسان التي هي قطعة منه، كل هؤلاء تستقبح الأذواق نكاحهن وافتراشهن، ولا يمكن أن يتصور في هذا الوضع لو أبيح إلا المفارقات والصعاب وضعف النسل، وسوء المنقلب.

ومثل هذا أيضا يقال في نكاح من حرمن من جهة الرضاع، فإن المرضع أم في الكـرامة ولها حق الأم في وجوب الرعاية، وليس من شأن الانسان أن يلتمس منها ما يلتمسه الرجل بالزوجية.

وهكذا يقال في الأخت الرضاعية التي اشتركت مع أخيها في ثدي امرأة واحدة، فمن المناسب أن تعامل معاملة الأخت من النسب.

ولا يخفى كذلك ما في تحـريم التـزوج من الربيبة التي عوملت معاملة البنت،وما في تحريم التزوج من أم الزوجة، وما في تحريم الجمع بين الأختين، وما في تحريم حلائل الابناء الذين من الأصلاب، فسر ذلك التحريم هو صيانة العلاقات من أن تفسد، فكيف نتصور أن يجمع الرجل بين أخت وأختها، أو بين أم وابنتها مع ان المرأة عادة تغار حتى من الغريبة عنها، ولو ان ذلك أبيح للرجل

لتشككت المرأة في أختها، وفي أمها، ولأدركها نوع من الغيرة الشديدة فانقطعت بذلك صلاتها من النسب، وتعرضت بذلك الأسر الى خطر شديد.

ثم كيف نتصور أن يباح للرجل أن يتزوج بحليلة ابنه، وهل ذلك إلا كتزوج الابن بزوجة أبيه، إن في كليهما لخطرا على العلاقة بين الابن والأب، ليس من الحكمة تعريض المجتمع له.

الثاني: ان الله تعالى يقول: **﴿والمحصنات من النساء إلا ما ملكت ايمانكم﴾** والمراد تحريم النساء ذوات الأزواج، فإن المحصنة تطلق بمعنى العفيفة، والحرة، والمتزوجة، وكل ذلك لمناعتها. فالتعبير كأنه مأخوذ من الحصن وهو المكان المنيع، ولا يمكن حمله على العفيفات هنا، لأنه حينئذ يكون تحريما لأن يتزوج الرجل من المرأة العفيفة، ولا يمكن كذلك أن يحمل على الحرائر، فلم يبق إلا أن يحمل على المعنى الثالث، وهو المتزوجات، وقد استثنى الله تعالى من هذا الحكم صنفا هو ما ذكره بقوله: «**إلا ما ملكت ايمانكم**» وقد فسر هذا بتفسيرات أحقها بالقبول رأي الجمهور، وهو ان المراد بهن السبايا اللاتي كان المسلمون يأخذوهن في الحرب، ويرون تزوجهن فقد أقرت الآية ذلك، واعتبرت زوجيتهن السابقة على السبي منحلة، وقد اختلف العلماء: هل ذلك عام في السبايا ولو سبي معهن أزواجهن، أو هو خاص بمن سبيت من النساء دون زوجها، على انه ليس في هذا ما يمنع من أن يرد المسلمون السبايا إذا رأوا مصلحة في ذلك، وأن يعاهدوا محاربيهم عليه، كما انه ليس في الكلام ما يدل على أكثر من اقرار هذا الفعل على ما كانوا يفعلونه، وقد تقدم بيان أسلوب القرآن في ذلك[1].

الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها:

٤ - وجاء في السورة بعد ذلك من الآيات المقررة لأحكام الزوجية قوله تعالى:

﴿وأحل لكم ما وراء ذلك أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين، فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة، ولا جناح عليكم فيما تراضيتم

(١) راجع ص ١٤٧ من هذا الكتاب.

به من بعد الفريضة، ان الله كان عليما حكيما. ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات، والله أعلم بإيمانكم، بعضكم من بعض، فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعـروف، محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان، فإذا أحصن فان أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب، وذلك لمن خشي العنت منكم، وإن تصبروا خير لكم، والله غفور رحيم﴾[1].

١ – وقد وقع بين المذاهب خلاف هام في موضعين من الآية الأولى من هاتين الآيتين:

أحدهما: قوله تعالى: ﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم﴾، حيث اختلف الشيعة الإمامية مع السنة في تحريم نكاح المرأة على عمتها أو خالتها، فقالت الشيعة بإباحته لأن الله تعالى ذكر المحرمات تفصيلا، ولم يذكر منها ذلك، ثم أتى بإباحة عامة لما وراء ما ذكر، فدخل في هذه الاباحة زواج المرأة على عمتها أو خالتها، وقالت السنة: ثبت ذلك في المروي الصحيح عن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال: «**لا يجمع بين المرأة وعمتها، ولا بين المرأة وخالتها**»، قالوا: وما ثبت بالسنة كما ثبت بالكتاب.

وقال بعضهم: بل هذا التحريم متلقى من الآية نفسها لأن الله تعالى حرم الجمع بين الأختين، والجمع بين المرأة وعمتها، أو بين المرأة وخالتها، في معنى الجمع بين الأختين.

ولا شك ان العلة التي قضت بتحـريم الجمع بين الأختين هي تعريض الصلة الأخـوية لما لا تحتمله من المضارة، وهذا يوجد أيضا في الصلة بين العمة وابنة أخيها، والخالة وابنة اختها، وقد اعتبرت الآية صلة الخالة وصلة العمة في حرمة التزوج، وفي ذلك اشارة الى اعتبارهما في الجمع.

نكاح المتعة:

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن

---

(١) الآيتان ٢٤، ٢٥ من سورة النساء.

فريضة﴾ حيث اختلف السنة مع الشيعة في أن في الآية دليلا على حل نكاح المتعة وهو النكاح الى أجل مؤقت، وهل نسخ ذلك أو لم ينسخ، والمسألة مما وقع فيه الاختلاف بين الطائفتين، بل بين الصحابة أنفسهم، وقد اشتهر ان عمر بن الخطاب نهى الناس عن المتعة في خلافته، فانتهوا، فتمسك السنة بذلك وقالوا: إجماع من الصحابة على قبول هذا النهي من عمر، ولو عرفوا انها مباحة لما وافقوه على تحريمها، وتمسك به الشيعة فقالوا: ان عمر قال ـ كما في الرواية المشهورة عنه ـ : «متعتان كانتا على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما: متعة الحج، ومتعة النساء». قالوا: فأضاف النهي الى نفسه لضرب من الرأي، فلو كان رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ نهى عنهما، أو أباحهما في وقت مخصوص دون غيره، لأضاف عمر التحريم الى رسول الله دون نفسه.

وفي الموضوع جدال، بل نضال كبير بين الطائفتين، وهناك قدر متفق عليه، وهو أن ذلك كان مباحا، وعمله بعض الصحابة على عهد النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ولكن الخلاف الذي بقي هو: هل نسخ الحكم على عهد الرسول أو لم ينسخ؟

أما الآية فهي بالاتفاق محتملة، وكل من الفريقين يقرر ان ظاهرها مؤيد لما يقول به.

الزواج والبيئة الصالحة:

٢ – والآية الثانية من هاتين الآيتين تقرر حكم الزواج من الفتيات المملوكات لمن لم يستطع للمحصنات أي الحرائر طولا، وليس بيننا الآن فتيات مملوكات، ولكن في هذا ارشاد للأزواج أن يختاروا زوجاتهم ممن عرفن بالعفة والحصانة، وقد كان المعروف في العرب أن وسط الفتيات، أي الإماء، ليس هو وسط التحصن والتعفف في العادة التي كانوا عليها، بل كان من الفتيات من تخادن، أي تتخذ لها خدنا ـ أي صاحبا ـ يتمتع بها سرا، ومنهن من تسافح الرجال ويسافحونها، ومنهن من كن يحترفن البغاء، فاشترط الله تعالى في الزواج من الإماء شروطا، يراد بها تحقيق مصلحة الزوج في أن يختار مؤمنة ذات

حصـانـة وعفاف، وليست من المسافحات أو المتخذات الأخدان أي الأخلاء العشقاء، ومراعاة حق سيدها في الاذن، وحقها في المهر، وجعل ذلك رخصة لمن خشي العنت، أي خاف على نفسه الضرر الشديد إذا لم يتزوج منهن، ومن ذلك أن يخشى على نفسه من الزنا بها أو بغيرها، وقد بين الله تعالى مع كل هذه الشروط أن الصبر ومقاومة الرغبة في ذلك خير من التعرض لمثل هذه الزوجية.

ولهذا ايحاؤه وتوجيهه لشباب المجتمع، فان الله تعالى يرشدنا بذلك الى ان نختـار الزوجـات من البيئـات الصالحة التي تغلب فيها العفة والحصانة، وألا ننسى الاحتياط والحذر، اذا اضطررنا الى ان نتزوج من بيئات يغلب عليها التحلل وعدم الحفاظ، حتى لا نندفع دون تبصر.

وفي هذا أيضا توجيه للنساء أن يتكملن، وأن يعتصمن بأخلاق الشرف والتصون والعفة.

٧

قاعدة التعامل المالي

يقول الله تعالى في سورة «النساء»:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل، إلا ان تكون تجارة عن تراض منكم﴾[1].

وكلامنا في هذه الآية يرجع الى ما يأتي:

التعامل المالي شأن أساسي:

١ - ان التعامل المالي شأن أساسي من شؤون المجتمع، فلا يمكننا أن نتصور مجتمعا لا تبادل فيه ولا تعامل، لأن الانسان ـ كما يقولون ـ مدني بالطبع، واحتياجه الى غيره نتيجة حتمية لنقصه، فهو يكمل هذا النقص بالتعاون مع الآخرين، وما التبادل إلا أسلوب من أساليب التعاون، ولو تصورنا بطلان التعاون والتبادل، لكان كل فرد من أفراد المجتمع كأنه يعيش وحده في فلاة من الأرض، أو جبل منقطع، ولكان عليه أن يقوم بنفسه بقضاء جميع حاجاته، ولا يمكن أن يتسع وقته، ولا أن تحيط قدرته، ولا أن تتنوع مواهبه، الى الحد

---

(١) الآية ٢٩ من سورة النساء.

الذي يجعله قائما بذلك على الوجه الذي يحفظ حياته، فضلا عن الوجه الذي يحقق سعادته.

الاباحة الاصلية وقانون «الاستيلاء»:

٢ - والأصل في الموجودات انها ملك عام لا يختص به أحد، فهي مخلوقة للناس، مسخرة لهم، وفي ذلك يقول الله عز وجل: **﴿خلق لكم ما في الارض جميعا﴾**[١] **﴿والأنعام خلقها لكم﴾**[٢] **﴿أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون. ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات﴾**[٣] **﴿وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه﴾**[٤].

فقد عمم الله فيمن يملك فقال «**لكم**» مخاطبا كل الناس، وعمم فيما يملك فقال: «**ما في الأرض**» «**وما ذرأ لكم في الأرض**».

لكن الناس لو تركوا وأنفسهم، فحاز كل منهم ما يشاء دون قانون حاكم، لتفانوا أو اضطربوا اضطرابا شديدا، فكل من استطاع أن يحوز شيئا بقوته الجسمية، أو بما وهب من سعة حيلة، فإنه يحوزه ويغلب عليه، ويستبد به دون ضابط، ولهذا كان من ألزم الاشياء للمجتمع أن يكون له قانون عام ينضبط به «**الاستيلاء**» الذي يسمى بعد استقرار أمره «**بالملك**» أو «**الاختصاص**».

وهذا القانون إما أن يبنى على السبق في الحوز، فمن سبق الى شيء حازه ـ وهو قانون طبيعي، لكنه إنما يصلح حين تكون الأشياء ساذجة كأرض في فلاة، أو طير في بحيرة، أو وحوش أو ظباء أو نحو ذلك، مما لا تزاحم ولا تسابق عليه، أو عليه تسابق في حدود لا تؤدي الى نزاع أو فساد ـ وإما أن

---

(٥) الآية ٢٩ من سورة البقرة.
(٢) الآية ٥ من سورة النحل.
(٣) الآيتان ١٠، ١١ من سورة النحل.
(٤) الآية ١٣ من سورة النحل.

يبنى على مقابل يبذله من يريد الاختصاص به، من مال يدفعه، أو جهد يقوم به، كصنعة الصانع أو عمل الأجير.

الصناعة والتجارة:

ومن الواضح ان صنعة الصانع مادام قادرا عليها، ومادام المجتمع في حاجة اليها، من شأنها أن تدر على صاحبها ربحا في صورة ما، يستطيع أن يتخذه مقابلا للمبادلة عليه، وقضاء حاجاته بواسطته، فالصانع من شأنه أن يحول بصنعته ما لا قيمة له، الى شيء له قيمة، أو ما له قيمة صغيرة الى ما له قيمة أكبر منها، واعتماده في هذا على صنعته ومواهبه، وقد يحتاج الى ما يعينه من آلة، أو أيد مساعدة، فيحتاج الى مال يسخره في ذلك.

وعلى هذا فصنعة الصانع قد تكون جهدا صرفا، وقد تكون جهدا مؤيدا بمال.

أما التجارة فإنها مزيج من المال والعمل معا، فلا تكون مالاً قط، وإلا كانت احتكارا، ولا تكون عملا فقط وإلا كانت صناعة أو إجارة.

وقد عرفت التجارة في اللغة بأنها التصرف في رأس المال طلبا للربح، وهي قائمة على اللباقة والحذق، ولذلك يذكر ابن الاعرابي اللغوي انه يقال: فلان تاجر بكذا، أي حاذق به، عارف الوجه المكتسب منه[1].

والتصرف في رأس المال بالتجارة يكون على وجوه، منها أن صاحب المال يسافر، أو يجتلب الاشياء من مواطنها، أو يستصنعها لدى الصناع، أو نحو ذلك، وينفق في سبيل هذا الاجتلاب أو هذا الاستصناع بعض ماله، وبعض جهده، وبعض حيلته وتدبيره، حتى إذا بادل غيره بما اجتلب أو استصنع، توافر له فرق هو ما نسميه ربحا وكسبا، فينمو هذا الفرق على حسب النشاط، أو يضعف بضعفه.

الاسلام يقيم التعامل المالي على أساس التقابل الطبيعي:

٣ – وقد عنيت سورة «النساء» بوضع قاعدة «التعامل المالي» على

---

(١) مفردات الراغب، مادة «تجارة».

أساس التقابل الطبيعي بين ما يأخذ الفرد وما يعطي، سواء أكان هذا التقابل عن طريق جهد صرف ـ وهو محض الصناعة أو الاجارة ـ أم عن طريق جهد ومال متعاونين ـ وهو التجارة المالية أو الاستصناع.

وجاءت هذه القاعدة في عبارة موجزة، شأن القواعد العامة المتركزة، حتى انها لم تتجاوز بعض آية من الآيات القصيرة في هذه السورة، وذلك هو ما صدرنا به هذا الفصل من قوله جل شأنه: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم﴾**.

ولكي ندرك هذه القاعدة ونعرف مدى عمومها وطبيعتها وما فيها من تيسير على المجتمع، وتحقيق للصلاح والعدل فيه، يحسن بنا أن نعرف النقط الآتية:

١ ـ عبرت الآية عن الأخذ والامتلاك بالأكل، فقالت: **﴿لا تأكلوا أموالكم﴾** والسر في هذا أن الأكل هو العلة الطبيعية الأولى للامتلاك والحوز، وهو أهم ما يقصد إليه الحي من الأشياء، إما مباشرة، وأما بالواسطة، فكل شيء يملك، فإنما يملك ليؤكل أو ليؤدي إلى ما يؤكل، ولم ينظر في هذا إلى ما يلبس أو يسكن مثلا، اعتدادا بأهم الحاجات الحيوية، وهي الأكل.

أموال الأفراد ذات اعتبار عام:

٢ ـ والتعبير في هذه الآية مؤذن بأن الأموال لها اعتبار عام في نظر المشرع، وذلك هو الوضع الطبيعي الذي تحدثنا عنه حين قلنا أن الأصل في الموجودات أنها للناس جميعا، واستشهدنا على ذلك بمثل قوله تعالى: **﴿خلق لكم ما في الأرض جميعا﴾**.

وهذا الاعتبار من شأنه أن يبقي هذا الطابع العام للموجودات، وأن يخرجها من الدائرة الخاصة إلى الدائرة العامة، فلا يقال: أن هذه أموال خاصة بأهلها وهم أصحاب الشأن فيها، ولكن ينظر إليها على أنها ملك للأمة وإن كانت ملكا لأفراد منها.

وهذا يتفق وأصول الاقتصاد السليمة، فإن ثروة الأمة ليست هي فقط ما تملكه الدولة في خزائنها، وما تختص به على وجه من الوجوه، ولكن الثروة

الحقيقية للأمة هي المال العام المتداول بين أفرادها، والمتحرك في مختلف ألوان النشاط والتثمير.

واذا خرجت الأموال عن خصوصها الواقعي، إلى هذا العموم الاعتباري، كان للأمة أن تتدخل في تنظيمها ووضع القواعد التي تصلحها وتحفظها كثروة عامة تجعل الأمة في مقابل غيرها من الأمم، أمة غنية قوية ذات وضع اقتصادي متين، ثم كان للأمة أن تقدر ما يتصل بهذه الأموال وقواعد تثميرها واصلاحها من الضرورات والحاجات مقيسا إلى الأمة نفسها، لا إلى الأفراد فحسب.

والقرآن الكريم يوحي بهذا الاعتبار العام في كثير من نواحي التشريع، فهو يخاطب المجموع لا كل فرد من أفراده، فيقول مثلا: ﴿**ولكم في القصاص حياة**﴾[1] فيخاطب بذلك مجموع الأمة التي يؤدي القصاص إلى تقليل حوادث القتل العمد فيها، فالحياة نسبت للمجموع العام، لا لفرد معين، لأن القصاص اذا نظر إليه نظرة فردية كان نقصا لفرد، واخراجا له من الحياة إلى الموت.

ومثل ذلك يقال في قوله تعالى: ﴿**ولا تقتلوا أنفسكم**﴾[2]، فاذا فسرت الآية بالنهي عن قتل الانسان غيره، فقد جعل ذلك قتلا لأنفس المخاطبين، وذلك انما يصح اذا اعتبرت نفس الفرد نفسا للمجتمع، ويأتي المعنى نفسه اذا فسرت الآية بالنهي عن قتل الانسان نفسه ـ وهو ما نعرفه بالانتحار ـ فإن الله تعالى اذ ينهى الانسان عن قتل نفسه، يعتبر هذه النفس نفسا للمجتمع العام... وهكذا.

٣ ـ والتعبير بالظروف وهو «**بينكم**» في قوله تعالى: ﴿**لا تأكلوا أموالكم بينكم**﴾ ، دال على أن الكلام في الأموال التي تجول وتتحرك في وجوه التثمير، أو التي تتولد من الصناعات أو الجهود، فكل ذلك أموال بين المجتمع، وهي موضوع التشريع في الآية.

ما هو الباطل في قاعدة التعامل:

٤ ـ والباطل ضد الحق، ولما كان الحق هو الثابت المستقل الذي له وجود

---

(١) الآية ١٢٩ من سورة النساء.

(٢) الآية ٢٩ من سورة النساء.

طبيعي فإن الباطل هو ما لا ثبوت له، وما ليس له وجود طبيعي في الواقع، ومن تصاريف هذه المادة قولهم فلان بطال، أي ذو بطالة. فهو لا يقوم بعمل يبذل فيه جهدا، وقولهم: «بطل دمه» اذا قتل ولم يحصل له ثأر ولا دية[1].

فقوله تعالى: ﴿لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ معناه: لا تستحلوا امتلاك الأموال الدائرة فيكم بغير مقابل.

واذن فكل مال من الأموال التي يتعامل عليها الناس فيما بينهم، لا يصح امتلاكه الا بمقابل، فاذا لم يكن له مقابل كان محرما، وهذا يشمل تحريم الربا، والغش، والغصب... الخ، لأنها كلها امتلاكات لا مقابل لها من عمل أو سعي.

على أي معنى استثنيت التجارة:

٥ ـ وقد استثنى الله تعالى من هذا النهي صورة واحدة، فقال: ﴿الا ان تكون تجارة عن تراض منكم﴾ وقد اختلف في هذا الاستثناء، فقيل: هو استثناء منقطع، وعليه أكثر المفسرين، وقيل أنه متصل.

فعلى الأول يكون المعنى: لكن كون الأموال تجارة هو المبيح لأكلها، ولما كان ظاهر هذا أنه تحريم لجميع أنواع المال ما عدا التجارة قالوا: ان الله حرم أولا ما لا يؤخذ من الأموال عامة كالهدية والهبة، ثم نسخ هذا التحريم بما جاء في سورة النور من قوله تعالى: ﴿ليس على الأعمى حرج، ولا على الأعرج حرج، ولا على المريض حرج، ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم﴾[2].

وعلى الثاني يكون المعنى: لا يحل لكم أكل الأموال بغير مقابل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم، فيحل لكم ذلك. وقد فسر هذا بأن التجارة تبادل عوض بعوض، ولا يمكن أن يكون التقابل تاما كاملا فيها، فلا نستطيع أن نحكم

---

(١) مفردات الراغب، مادة «بطل».

(٢) الآية ٦٠ من سورة النور.

بأن هذه السلع ثمنها هو كذا قطعا، بالميزان الدقيق المطابق للواقع، فالشأن أن تزيد السلعة بعض الزيادة على الثمن أو العكس، وكل تجارة فيها هذا الفرق عادة، فهذا الفرق حلال ولا يدخل في التحريم المقرر بالجملة السابقة على الاستثناء.

وقد اختار الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده هذا الوجه الأخير وأيده وأبطل الوجه الأول الذي يقتضي أن جميع الكسب كان محرما أولا ثم نسخ ذلك، وقال: «ان هذا افتراء على الدين لا أصل له، ولا يعقل أن تكون الهبة محرمة في وقت من الأوقات، ولا ما في معناها كاقراء الضيف»[1].

رأي اصلاحي جديد:

٦ ـ وأنا أوافق الأستاذ الامام رضي الله عنه في رفضه القول المؤدي إلى تحريم الهبة ونحوها في وقت ما، وإلى أن الآية منسوخة بما جاء في سورة النور.

ولكني أعرض رأيا في الاستثناء يخالف رأيه بعض المخالفة: وذلك أن الاستثناء متصل كما يقول، فالله تعالى ينهى نهيا عاما عن أكل الأموال بلا مقابل، ثم يستثنى المال الذي يربح من التجارة، فاذا قلنا ـ كما يقول الشيخ محمد عبده ـ ان المقصود ما يكون بين السلعة وثمنها من فرق، وان الله تعالى أتى بالاستثناء ليبيح أكل هذا الفرق، فان هذا ما يتضمن اعتبار هذا الفرق باطلا أي لا مقابل له، وقد بينا من قبل أن التجارة مزيج من المال والعمل، فالثمن الذي يدفع في سلعة ما، بعضه مقابل لرأس المال، وبعضه مقابل للعمل والسعي، وما لصاحب المال من حركة اجتلاب أو استصناع، فكيف اذن يقال أن الربح الذي ربحه التاجر هو في ذاته باطل، أي لا مقابل له، ثم استثنى من الحظر العام عن طريق التسامح والعفو؟

واذن فلا بد أن يكون الحديث في هذا الاستثناء عن مال لا يكون له مقابل من عمل أو سعي، حتى يكون فردا من أفراد الباطل المستثنى منه، وحتى يمكن

---

(١) ص ٤٢ ج ٥ من تفسير المنار.

أن يقال: أنه عفو وترخيص، فما هو هذا المال بعينه في نظري هو الربح الذي يأخذه صاحب المال ممن يعهد اليه بماله ليتجر فيه على سبيل المضاربة ونحوها من الشركات التي تقوم على أساس أن يدفع أحد طرفيها مالا وليس له عمل، ويقوم الطرف الآخر بالعمل، فيكون لصاحب رأس المال جزء من الربح، فهو أخذه في مقابل ماله دون أن يقدم أي عمل وكان حقه أن يمنع لأنه حين أخذ ماله الأصلي قد أخذ جميع حقه، فما زاد عن ذلك فهو باطل أي لا مقابل له، فاستثنى الله في هذه الحالة لأن مدار الاجتماع في العادة قائم عليها، فان في المجتمع من له مال، وليس قادرا على العمل، اما لعجزه، أو لضعف تصرفه، أو لعدم تفرغه، وفي المجتمع من هو قوي على العمل، حسن التصرف، ذو مواهب تجارية أو نحوها، متمكن من التفرغ، والحياة تعاون، ومن أبرز مظاهر التعاون أن ينضم كمال هذا إلى ذاك فيجبر نقصه ويتكون من مجموعهما فرد كامل يستطيع أن يحقق مفهوم التجارة الذي هو مال وعمل معا، وبذلك يفيد كلاهما، ويفيد المجتمع من ورائهما.

وهنا نسأل: هل قيد الله هذا النوع من التعاون الذي هو التجارة وشركة المضاربة ونحوها من الشركات الصناعية بالقيود والشروط التي قيدها بها الفقهاء، واشترطوها فيها؟

والجواب: ان الله تعالى لم يقيد هذا الا بقيد واحد هو قوله جل شأنه ﴿عن تراض منكم﴾ والتراضي معروف واضح، وكل انسان يستطيع أن يقدر مصلحته في نوع التعامل، وهل هو خير له، أو شر، وهل هو راض عنه أو ليس براض، وذلك يشمل الطرفين المتعاملين صاحب المال، وصاحب العمل.

وبذلك يستطيع أهل الفقه والذكر في الشريعة وفي شؤون الاقتصاد أن ينظروا فيما يتخذ أساسا لتعامل بين رأس المال والعمل يتحقق به التراضي ويتعارف عليه الناس في المجتمع، ولو خرجوا عن شروط متشددي الفقهاء التي كان كثير منها تطبيقا لعرف تغير، أو لأدلة لا عموم لها، أو لما فهموه من أن كذا فيه غبن، وكذا فيه غرر، وكذا رخصة يقتصر فيها على ما ورد، إلى غير ذلك مما كانت نتيجته أثقال وجوه التصرفات بالشروط والقيود، واظهار الشريعة بمظهر

العاجز عن مسايرة الأوضاع الاقتصادية التي لا تخرج عن دائرة قوله تعالى: ﴿عن تراض منكم﴾.

نتيجة البحث:

والنتيجة التي نستخلصها من هذا ذات نقط:

ان الله تعالى يجعل قاعدة التعامل العامة في المجتمع هي التبادل الذي يقوم على التعادل والتقابل.

وانه يستثنى من هذا العموم حالة التعامل على وجه التجارة ـ التي هي مال وعمل ـ فيبيح أن يكون هناك ربح لا مقابل له، من عمل أو مال.

وأنه لا يقيد الاباحة في هذا الا بقيد واحد هو أن يكون التعامل عن تراض من المتعاملين.

وان ما وراء ذلك من القيود والشروط يجب أن يكون موضع النظر والدرس من جديد.

٨

أركان الايمان والعقيدة الصحيحة

لا يمكن أن يكون مجتمع من المجتمعات مؤلفا من صنف واحد من الناس، هم جميعا على شاكلة واحدة في التفكير، وعلى مبدأ واحد في العقيدة الدينية، ولكن المجتمعات الطبيعية هي التي تكون موطنا متسعا لكل منهج من مناهج التفكير، ويكون لها من المرونة والسماحة ما يجعلها صالحة لأن يجد فيها كل ذي عقيدة مجالا حرا يزاول فيه نشاطه العقلي، ويتجه فيه اتجاهه الروحي دون مصادرة.

روابط فكرية وعقيدية، وقلة تعيش بجانب هذه الكثرة وتحت ظلالها آمنة مطمئنة، بل هذا هو الاصل في المجتمعات، فإن الفرق بين مجتمع ومجتمع هو ان الكثرة في هذا المجتمع متفاهمة متلاقية على نوع معين من العقائد والأفكار والأهداف، والكثرة في مجتمع آخر متلاقية على نوع آخر وأفكار وأهداف أخرى.

ثم انه لا عيب في الكثرة في مجتمع إذا هي تطلبت السيادة لأفكارها ومناهجها وعقائدها، ولم تسمح في هذا الجانب أن يعبث بها، ويجترأ عليها، وإنما يعيبها أن يخرجها ذلك الى لون من ألوان العصبية العنيفة التي تنتهي بها الى اضطهاد ما يخالف فكرتها، أو محاولة الارغام على عقيدتها.

والمجتمع الاسلامي في المدينة على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كان مجتمعا طابعه العام هو العقائد والمبادىء والأفكار التي جاء بها الاسلام، وكانت الكثرة الكاثرة فيه للمسلمين، والقوة الفعلية المؤثرة المدبرة، أو بعبارة أخرى: الهيئة الحاكمة للمسلمين، ولكنه كان مع ذلك مجتمعا مشتركا يضم فريقا كبيرا من اليهود لهم دينهم وتقاليدهم وأحياؤهم وعشائرهم، ويضم أفرادا من النصارى، وإن لم يكونوا على مثل ما كان عليه اليهود من الكثرة والنفوذ والمداخلة للمسلمين، وكان هذا المجتمع متمتعا بالحرية الفكرية الى درجة أنه كان موطن نضال وجدال بين المسلمين وأهل الكتاب من يهود أو نصارى، وأن الاسلام كان يلاقي من هذا النضال ألوانا من الصعاب يحتملها في صبر وثبات.

وكان على الاسلام أن يضع السياسة التوجيهية لهذا المجتمع، وأن تكون له ـ باعتباره دين الكثرة ـ سلطة التنظيم والتقنين، وهذا هو ما حدث فعلا، إذ كان التشريع لهذا المجتمع مصدره الكتاب والسنة وولاة أمر المسلمين.

وكان على الاسلام في جانب العقيدة أن يبين دعوته وأن يعلن على الناس عقيدته، وأن يجعلها بذلك واضحة معروفة، فإن الحقائق إذا ظهرت ووضحت كانت هي الداعية الى نفسها، والمدافعة عن نفسها، وإنما يضرها أن تكون غامضة غير واضحة، أو أن يكون هناك من يرجف عليها، ويضع بين العقول وبينها حجبا تحول دون اكتشافها ومعرفتها.

لذلك نرى سورة «النساء» في هذا الجانب تبين موقف الاسلام بيانا واضحا يجد فيه كل فرد من أفراد المجتمع دعوة موجهة اليه يتدبرها في نفسه ويجيل فيها عقله، ويحدد أمامها موقفه حرا مختارا.

١ – فجاء قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله، والكتاب الذي نزل على رسوله، والكتاب الذي أنزل من قبل، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا﴾(١).

---

(١) الآية ١٣٦ من سورة النساء.

فهذه الآية خطاب موجه الى جماعة المسلمين، والمراد بها تقرير أصول الايمان الصحيح، والعقيدة الكاملة، وهي الأصول التي جاءت بها كل رسالة إلهية، فليست خاصة بالمسلمين على عهد محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وإذن فمع كونها موجهة الى جماعة المسلمين، هي حقائق وأصول يعرفها أهل الاديان السابقة ويرون في تقرير القرآن لها قوة وإخلاصا واعترافا بالواقع الصحيح في غير مواربة أو تلكؤ، ولو كانت دعوة هذا الدين شخصية أو جزئية أو لها هدف غير بيان الحقيقة في ذاتها، لما كان لها أن تقرر أن الايمان الصحيح لا يتم إلا بالايمان برسل الله جميعا، وبكتب الله جميعا، وإذن فما الذي يدعو الى عدم الايمان بهذه الدعوة، وما الذي جاء فيها من جديد لا يعرفه أهل الاديان الأخرى؟

جاءت هذه الآية بأصول الايمان في كل دين، وهي:

١ - الايمان بالله، وذلك يقتضي الايمان بوجوده وبجميع صفاته التي ترجع الى انه تعالى موصوف بكل كمال، منزه عن كل نقصان، وأن جميع ما في الكون، ومن في الكون، خاضع لألوهيته، مستند الى فضله في إيجاده وإمداده.

٢ - الايمان برسوله، وقد يفسر هذا بمحمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهو المتبادر من التعبير بقوله «**ورسوله**» فإنه هو الرسول الحاضر المعهود للمخاطبين، وقد يفسر بأنه جميع الرسل ومن بينهم سيدهم وخاتمهم، على سنة المفرد المضاف الذي يعم، فالمراد على هذا آمنوا بالله ورسله، ولكنه عبر بالمفرد فقال: «**ورسوله**» ليفيد ان جميع الرسالات تمخضت في رسالة الرسول الأخير، وأن الرسالات وإن تعددت في العصور إنما هي رسالة واحدة لا تختلف في الأصول، وأن من آمن برسالة الرسول الأخير فقد آمن بالرسالات كلها، وقد يؤيد هذا التفسير الذي هو جعل قوله «**ورسوله**» عاما على سنة المفرد المضاف: ان الآية بعد ذلك تقول: ﴿ومن يكفر بالله ورسله﴾، وإذن فالمطلوب أولا هو الايمان بالله ورسله، ثم انها تتحدث عن الكتاب الذي نزل على محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ والكتاب الذي أنزل من قبل، أي الكتب السابقة على القرآن، وقد ذكرت بلفظ المفرد والمراد كل كتاب سماوي إيذانا بأنها كلها من حيث ما جاءت به من الحقائق، وما رمت اليه من الهداية، بمنزلة كتاب واحد، فهناك تشابه في

المعنى والأسلوب، بين قوله: ﴿آمنوا بالله ورسوله﴾ وقوله: ﴿والكتاب الذي أنزل من قبل﴾ من جهة أن كلا منهما يراد به العموم، وعبر عنه بلفظ المفرد لافادة المعنى الذي ذكرناه.

٣ - الايمان بجميع الكتب المنزلة، لا فرق بين كتاب وكتاب، فكل هذه الكتب من عند الله، فلا يصح في العقول أن يؤمن ببعضها ويكفر ببعض.

فإذا قال اليهود: لا نؤمن إلا بالتوراة، فهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، وإذا قال المسيحيون: لا نؤمن إلا بالإنجيل، فهم كذلك، بل هم حينئذ لا يكونون مؤمنين بالتوراة ولا بالإنجيل، لأن التوراة والإنجيل يأمران بالإيمان بمحمد وما جاء به محمد، ولا يعقل أن يكون لهما موقف من الرسالة المحمدية غير ذلك، فإن رسل الله، وكتب الله، مصدرها واحد هو الله، وهي كلها متعاونة على بيان حقيقة واحدة ودعوة الناس في كل عصر اليها، وهذا هو معنى أخذ الميثاق على النبيين أن يكون لاحقهم وسابقهم على غاية واحدة وعهد واحد، هو عهد الله وميثاقه:

﴿انا أوحينا اليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾[1] ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى﴾[2] ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم أصري؟ قالوا أقررنا، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾[3].

فإن قيل: ان المسلمين أيضا لا يؤمنون إلا بما يقرره القرآن، فالجواب: انهم يؤمنون بجميع الكتب السماوية كالقرآن، وكل ما في الأمر انهم يتحرون الحقيقة والصحة، ولا سبيل الى معرفة صحة شيء مما جاءت به الكتب السماوية إلا عن طريق القرآن، لأنه هو الكتاب الوحيد الذي نقل متواترا من أول عهد الرسول الذي جاء به الى الآن، وإلى ما شاء الله، أما غيره من الكتب، فقد

---

(١) الآية ١٦٣ من سورة النساء.

(٢) الآية ١٣ من سورة الشورى.

(٣) الآية ٨١ من سورة آل عمران.

عدا عليها الضياع، وعدا عليها التحريف، ولم تفز بمثل ما فاز به القرآن من حفظ وعناية، ولذلك يتخذ المسلمون منهجا ثابتا في شأن الكتب السابقة، يقوم على الايمان بها، والرجوع الى القرآن في ما قرره عنها، وذلك منهج منطقي، فلو ان المسلمين اعترفوا بما يرويه أهل التوراة والإنجيل، مع اعتقادهم المطابق لحكم التاريخ بأن هذين الكتابين لم يرويا من طريق تفيد اليقين، ومع تقرير كتابهم القرآن ما يتعارض مع الموجود من نصوصهما، لو أن المسلمين فعلوا ذلك لكانوا مخالفين للمنطق، ولكانوا مكذبين لكتابهم.

٤ - الايمان بعالم الغيب الذي ذكر منه في هذه الآية بعض ما فيه، وهم ملائكة الله على ما وصفهم به الله في كتابه المفيد لليقين، وفي ما يطمئن القلب الى وروده حقا عن رسوله الأمين، أما ما وراء ذلك من التفاصيل التي لم ترد عن أحد هذين الطريقين، فإنها ليست من العقائد الصحيحة التي يجب الايمان بها.

٥ - الايمان باليوم الآخر، وبكل ما جاء عنه في كتاب الله وفي السنة على ما ذكرنا: من الجنة، والنار، والوزن، والحساب، وغير ذلك، كما جاء دون تفصيل لما لم يفصل، ولا زيادة ولا نقص، فهذا هو المنهج السليم في شؤون الغيب والآخرة، لأنه لا مجال للعقل إثباتا أو نفيا في ذلك، ومادمنا نؤمن بالله، فيجب أن نؤمن بكل ما صح مجيئه عن الله، على الصورة التي جاء بها، فمن زاد عليها، أو نقص منها، فقد جاء بشيء من عنده.

٢ - وجاءت السورة أيضا في جانب الايمان والعقيدة الصحيحة بقوله تعالى:

﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا. أولئك هم الكافرون حقا، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا. والذين آمنوا بالله ورسله، ولم يفرقوا بين أحد منهم، أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما﴾[1].

---

(١) الآيات من ١٥٠ إلى ١٥٢ من سورة النساء.

وهـذه الآيات تعقد موازنة بين المؤمنين، ونوع معين من الكافرين غير المفرقين بين رسول ورسول.

ففي الآيتين الأوليين ذكر الله عز وجل أن من الناس فريقا يكفرون بالله ورسله، فليس في قلوبهم أصل الايمان بهما، وقد انطوت نفوسهم على معنى يراود بعض النفوس، وهو الذي كان يراود مشركي العرب من قبل، حيث يظنون أن رسالة البشر بالمعنى الذي تقرره الأديان غير جائزة عقلا، ولذلك يقولون نحن نؤمن بالله ولا نكفر به، لكننا لا نقبل أن يقال لنا ان هناك رسلا بعثهم الله من البشر، وإنما الرسل مدعون، وفي العصر الحاضر يحاول الذين يعتنقون هذه العقيدة أن يتخلصوا من مظهر التكذيب، أو بعبارة أخرى: يحاولون أن يهذبوا التكـذيب بمـا يلائم النفاق الاجتماعي - ان صح هذا التعبير - فبدلا من أن يقـولوا: ان هؤلاء الرسـل مدعـون كاذبـون كما كان يقول المشركون، نراهم يفضلون أن يقـولوا: ان هؤلاء الذين يقولون انهم رسل الله أفراد من العباقرة فكروا كثيرا في شؤون قومهم، وفي الله تعالى، **فامتلأت قلوبهم إيمانا بأنهم مرسلون من الله برسالات إصلاحية**، وان عليهم أن يخلصوا أتم الاخلاص لهذه الرســالات، وهـذا الايمان نابع من قلوبهم، وهم فيه مخلصون صادقون على حسب تصورهم، وليس لنا أن ننعتهم بالكذب، لأنهم لم يقصدوا كذبا، ولكن الأمر في واقعـه أنـه لا يمكن لأحد أن يتصل بالله، ولا أن يأخذ على الله، وأن الله لا يرسل رسلا من الناس.

هكـذا يقـولون، فإنهم يكـذبون الرسل في الحقيقة، ولكنهم ليسوا في سذاجة كفار قريش مثلا، الذين كانوا يعلنون هذا التكذيب صريحا جريئا ساذجا، لذلك يستعملون أسلوب المخادعة، فيضعون تكذيبهم في غلاف يخفي منظره السيء، ليسهـل تقبله على النـاشئـة ومن في حكمهم، ولئلا يقال عنهم انهم يطعنـون في أشخـاص الأنبيـاء والرسل، ويتهمونهم صراحة بالكذب وتضليل البشـر، ولكي يظهروا في الوقت نفسه بمظهر التعمق العلمي، وفلسفة الواقع المسلم من العامة على نحو يتفق والقوانين العلمية كما يزعمون[1].

---

(١) تحـدثنا عن هذا الموضوع في كتابنا «سورة الأنعام والأهداف الأولى للاسلام» حديثا جامعا بينا فيه شبه المنكرين للوحي ورددنا عليها - ص ٢٦ - ٤٠.

هؤلاء هم الذين يريدون أن يفرقوا بين الله ورسله، فيقولون نحن مؤمنون بالله، ومؤمنون بأن الرسل أشخاص نبغاء عباقرة مخلصون في أنفسهم، ولكن ليس معنى ذلك أنهم مرسلون حقا من الله.

وإذن فقد فرقوا بين الله ورسله في الايمان، ولذلك تفسر الآية هذه التفرقة بما يفيد هذا فتقول: **﴿ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض﴾** فهذا يصلح لأن يكون بيانا لتفريقهم بين الله ورسله، ولقولهم نؤمن بالله، ولا نؤمن بأن له رسالات الى البشر، وكذلك يفهم هذا المعنى من قول الآية بعد ذلك: **﴿ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا﴾** وهو سبيل التوسط في نظرهم أو في زعمهم بين من يجحد الله ومن يؤمن بأنه موجود وله رسل يرسلهم، فيقولون نحن نؤمن بالله ولا نؤمن برسالات يبعث بها البشر، فنحن عل سبيل وسط بين هؤلاء وهؤلاء.

وقد بين الله تعالى أن هؤلاء كاذبون في ادعائهم الايمان بالله جل شأنه، فلو آمنوا بالله حقا لآمنوا بأن إرسال الرسل شأن من شؤون الحكيم الرحيم، ولتدبروا في دعوات هؤلاء الرسل وما جاءوا به من الإعجاز والدلائل الدالة على صدقهم، كل بحسب زمانه، ولكنهم إنما يتخذون ذلك سبيلا الى المخادعة والتستر وراء إيمانهم المزعوم بالله.

ولذلك تصرح الآية ـ بعد أن ذكرت زعمهم، وبينت ما يقولونه ومـا يريدون ـ بواقع أمرهم فتقول: **﴿أولئك هم الكافرون حقا﴾** فتؤكد هذا الحكم بأسلوب الجملة المعرفة الطرفين، مع ضمير الفصل، ومع كلمة «**حقا**» الى جملة مؤكدة أخرى تقديرها حق ذلك حقا، أي ثبت ذلك ثبوتا لا يقبل الشك، ثم تصرح الآية بأن جزاءهم هو جزاء الكافرين فتقول: **﴿وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا﴾**.

أما الآية الثالثة من هذه الآيات، فتذكر الذين آمنوا بالله ورسله، في مقابل الذين كفروا بالله ورسله، وتذكر عدم تفريقهم بين أحد منهم، في مقابل تفريق الكافرين بين الله ورسله، وتذكر وعد الله تعالى بإيتائهم أجورهم وتشيد بآخر جملة فيها الى أن الله تعالى سيعاملهم أيضا بمقتضى غفرانه ورحمته، فيعفو عما عسى أن يكون منهم بعد الايمان الصحيح من ذنوب فرطت: **﴿وكان الله غفورا رحيما﴾**.

وبهذا يتبين أنه ليس في هذه الآيات تكرار مع الآية السابقة التي تقول: ﴿يا أيها الذين آمَنوا آمِنوا بالله ورسوله﴾ وان المعنى في كل جديد، فالآية الأولى أمر الايمان بالله وبجميع رسله، وبجميع كتبه، وتحذير من التفريق بين رسول ورسول، وكتب وكتاب.

أما الآيات الثلاث الأخرى، فهي حديث تحذيري عن فلسفة أخرى هي فلسفة المفرقين بين الله ورسله، إلا المفرقين بين رسول ورسول، كما جرى عليه أكثر المفسرين.

٣ - وجاءت السورة في هذا الجانب أيضا: جانب بيان أركان الايمان والعقيدة الصحيحة بآيات تناقش فيها اليهود بمناسبة ما سألوا النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أن يأتي به تحديا له، وذلك هو قوله تعالى: ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك، فقالوا أرنا الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم، ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات، فعفونا عن ذلك، وآتينا موسى سلطاناً مبينا﴾ الى قوله تعالى: ﴿لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك، وما أنزل من قبلك، والمقيمين الصلاة، والمؤتون الزكاة، والمؤمنون بالله واليوم الآخر، أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما﴾(١).

وقد تضمنت هذه الآيات تقرير عدة حقائق، هي:

١ - ان اليهود قوم متعنتون، وانهم متجرئون على الله الى حد انهم يطلبون رؤية الله جهرة، وانهم في هذا ظالمون.

٢ - وانه بلغ من أمرهم في تاريخهم ان اتخذوا العجل إلها يعبدونه، ولا شك أن هذا ينافي رسالة موسى التي أرسله الله بها، ولذلك تقول الآية المسجلة لهذا عليهم: ﴿وآتينا موسى سلطانا مبينا﴾.

٣ - ان لليهود تاريخا في العصيان ونقض المواثيق والكفر بآيات الله، وقتل الأنبياء بغير حق، والعناد والمكابرة، واتهام مريم البتول بالبهتان، والاعتقاد

---

(١) الآيات من ١٥٣ الى ١٦٧ من سورة النساء.

بصلب المسيح، الى غير ذلك من الأعمال والعقائد المنافية لأصول الايمان التي جاءهم موسى بالبينات الواضحات فيها.

٤ – ان منهم فريقا راسخين في العلم يعرفون الحقائق الصحيحة ويدينون بالايمان بما أنزل الى محمد وما أنزل من قبله، وان هؤلاء سيؤتون كسائر المؤمنين أجرا عظيما.

***

٤ – وجاءت السورة في هذا الجانب أيضا ببيان وجهته الى النصارى، يقرر ان الحقيقة والعقيدة الصحيحة تنافي ما هم عليه، وانهم في دينهم غالون، وان الله إله واحد، وما المسيح ابن مريم إلا عبد من عباده وكلمة ألقاها الى مريم، وروح منه، وانه تعالى منزه عن أن يكون له ولد، وله ما في السموات وما في الأرض، وأنه لا عيسى ولا الملائكة المقربون يستنكفون عن عبادته أو يستكبرون.

وبذلك حددت السورة أيضا موقف الاسلام والدعوة المحمدية من العقيدة المسيحية، وناشدت أهلها أن يعودوا الى أنفسهم، ويتدبروا ما يليق بالله وما لا يليق، ليدركوا ما هم عليه، وينتهوا خيرا لأنفسهم.

وقد جاء ذلك كله في قوله تعالى:

﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق، إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه، فآمنوا بالله ورسله، ولا تقولوا ثلاثة، انتهوا خيرا لكم، إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد، له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا. لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم اليه جميعا، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله، وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دونه وليا ولا نصيرا﴾[١].

---

(١) الآيات من ١٧١ الى ١٧٣ من سورة النساء.

وبهـذا كله اتضحت الحقـائق، وأعلنت العقيدة الاسلامية الصحيحة، وزيفت العقائد الباطلة، والأوهام الفاسدة، ومن ثم اتجهت السورة الى الناس جميعـا بهـذه الدعـوة العـامة الى الايمان الصحيح، والنور المبين، والرحمة والفضل والصراط المستقيم. وذلك قوله عز وجل:

﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربك وأنزلنا اليكم نورا مبينا. فأما الـذين آمنـوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطا مستقيما﴾[1].

أما بعد:

فهذا ما اتسع له المجال في هذا الكتاب عن

«المجتمع الاسلامي كما تنظمه سورة النساء»

أحمد الله تعالى إذ وفقني اليه، وأستغفره مما عسى أن يكون قد وقع فيه من خطأ أو تقصيـر، فالانسان خطاء، وجهده محدود، ولكن نية المرء خير من عمله، وما أردت إلا الخير والاصلاح، والله على ما أقول شهيد، وهو حسبي ونعم الوكيل.

والحمـد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله، رسول الله الى العالمين أجمعين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الهداة الراشدين، ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين.

---

(١) الآية ١٤٧ من سورة النساء.

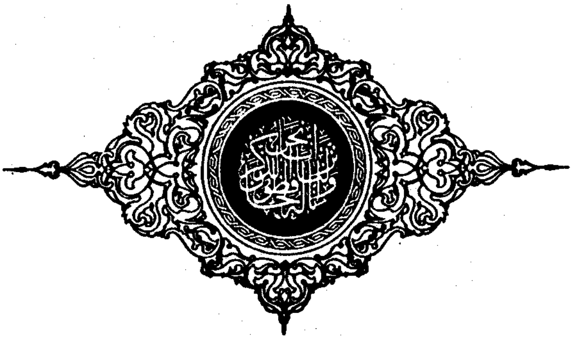

محتويات الكتاب

مقدمة 7

تمهيد 17

(١) سورة النساء وترتيب القرآن 17

(٢) اسم السورة وعناية القرآن بالنساء 22

(٣) عرض اجمالي لما تضمنته السورة 23

(٤) اقسام البحث 34

القسم الاول

المبادىء والتوجيهات التي اقامت عليها السورة نظام المجتمع 37

الاصول العامة والتوجيهات 39

١ ـ المساواة بين الناس 41

العالم والنظام الطبقي 41

المرأة في العالم القديم 44

التفرقة بالجنس او بالنوع مخالفة للنواميس الكونية، آية النساء 46

الاولى تقرر المساواة، تحليل علمي للآية 47

النتائج التي اسفر عنها هذا التحليل، التفاوت الطبيعي
بين الرجل والمرأة . . . 49
مبدأ المساواة في غير آية النساء من القرآن عامة 51
السنة المطهرة ومبدأ المساواة 53
الصحابة ومبدأ المساواة 54
٢ ـ الايمان بالله وحده 57
قضية التوحيد على نحو جديد، التوحيد عملا بعد التوحيد علما 58
اهداف التشريع الاسلامي، الاذعان شرط في الايمان 59
ظاهرتان من ظواهر القرآن: 62
(١) تذييل الآيات بصفات الله 62
(٢) التنقل والتوزيع ترويحا للقلوب 64
آيات تجمع الظاهرتين، الشرك ألوان . . . 65
يا أهل التثليث: انتهوا خيرا لكم . . . 70
٣ ـ العدل في الحكم والقضاء والشهادة 71
العدل في سورة النساء 71
آيتان جامعتان . . . 74
على «القوامية» تبنى عظمة الأمم 75
القسط صمام الأمن في كل مجتمع 77
العدل ميزان لا يتأثر بالحب ولا بالشنآن، البغض في الله لا يبرر
الانحراف عن العدل 77
قضية فيها درس وعبرة 79
الرسول انما يقضي بما يتبين له حسب اجتهاده 81
٤ ـ التضامن الاجتماعي العام 83
توحيد الله، والاحسان الى الناس، صور الاحسان 84
تحذير المجتمع من مظاهر «الارستقراطية» 86

الجود بالمال 88
السنة والتضامن الاجتماعي 90
الجود بالنفس 92
القتال مظهر من مظاهر التضامن الاجتماعي ـ قيمته كتضحية عظمى ،
واهدافه وآدابه 93
المرجفون على المجتمعات 94
المسؤولية الشخصية 96
طاعة الرسول، والرجوع الى اولى الامر، القتل العمد من اعظم الجرائم 98
حرمة القتل تأولا واحتجاجا بالنوايا ـ تغليظ الكفارة على قاتل الخطأ،
والعقوبة الاخروية على قاتل العمد 100

٥ ـ الآيات المحذرة: 105
انواع المنافقين واساليب نفاقهم: 105
(١) المخذلون 106
الحرب بالشبه والأضاليل 107
تزلزل أهل النفاق ـ بواعث النفاق ـ من مظاهر النفاق
الاستهزاء بالدين 108
وجوب مقاطعة المستهزئين بآيات الله ـ تحقيق ان الآية
ليست منسوخة 110
المنافقون انتهازيون 112
تحقيق المراد بقوله تعالى «ولا يذكرون الله الا قليلا» 114
(٢) ـ موقف اليهود من الدعوة الاسلامية وموقفها منهم: 117
نضال الدعوة مع المشركين في مكة 117
الامل في التعاون مع اليهود، باعتبارهم اهل الكتاب ـ تبادل المودة بين
المسلمين واليهود اول العهد بيثرب. 118
انطواء اليهود على المخاتلة وبدء فتنهم ـ حرب الارجاف والجدل
اهتمام القرآن بهذه الحرب 120

تحقيق المراد بكونهم «اوتوا نصيبا من الكتاب» 126
انذار اليهود 131
بيان المراد مما جاء في القرآن من تفضيل اليهود على العالمين 133
الفضل والخيرية وخضوعهما للسنن الكونية 135
رأي أحد اليهود المعاصرين في هذا الموقف 136
النوع الثالث من المنافقين 138
٦ ـ الآيات الموجهة: 155
تمهيد 155
٧ ـ الآيات المبشرة: 169
تمهيد 169
رسالة الاسلام في المجتمع، رسالة رحمة وتبشير وتيسير 173
حق الانسان في أن يخطىء وأن يعفى عن خطئه ـ الآيات المبشرات خير
لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس أو غربت 176
دراسة للآيات المبشرات ـ آجتناب الكبائر يكفر الصغائر
ويدخل الناس مدخلا كريما 178
عمر بن الخطاب وجماعة من المصريين المتزمتين 179
ما هي الكبائر؟ 181
الآية الثانية ـ من الآيات المبشرة 183
لكل درجات مما عملوا 183
لا حظ للكافرين من ثواب الآخرة ـ سر التفرقة في ذلك بين
المؤمن والكافر 185
الاحسان فوق العدل 187
معنى مضاعفة العذاب للمجرمين وتبديل السيئات
حسنات للمؤمنين 188
الآية الثالثة ـ من الآيات المبشرة 192
الشرك حجاب 193
الآية الرابعة ـ من الآيات المبشرة ـ كيف تدفع هذا التمويه 194

الآية الخامسة ـ من الآيات المبشرة: الخلاصة ـ ان آيات التبشير تفتح سبعة أبواب للرجاء 198

القسم الثاني
أهم الأحكام التي تضمنتها سورة «النساء» 201

١ـ أحكام اليتامى: 203
(١) حفظ أموال اليتامى 205
(٢) اصلاح أموال اليتامى والسفهاء 209
(٣) الانفاق على اليتامى والسفهاء 211
(٤) بم نصلح اليتامى، ومتى ندفع إليهم أموالهم 213
(٥) ارتسام النوايا الطيبة في شئون اليتامى 215
(٦) الاشهاد على اليتامى عند دفع أموالهم إليهم 217
ضريبة التركات 218
٢ـ تعدد الزوجات: 219
رأي أم المؤمنين عائشة 220
نقد هذا الرأي 222
وجوه أخرى مروية في تفسير الآية ـ رأي جديد 224
التحقق من شرطي التعدد حق مشروع لولي الأمر 229
حكم التسري بالمملوكات ودلالة الآية في شأنه 230
تحقيق وتخريج لرأي جريء 231
ليس في القرآن الكريم أمر بالرق ولا بالتسري ـ للاسلام خطة يجري عليها لتصفية الاسترقاق والتسري 234
٣ـ أحكام المواريث: 239
الملكية والتوريث حقان مشروعان ـ انكار هذا المبدأ الطبيعي مفسد للفرد والمجتمع 240
موازنة بين الاسلام وغيره، في أهم تفاصيل الميراث 244
٤ـ جريمتان فاحشتان 249
اختلاف بين المفسرين وبيان الراجح من الآراء 249

رأي أبي مسلم وبيان رجحانه 251
٥ـ **أحكام التوبة:** 255
ما هي التوبة؟ ـ التوبة رابطة بين الله وعباده 256
أصناف التائبين وأحكامهم 257
٦ـ **أحكام الأسرة:** 263
منزلة الأسرة في المجتمع 263
أحكام الزوجية في سورة النساء، جعل الصداق على الرجل دون المرأة 265
حماية الأسرة من الرذيلة، ابطال عادة ارث النساء،
تحريم عضل الزوجات. 266
حق كل من الزوجين على صاحبه 268
أحوال الخلاف بين الزوجين 269
(أ) نشوز المرأة وكيف يعالج 269
(ب) نشوز الرجل وكيف يعالج 275
خطأ مشهور 278
(جـ) حالة الشقاق بين الزوجين 280
المحرمات من النساء وبيان الحكمة في تحريمهن 282
الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها 285
نكاح المتعة ـ الزواج والبيئة الصالحة 286
٧ـ **قاعدة التعامل المالي** 289
التعامل المالي شأن أساسي ـ الاباحة الأصلية وقانون «الاستيلاء» 290
الصناعة والتجارة ـ الاسلام يقيم التعامل المالي على أساس
التقابل الطبيعي 291
أموال الأفراد ذات اعتبار عام 292
ما هو الباطل في قاعدة التعامل ـ على أي معنى استثنيت التجارة 293
رأي اصلاحي جديد 295
نتيجة البحث 297
٨ـ **أركان الايمان والعقيدة الصحيحة** 299

المجتمع المثالي

كما تنظمه سورة النساء

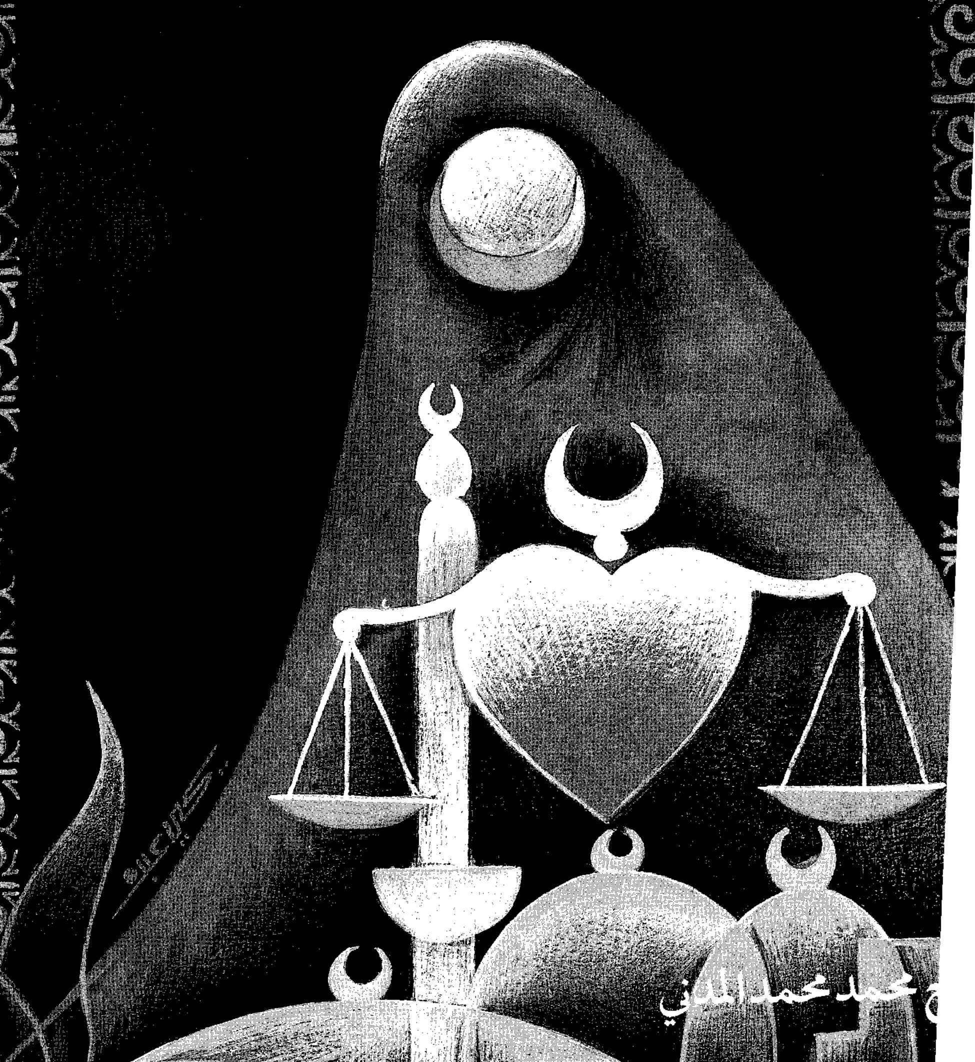

محمد محمد المدني

من الإصدارات الدينية

الدار المصرية للنشر والتوزيع

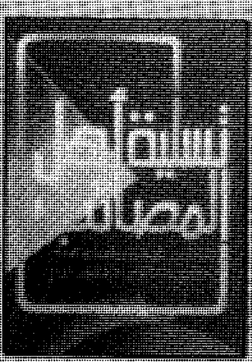

تسلية
أهل
المصائب
للإمام محمد الحنبلي

قصة أيامي
مذكرات
الشيخ كشك

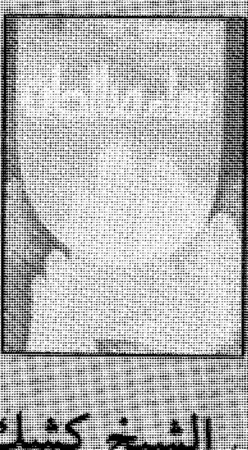

آيات قرآنية
نزلت في نساء
صالحات
للدكتور فيصل ابو رحيه

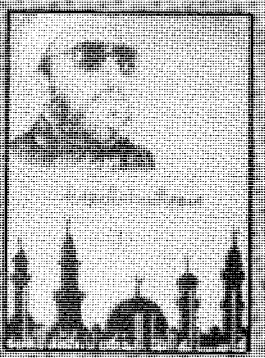

فتاوى الشيخ كشك
للشيخ عبد الحميد كشك
عشرين جزءاً صدر منها ثمانية أجزاء

من الإصدارات الدينية

الدار المصرية للنشر والتوزيع

السحر في التصور الإسلامي

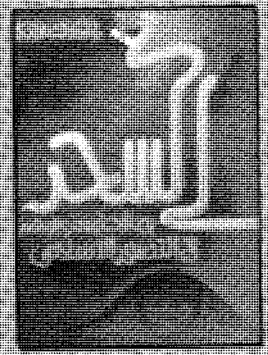

للدكتور
عبد السلام السكري

من فيض الرحمن في معجزة القرآن

للشيخ الشعراوي

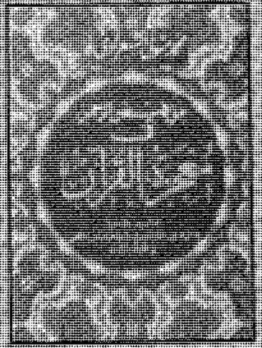

ختان الذكر وخفاض الأنثى من منظور إسلامي

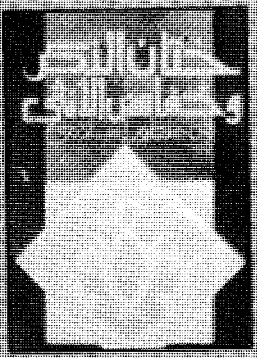

للدكتور
عبد السلام السكري

نقل وزراعة الأعضاء الآدمية من منظور إسلامي

للدكتور عبد الحميد السكري

الناشر

الدار المصرية للنشر والتوزيع

al dar al-masria publishing & distribution house ltd.

20 Kalypso, St., suite 301, Acropolis, P.O.Box 8559

Tel. (02)498688, Telex 5341 Hosni-Cy Fax-(003572) 312983

Nicosia - Cyprus